الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية

قسم: التاريخ

الثقافة الشعبية تخصص: أدب شعبي

أطروحة تخرج مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الأدب الشعبي

موسومة بـ:

مصادر الحكمة في القصيدة الصوفية

- نموذج أبي مدين شعيب -

من إعداد الطالبة:

*بلعيد رجاء

تحت إشراف:

أ.د. أوشاطر مصطفى

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د. محمد سعيدي	أستاذ	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. مصطفى أوشاطر	أستاذ	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
أ.د. نصيرة بكوش	أستاذ	جامعة تلمسان	عضوا
أ.د. قيداري قويدر	أستاذ	جامعة معسكر	عضوا
أ.د. كاملي بلحاج	أستاذ	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
د. لريك حورية	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة سيدي بلعباس	عضوا

السنة الجامعية: 2020-2021م/1442-1443هـ

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾

[الحج: 24]

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة: 105]

تَاهَتْ تِلمسان بِدَولته عَـــلى ... كُلّ البلاد بِحُسن منْظَرِهَا الجلي
رَاقَتْ مَحاسنها ورقّ نَسيمـها ... فَحلاَ بِها شِعري وطَاب تَغَزلـي
عَرج بِمُنعرجات باب جِيادها ... وافْتح بِهَا باب الرجاءِ المُقْفَـــلِ
ولْتغْدُ لِلْعبّاد منْـــهَا غَـــدْوةً ... تُصبِح هُمُوم النَّفْس عنْك بِمعزل
وضَرِيح تَاجَ العارفِين شُعيبها ... زره هناكَ فَحبَّذَا ذَاكَ الـــــولي
فَمزاره لِلدّينِ والدُّنْيا مـــعـــاً ... تُمْحى ذُنُوبكَ أَو كُروبكَ تنْجلي

محمد المقري التلمساني

" الحِكْم نَتِيجةُ الحِكْمة، والعِلْم نَتِيجةُ المعْرِفَة، فَمن لاَ حِكْمةَ لَه لاَ حكْم لَه، ومن لاَ معْرِفَةَ لَه لاَ عِلْم لَه."

الشيخ الأكبر

(محي الدين ابن عربي)

الإهداء

إلى حبيبي وشفيعي وقرة عينيونور قلبي محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

إلى سندي في هذه الحياة أبي العزيز وأمي الغالية

إلى أختي الحبيبة ، وإلى رفيقة دربي زينب .

***

إلى كل شيخ وعالم مربي

متصل بالأصل ،مرتبط بالعصر . .

أهدي هذا العمل .

كلمة شكر

ككل مرة أتوجه بالشكر، إلى تلمسان الغالية التي لم تبخل علي

بإلهامها وإمدادها

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الفاضل د. "مصطفى

أوشاطر"، والذي ساعدني بتوجيهاته طوال رحلتي في هذا

البحث، كما لا أنسى أساتذتي بقسم التاريخ على دعمهم، فلهم

كل الشكر والتقدير.

مقدمة

المقدمة :

ظل موضوع التصوف مجالاً رحبا، وسلماً يعرج من خلاله السالكون ،الذين تخلصوا من حظوظ الدنيا، وزخرفها ومن ظلام العالم المادي، ليختاروا الحياة الروحية التي أدّت بهم إلى الحب والقرب من الذات الإلهية . فظلوا يجاهدون بأنفسهم للحفاظ على أفكارهم ومبادئهم، ومن أجل بلوغ هدفهم الأسمى، وهو القرب من الله ونيل رضاه .

فعرف الصوفي برقة المشاعر ما يقابلها القسوة على النفس بالمجاهدات والرياضات لترويضها وتربيتها، ولا يتم ذلك إلا إذا تحلى بفضيلة الصدق والإخلاص في طريقه إلى الله .

كان الشعر الصوفي منبعاً مهما، وركيزة أساسية استند عليها المتصوفة، مكنتهم من البوح عما يجول في خواطرهم من فيض الشوق والمحبة، فألهمهم ذلك نظم شعر سلس عذب يحمل تجربتهم الصوفية ويعبر عن خالص مشاعرهم وأصدق عواطفهم تجاه الذات الإلهية .

و ترك التصوف المغاربي بصمة بارزة في تاريخ تطور الفكر الصوفي الإسلامي، فشهدت المنطقة نشاطا واسعا في مجال التصوف، بلغت أوج ازدهارها خلال القرنين السادس والسابع الهجريين مما أدى إلى تطور النتاج الشعري الصوفي في أدب االمغاربة بشكل ملحوظ، حيث نضجت أفكاره وموضوعاته، على يد شعراء مبدعين ارتقوا بالقصيدة الصوفية من الناحية الفنية والفكرية، وخلّدوا أشعارا ذوقية مليئة بالرموز والإشارات، اضطرهم إلى ذلك ضرورة حفظ الأسرار الإلهية عن غير أهلها.

فتعد القصيدة الصوفية نتاج لمعاناة صادقة نابعة من تجارب وخبرات الشاعر الصوفي فهي تجربة متميزة تعطي الألفاظ معاني روحية وجدانية تملؤها بايحاءات تبعدها في كثير من الأحيان عن مقصدها الحقيقي، فتضفي عليها معنى جديد .

وقد كان العارف بالله شيخ الشيوخ " أبي مدين شعيب " من الشعراء الذين جرت الحكمة على لسانه، فظهر ذلك في معظم كتاباته وقصائده والتي كان منبعها الأول الكتاب والسنة هادفا بذلك إلى تربية النفس وتهذيبها على القيم الأخلاقية والسمو بها إلى أعلى المراتب والمقامات .

على هذا المقصد حاولنا أن نقيد هذا التصور بسياق معرفي ومنهجي يحاول تبيين جانب الحكمة في القصيدة الصوفية، فقمنا باختيار قصائد "أبي مدين شعيب "كنموذج للدراسة، فكان عنوان التصور على النحو الآتي " مصادر الحكمة في القصيدة الصوفية "شعر أبي مدين شعيب أنموذجا"

فكان الغرض من هذه الدراسة الكشف عن جانب مهم وجديد ألا وهو استخراج الحكمة الكامنة في بعض قصائد أبي مدين شعيب .

من الدوافع التي قادتني نحو هذا الموضوع وهو ولوعي وانشغالي بالأدب الصوفي، حيث كان أول تعامل لي مع نصوصه من خلال اطلاعي لكتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، واطلاعي أيضا على بعض أشعار المتصوفة أمثال جلال الدين الرومي و الحلاج و الجنيد البغدادي وابن عربي ...فشدّني هذا النوع من الفكر الذي يهتم بالجانب الروحي الذي بتنا نفتقده في أيامنا هذه، وكذلك اطلاعي على ديوان الشيخ القطب "أبي مدين شعيب" فأبهرني حسه الراقي الذي يأخذك إلى معالم الذات العلية، حينها فكّرت أن يكون موضوعا لدراستي باتفاق مع المشرف د. "مصطفى أوشاطر " الذي رحب بالفكرة. مما شجعني على الخوض في مثل هذه التجربة من الإبداع الشعري التي تتميز بالذوق الراقي واالجمال الفني .

أما الدوافع الموضوعية التي أدّت بي إلى دراسة مثل هذا الموضوع وهو رغبتي في الكشف عن جانب من جوانب تراثنا الشعري العريق، الذي يساهم في بناء هويتنا في انتمائنا للمغرب العربي، وأيضا محاولة اختراق والدخول في رحاب قصائد سيدي" أبي مدين شعيب " والسعي لفهم معانيها ومقاصدها، آملةً أن أكشف عن بعض أسرارها التي جعلتها مؤهلة لتصنف ضمن أشهر وأرقى نصوص الشعر

الصوفي . ومن أبرز البحوث والدراسات السابقة التي تناولت بعض جوانب هذا الموضوع نذكرمنها على سبيل المثال :

ـ **اللّمع** لـ **"أبو نصر السراج الطوسي" ت 378هـ/988م**. وهو موسوعة في تاريخ التصوف الإسلامي وطبقات الصوفية وعلومهم ومصطلحاتهم أفاد البحث كونه منهلا خصبا لكل من أرخ للتصوف ، فيبين لنا من خلاله وجه التصوف الإسلامي كما جاء به القرآن وكما صوره النبي صلى الله عليه وسلم، وكما عاشه أعلامه ورجاله وهم الصفوة من عباد الله وخيرتهم.

كذلك " **الرسالة القشيرية " لـ الإمام " أبي القاسم عبد الكريم القشيري الشافعي" ت 465هـ**، وهي عبارة عن مجلدان ، المجلد الأول خصصه لتراجم مشايخ التصوف ، ثم ترجم لحوالي ثلاثة وثمانين شخصا من كبار أعلام التصوف.

بالإضافة إلى مصادر صوفية أخرى أفادت البحث مثل : **"كتاب التشوف إلى رجال التصوف" لـ " أحمد التوفيق ابن الزيات التادلي"، ويعد هذا العمل الذي ألفه عام (617هـ/ 1220م)** وهو أهم مصدر تراثي مغربي الذي استطاع من خلاله الكشف عن مناقب الكثير من صلحاء وأولياء المغرب ـ **ابن الخطيب لسان الدين محمد الغرناطي تـ 776هـ/1374م**. نشأ في أسرة عرفت بالعلم والفضل، تأدب في غرناطة فأخذ على شيوخها القرآن والفقه واللغة والتفسير ، درس الطب والفلسفة في جامعة القرويين بمدينة فاس، زار تلمسان سنة 773هـ/1371م، وتعرف ابن الخطيب من خلالها على الفقهاء الصوفية في تلمسان. وفي كتابه " **روضة التعريف بالحب الشريف** " أفاد البحث في الجانب النظري للتصوف الفلسفي ،والتصوف السني، وفي جانب الجمع بين الطريقة والحقيقة ، مما يوضح ذلك باعه الطويل في علم التصوف.

ـ **ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد تـ 808هـ/1405م**. عاش ابن خلدون في كنف العصبيات البربرية والعربية ، ومارس تجربة التخلي والإنقطاع ، وجالس العلماء والفقهاء والصوفية وتشرب من الثقافة المغربية الدينية والعلمية، وأضاف إليها، فأصبح بذلك من العلماء الذين لا يمكن تجاهلهم

أو انكار جهودهم . نجد كتابه "المقدمة " الذي ألفة عام 776هـ/ 1374م. وظل ينقحه 780هـ/1378م . وكتابه " **شفاء السائل** " الذي انتهى من تأليفه عام 790هـ/1388م فقد كشف فيهما عن باعه الطويل في التصوف ، وعالج قضايا شتى تخص تصوف عصره وأظهر مواقفه من التصوف.

ـابن القنفذ أبو العباس أحمد بن الحسن القسنطيني ت 810هـ/ 1407م. في كتابه " أنس الفقير وعز الحقير" الذي كان ثريا بالمعطيات التاريخية عن حياة الصوفية وأفكارهم وطقوسهم وأشكال المثاقفة الصوفية ومشاريع ومشاريع الإصلاح ضمن اطار المنظومة المالكية الأشعرية في قالب صوفي.

وإدراكا منه لأهمية تأثير الطريقة المدينية في التصوف المغربي عموما حتى القرن 8هـ/14م. جعل كتابه للصوفي أبي مدين شعيب ت 594هـ/ 1198م ومدرسته، ومن هنا جاء الكتاب إلى جانب رصده لنشاط شيوخ الطريقة المدينية ، الذي سجل فيها مشاهداته أثناء رحلته بالمغرب الأقصى ، أفادت البحث في تحديد وضبط المصطلح الصوفي ، وفي الوقوف على رأي المالكية في الطريقة الصوفية وشرعيتها، وفي تأكيد موقع جده يعقوب بن عمران البويوسفي في مسلسل سند الأخذ عن أبي مدين شعيب بواسطة تلامذته وفي تأكيد انتماء الزاوية الملارية للطريقة المدينية ، كما يعد المصدر الأساس في الوقوف على العمران الصوفي بمدينة قسنطينة وتلمسان، وفي الكشف عن الموقع الإجتماعي للصوفية من حيث دورهم الإجتماعي وأسلوب حياتهم في المأكل واللباس والسكن.

ـ ابن صعد محمد بن سعيد التلمساني تـ 901هـ/1496م. فيكتابه " **النجم الثاقب في ما لأولياء الله من مفاخر المناقب"** ومختصره **"روضة النسرين في التعريف بأشياخ الأربعة المتأخرين"** .وفي هذا العمل اهتم أكثر بصوفية المغرب الأوسط من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري، واتبع في ذلك منهجية توثيقية مكثفة ،فعرف بالشخصية الصوفية ويبرر سلوكها الصوفي ومنطلقاتها الفكرية بأمثلة نموذجية متنوعة ،فقهية وتاريخية وأدبية وحكايات ،ومواعظ ورقائق.كما أبرز قضية التقشف عند

الصوفية ودورهم الإجتماعي في إعالة الفقراء، ويعتبرون وسيط مهم بين المجتمع والسلطة، وتحديد طبيعة العلاقة بين السلطة والصوفية.

ـابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني تـ 1014هـ/ 1605م. في كتابه " **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** " والذي ألفه في أواخر عمره سنة 1011هـ/1601م. وقد ألف ابن مريم اثنا عشر كتابا في موضوعات العقائد والحديث والأذكار وحكايات الصالحين مما أهله في انجاز كتابه "البستان"، ترجم فيه لمائة واثنين وثمانين من الأولياء والعلماء الذين عاشوا بتلمسان.وتتمثل أهمية نصوص "البستان " في الوقوف على ظاهرتي التقشف والتنعم عند الصوفية في المأكل والملبس والمسكن.

ـالتنبكتي أحمد بابا بن أحمد تـ 1036هـ/1631م. والذي نشأ في أسرة علم وصلاح ، فكان معظم أفرادها أئمة ورجال دعوة وقضاء ، تشرب من المناخ الثقافي والفكري في تنبكت في عهد آل أسكيا ملوك سنغي الذين شجعوا حركة استنساخ الكتب فتوفرت لدى التنبكتي وعائلته على مكتبات غنية بالنفائس، ولما نقله منصور الذهبي إلى مراكش ، استفاد في الفترة ما بين 1002-1016هـ/ 1593-1607م، من خزانات جامع الأشراف وجامع ابن يوسف والحرم العباسي، ثم رجع إلى بلاده وتوفي بها. وقد ألف ما ينيف عن ستين كت" **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج** " ابا في الفقه والحديث والسيرة والعقائد والتصوف والتراجم والتوحيد والأصول والنحو واللغة والتراجم منها كتابه 1005هـ-1596م . وفيه ترجم التنبكتي لعدد كبير من فقهاء وصوفية وعلماء من مدن: تلمسان وبجاية ومازونة وندرومة ومشدالة وزواوة ومليانة وقسنطينة ومن قبائل زناتة والعرب الهلالية. وكذلك كتابه " قدم من خلاله علاقة العلم بالتصوف وكيف يكون الإقبال على العلم طريقا إلى الزهد والتصوف إلى الكشف واكتساب المواهب والفيوضات الربانية.

ـ المقري شهاب الدين أحمد بن محمد تـ 1041هـ/1631م. يعتبر كتابه **"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"** أهم موسوعة تاريخية وأدبية وفنية وفلسفية

وعلمية في تاريخ الأندلس والمغرب، كشف من خلاله أشكال المثاقفة الصوفية بين المغربين الأقصى والأوسط وخصوصا بين صوفية فاس وتلمسان.

أما بالنسبة للبحوث الأكاديمية فاعتمدت على:

ـ جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين التلمساني، للباحث حمزة موساوي ،إشراف الدكتور أحمد موساوي، رسالة ماجستير في الأدب الجزائري القديم، 2007، جامعة قاصدي مرباح بورقلة .

ـ الطاهر بونابي ، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، 14-15 الميلاديين، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، 2008-2009.

ـ الطاهر بونابي ، التصوف في الجزائر ، خلال القرنين 6و7 الهجريين / 12و13 الميلاديين، مذكرة ماجستير، جامعة محمد بوضياف ، المسيلة،1999.

وتساؤلات كثيرة يمكن أن أطرحها في هذا المضمار أبرزها :

- هل يحتاج السالك لطريق التصوف زادا معرفيا وعلميا خاصاً أم هناك طرق أخرى لبلوغ مراتب هذا العلم؟
- ما هي أهم مصادر الحكمة الصوفية ؟
- كيف تتكون الحكمة لدى الرجل الصوفي ؟
- ما هي المنابع الأساسية التي استقى منها أبو مدين هذا العلم ؟
- هل كانت لأعمال أبي مدين شعيب الأثر الواضح في تربية النشئ ؟
- هل استطاع الدارسون لتراث أبي مدين شعيب فهم مقاصده ومراميه الروحية ؟
- هل وصلوا بقصائدهم إلى مقاصدهم ؟

والهدف من هذه المعالجة الوصول إلى مصادر القصيدة الصوفية والكشف عن جانب الحكمة منها، وغايتنا أيضا أن نسلط الضوء على جانب مهم مما قدمه الشيخ العارف بالله " أبو مدين شعيب "

للتراث الإنساني، ولبلوغ هذا الهدف سنحاول الإحاطة ما أمكن بجملة من الإشكالات التي تقدّمت الإشارة إليها .

أما المنهج الذي حاولتاتباعه فقد كان المنهج التاريخي بآليات التحليل الذي يعطي الأهمية البالغة للمادة المعرفية وفق المفهوم الصوفي الذي نشأ في رحابها، وبعدها يتم ربط جوانب الموضوع بالتحليل الذي يختلف بإختلاف سياقات البحث .

ويقوم البحث على خطة منهجية مشكلة من مدخل تمهيدي وثلاثة فصول مذيلة بخاتمة تبرز أهم النتائج المتوصل إليها :

أما المدخل فانصب أساسا حول مفهوم التصوف، نشأته، موضوعاته، ومصادره، و أنواعه.

وأما الفصل الأول فقد كان حول : حياة أبي مدينشعيب وتكوينه العلمي ومنهجه في التصوف، وأهم الرحلات التي قام بها، مبينة منابعه الفكرية والتي كانت نقلية بالدرجة الأولى، فأهلته بذلك لبلوغ رتبة القطب، كما ذكرت شيوخه وتلامذته ،وآثاره التي خلفها.

ويأتي الفصل الثاني تحت عنوان:خصائص القصيدة الصوفية، وهنا حاولت إبراز أهمية النزعة الصوفية في الأدب عامة والشعر خاصة، للوقوف بعد ذلك عند التجربة الشعرية الصوفية ، وعلاقة التصوف بالشعر، وإبراز خصائص القصيدة الصوفية وأغراضها، كما تطرقت إلى جمالية اللغة الصوفية ومستوياتها، وإبراز الجانب الإيقاعي من القصيدة .

ثم انتقلت بعدها إلى الفصل الأخير المعنون ب: تجلي الحكمة في القصيدة الصوفية وهو فصل تطبيقي من البحث، وتناولت فيه قصيدتين من ديوان أبي مدين شعيب مستخرجة أهم الحكم التي تتضمنها، وأشرت إلى مصادر الحكمة في شعر أبي مدين التي انقسمت إلى مصادر أصيلة وأخرى إلى علوم نقلية.

ويأتي بعد ذلك ذكر أهم نتائج هذا البحث وحصيلته . وفي طريق البحث واجهتني صعوبات كثيرة أبرزها ندرة الدّراسات التطبيقية التي تناولت قصائد أبي مدين شعيب وخصوصا الكشف عن مضمون الحكمة في أشعاره.

ولا يفوتني في هذا الصدد أن أتقدّم بخالص الشكر للأستاذ الدكتور " مصطفى أوشاطر "الذي أشرف على هذا البحث بالتوجيه والإرشاد حتى بلغ أشدّه، فأدعو الله القدير أن يجعل ذلك في ميزان حسناته ويظل قدوة للأجيال في سبيل نشر العلم والمعرفة فهو أهل لذلك .

والحمد لله على فضله وتوفيقه وبه المستعان والصلاة والسلام على خير البرية سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه أجمعين .

الجمعة 16 ذي القعدة 1440 الموافق لـ 19 جويلية 2019.

الطالبة : بلعيد رجاء .

المدخل :

التصوف المفهوم النشأة والأصل والمصدر

أولا : مفهوم التصوف

أ- التصوف لغة

ب- التصوف اصطلاحا

ج – أقسامه

ثانيا : نشأة التصوف وتطوره

أ – عوامل نشأة التصوف

ب – موضوعاته

ج – مصادره

يعبر التصوف عن تلك النزعة الإنسانية التي شهدتها مختلف الثقافات ، المهتمة بالجانب الروحي ، وذلك بالابتعاد عن متع الحياة وزخرفها ، وبما تحتويه من شهوات مادية، للرقي بها إلى الصفاء وبلوغ السعادة الحقة. ومن هذا المنطلق الراقي وشرف المسمى، تعددت الآراء واختلفت في مفاهيم التصوف.

1 / مفهوم التصوف :

يعد التصوف من أهم العلوم التي يدرسها الفكر الإسلاميإلى جانب علم الكلام والفلسفة، وقد تضاربت الآراء حول تعريف هذا العلم وكثر الجدل بين العلماء حول حقيقته وطبيعته وأصول ومصادر هذا العلم .

إلاأن التصوف الإسلامي نشأ في كنف الإسلام، وترعرع وتربى من منبعه الصافي، فالقرآن الكريم مصدره الأول الذي استقى منه الصوفية كيفية تزكية نفوسهم بالأخلاق والسلوك ورياضاتهم ومجاهداتهم.

فمعظم موضوعات التصوف من عبادات وأحوال ومقامات ومجاهدات تستند على القرآن الكريم :

المجاهدة: قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

التوبة : قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

[1] سورة العنكبوت، الآية 69

[2] سورة التوبة الآية 104

التقوى: الذي يستند على قوله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[1].

الصبر: ونستند على قوله: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[2].

التوكل: ويستند لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3].

الرضا: ويستند على قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾[4].

وقوله أيضا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[5] .

وقوله :﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾[6].

كما كان القرآن الكريم منبعا أساسيا وأرضا خصبةً للتصوف، كذلك حياة النبي ونهجه وأخلاقه وأقواله وأفعاله تعد منبعا أساسيا للتصوف، فقد عرف التصوف بالورع والزهد والتقشف في المأكل

[1] سورة البقرة، الآية 197

[2] سورة الطور، الآية 48

[3] سورة آل عمران، الآية 159

[4] سورة الضحى، الآية 05

[5] التوبة، الآية 59

[6] سورة طه، الآية 130

والمشرب والملبس، فكانت حياتهم ذات معاني روحية، وهذا ما شهده صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم من زهد وتقوى وورع وتقشف وتعبد، وذلك اقتداءاًبالنبي وسنته صلى الله عليه وسلم .

أ – التصوف لغةً :

من مادة (صوف)، جاء في لسان العرب الصوف للضأن وما أشبه ... والجمع أصواف وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع[1].

وقال الزمخشري : فلان يلبس الصوف والقطن أي ما يعمل منها .

وكبش صاف وصوفاني ونعجة صافة وصوفانية ، كثير الصوف .

وصاف الكبش بعد زمره يصوف ويصاف صوفاً . ولا أفعل ذلك ما بل بعر صوفة " ويقال : كان آل صوفة يجيزون الحاج من عرفات أي يفيضون بهم، ويقال لهم : آل صوفان وآل صفوان وكانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون، ولعل الصوفية نسبوا إليهم تشبيها بهم في النسك والتعبد أوإلى أهل الصفّة فقيل : مكان الصفية الصوفية بقلب إحدى الفاءين واواً للتحقيق أو إلى الصوف الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع [2].

وجاء في مختار الصحاح : " الصوف للشّاة والصوفة أخص منه "[3].

ومن يتأمل الإشتقاقات اللغوية للكلمة سيجد أنّها تدل على عدّة معان، للدلالة على الصفاء والصفو، لأنّ هم المتصوفة تزكية النفس وتطهيرها وتصفيتها من أدران الجسد، وشوائب المادة والحس، وقد تشير الكلمة إلى أصل الصفّة الذين كانوا يسكنون صفة المسجد النبوي ويعيشون على الكفاف،

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر،بيروت،1997،مادة (صوف)

[2] الزمخشري، أساس البلاغة، دط ،دار الفكر بيروت، 2004، مادة (صوف) .

[3] مختار الصحاح، مادة (صوف) .

حيث قال بعض القوم " إنّما سمّوا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفّة الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم [1].

وقد أشار القشيري في رسالته إلى صور اشتقاق هذا الاسم ورأى أنه لا شاهد له من حيث القياس والإشتقاق وذلك بقوله " وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياسا ولا اشتقاقا والأظهر فيه أنه كاللقب ،فإنما قول من قال، إنّه من الصوف ولهذا يقال تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف " [2].

ويقول ابن خلدون (والأظهر أنّه قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة النّاس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف)[3].

"فهناك من يرى أن الصوفية مشتقة من "الصوف" الذي كانوا يلبسونه للخشونة وهذه مجاهدة للنفس التي يريدون من خلالها الوصول للعبادة المطلقة، وهم أهل الورع والتقوى، فهناك علاقة بين ارتداء الصوف، وبين التخفيف من متع الحياة والميل إلى الزهد والتنسك، والصوف لباس الأنبياء، ولذلك فاشتقاق الصوف أقرب الاشتقاقات إلى سلوك طريق الترويض، الارادة والعزوف عن متع الحياة"[4].

واذا ما بحثنا عن اشتقاق كلمة "صوفي" فسنجد أنه قد دار حولها نقاش كبير، واختلفت الآراء حول تعريف كلمة تصوف، والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف الآراء حول مصادر التصوف .

وكان للمستشرقين آراء حول ذلك مستمدة من الصوفية أنفسهم .

---

[1] أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي ،التعرف بمذهب أهل التصوف، مكتبة الخانجي،القاهرة،ط2 ،1994، ص 05.

[2] الامام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ،الرسالة القشيرية، وضع حواشيه، خليل المنصور،دار الكتب العلمية ،بيروت، 2001،ص 312 .

[3] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة ، تحقيق محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 391 .

[4] احسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان،ط1 ،1986 ،ص 21

"نجد السراج الطوسي يصفهم بأنهم المقيمين في المسجد، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم محبٌّ لهؤلاء القوم الذين وجدوا فيه بدورهم طريق الهداية، وكان هؤلاء أشدّ الناس في الزهد، وهناك من يرى، بل ويؤكد أن ارتباط الصوفية بأهل الصفة هو النواة الأولى لهذا العلم، فيرون أن بذور الحياة الروحية لم تكن مغروسة في قلب النبي الكريم، وقلوب صحابته فحسب، وإنما هي نامية في قلوب الكثير، ونذكر هنا أهل "الصفة"الذين عرفوا بالتأمل ومحبة الله "[1].

هناك رأي يذهب إليه "جولد تسيهر" وهو أنّ الزهاد المسلمين وعبادهم حاكوا نساك النصارى ورهبانهم، فارتدوا الصوف الخشن، قبل أن يخمن أنه يمكن أن نرجع هذه العادة وهي ارتداء الصوف إلى عصر الخليفة " عبد الملك بن مروان"، "حيث بدأ فيه استعمال كلمة صوفي ومن ثمة يرى "جولد تسيهر" أن كلمة صوفي مشتقة من الصوف" [2].

"وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان صحابته يرون لأنفسهم شرفاً لا يدانيه شرف بتسميتهم الصحابة ،كذلك الجيل التالي لهم رأوا أنّ إطلاق لفظ التابعين عليهم يعتبر شرفاً لذلك لم تظهر تسمية التصوف والصوفية إلاّبعد جيل الصحابة والتابعين"[3].

وهناك اتجاه يذهب إلى أنّ الصوفية مشتقة من الصفاء والصفو أي طهارة قلب الصوفي وموافقة ظاهرهلباطنه بالإمتثال لأوامر ربه والإنتهاء عن نواهيه، وفي هذا يشير أبو الفتح البستي بقوله:

تَنَازعَ النَّاس في الصوفِي واخْتلفوا فيه وظَنوه مشتقاً مـــن الصـوف

ولَستَ أَمنح هذا الاسم غَير فَتى صافي فَصوفي حتّى سُمي الصّوفِي[4]

---

[1] أبو بكر الكلابذي، التعرف لمذاهب أهل التصوف، تح : عبد الخليم محمود ،و طه سرور ،القاهرة، 1920 ،ص2 .

[2] ينظر مجلة الموقف الأدبي، مجلة شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 380 .

[3] القشيري عبد الكريم، الرسالة القشيرية، طبعة القاهرة، سنة 1911م، ص 07 ،08

[4] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق،بيروت، 2002،ص34

ويرى الغزالي أن لفظة صوفي منسوبة إلى الصف الأول المقدّم في الصلاة، مشتقّة منه لأن صاحبه واقف بين يدي الله وأمامه بقلبه وأسراره، "ومنهم من يرى أن مردّ كلمة التصوف إلى صوفيا اليونانية، و"صوفيا " هي "الحكمة "[1].

"وهناك من يرى أن كلمة " الصوفية" ليست سوى مجموع أحرف تعني الحكمة الالهية، فان لمجموع الأرقام التي تمثل الكلمة الأولى بطريقة حساب الجمل تعادل مجموع أرقام العبارة الثانية، فالصوفي إذن هو الذي يبحث عن الله فيجده، ويتعرف إليه" فالصوفي مركّب من حروف أربع : الصاد والواو، والفاءوالياء، فالصاد صدقه وصبره وصفاؤه، والواو، وجده ووده ووفاؤه، والفاء، فقره وفناؤه وفقده، والياء، هي ياء النسبة، فإذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه"[2].

ويقول الحسن البصري*: "والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف مما بين لنا أن الصوفية يستحبون لبسه ولا يكتفون بالمظهر ولا بالظاهر، وانما الصوفي عندهم كما قال " المرزوبادي": " الصوفي من لبس الصوف على الصفاء وسلك طريق المصطفى، وأطعم الهوى ذوق الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا "[3].

ب-التعريف الإصطلاحي (التصوف اصطلاحا):

- و لعل أهم ما يجب التنبيه إليه منذ البداية عند تعريف التصوف اصطلاحا ، هو النظر إلى مصطلح "التصوف" أولا كعلم ، فمن حيث كونه علما فهو نوع من المعرفة الشرعية التي تستهدف الجانب الروحي لدى الإنسان و التي تكشف في الغالب مضمون الحالة الصوفية

[1] التفتازاني، مدخل الى التصوف الإسلامي، ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،ط3، 1979، ص 21

[2] حسن السندوبي، أبو العباس المرسي ومسجده الجامع بالاسكندرية، طبعة القاهرة، 1944، ص 84

*الحسن البصري : ولد عام 21 هـ، ولد في المدينة، الزهد عنده رسالة أخلاقية، ارتدى لباس الصوف، وكان يرى أن التبتل إلى الله لا يتنافى مع الواجب الإجتماعي. للمزيد انظر : توفيق بن عامر، دراسات في الزهد والتصوف،الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس، ط1 ،1981 ،ص 16.

[3] محمد أبو اليسر عابدين، حكايات الصوفية ، دار النشائر، دمشق،ط1، 1993، ص 26

كتجربة روحية ذاتية تنبع من الباطن ،ولذلك يمكن القول من الوهلة الأولى بأن التصوف كعلم هو الفهم بأحوال الباطن وخباياه .

- التصوف كما جاء في المعجم الفلسفي هو: "علم يدل على الأعمال الباطنة و يدعو إليها و الأعمال الباطنة هي أعمال القلوب، و سمي هذا العلم التصوف "[1]
- يندرج التصوف كعلم ضمن علم الشريعة ،وهو على صنفين كما يقول ابن خلدون : " صنف مخصوص بالفقهاء و أهل الفتيا و هي الأحكام العامة في العبادات و العادات و المعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بالمجاهدة و محاسبة النفس عليها "[2]
- فالعلم عند الصوفية علمان :علم الظاهر و يتحقق في الشريعة ، وعلم الباطن و تمثله الحقيقة، و هو كما يرى ابن خلدون :" من العلوم الشرعية الحادثة في الملة "[3]

أما الحاجة التي دعت إلى ظهوره فهي حسب تعبيره: "تفشي ظاهرة الإقبال على الدنيا وجنوح الناس إلى مخالطتها"[4].

وعن أهميته كعلم، يقول ابن عجيبة الحسني:"علم التصوف من أجل العلوم قدرا وأعظمها محلا وفخرا وأسناها شمسا من بدر ،وكيف لا وهو لباب الشريعة ومنهاج الطريقة ،ومنه تشرق أنوار الحقيقة"[5].

وعن الغاية منه فهي في نظر أهله الوصول إلى معرفة الله تعالى ، وهي "نوع من المعرفة التي تتجاوز في صفائها ووضوحها ألوان المعارف الأخرى"[6].

---

[1] مراد وهبة ،المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة ،القاهرة، ط3، 1979، ص111.

[2] عبد الرحمن محمد بن خلدون، المقدمة ، ص371.

[3] المصدر نفسه، ص 370.

[4] المصدر نفسه، ص 370.

[5] أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني ،إيعاد الغمم عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، تحقيق عاصم إبراهيم الخيالي ،دار الكتب العلمية، بيروت ط1،،2009،ص13.

[6] عرفان عبد الحميد فتاح ،نشأة الفلسفة الصوفية و تطورها ،دار الجيل ، بيروت،ط1 ،1993،ص143.

هو العلم الذي لا يكتسب بالتعلم و إنما يحصل عن طريق الذوق و الإلهام ، ليس له دلائل عقلية أو براهين قياسية ويسمى في الإصطلاح ب :" علم المكاشفة " أو "العلم اللدني".

يعرفه أبو حامد الغزالي في الرسالة اللدنية بأنه : "العلم الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف "[1].

من خلال القول يتضح أن علم التصوف علم وهبي يلقيه المولى عز وجل على قلوب أوليائه الأتقياء الأنقياء ،الذين تخلصوا من أهواء الدنيا ،وتفرغوا لعبادة خالقهم.

"ولما كان التصوف هو الطريق الموصل إلى الله سبحانه و تعالى ،فالصوفية على اختلافهم يتصورون أن هذا الطريق "يبدأبمجاهدة النفس أخلاقيا ، ويتدرج السالك له في مراحل متعددة تعرف عندهم بالمقامات والأحوال ، وينتهي من مقاماته و أحواله إلى المعرفة بالله وهي نهاية الطريق"[2]

المقامات والأحوال عند الصوفية هي الطريق الموصل إلى المعرفة اليقينية التي هي معرفة الله عز وجل، وقد وصفها ابن خلدون في مقدمته بالغاية المطلوبة للسعادة، بقوله : " ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة."[3]

المقامات والأحوال هي ليست مما يقع في نطاق العلم أو الوصف بالألفاظ، بل هي مكاسب ومواهب كما يقول القشيري في رسالته : " فالمقامات هي مكاسب تحصل للسالك ببذل الجهد ، أما الأحوال فهي مواهب ترد إليه دون تعمد منه، فالأحوال مواهب و المقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين

---

[1] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الرسالة اللدنية طبعة محيي الدين الكردي الأزهري ،طبعة كردستان العلمية،1328هـ ، ص28-29

[2] أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ،مدخل إلى التصوف الإسلامي ،دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة ،1979،ص 38.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة، ص371.

الجود والمقامات تحصل بعد بذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحاللا مترق عن حاله "[1].

المقامات التي يتدرج فيها السالك وكذا الأحوال النفسية المصاحبة لها تختلف من تجربة إلى أخرى، لذلك فقد اختلف شيوخ المتصوفة في ذكر المقامات ووصف الأحوال، وما تذكره الروايات الصوفية: "أن ذا النون المصري المتوفى سنة 245هـ كان أول من حدد معنى المقام و الحال وأول من دون في الوجد و السماع، و هو في إحدى الحالات يعدد سبع مقامات و في آخر تسع عشرة مقاما، أولها الإنابة وآخرها التوكل "[2].

ومن أمثلة المقامات التي ذكرها السراج الطوسي في كتابه "اللمع" سبعا و هي :"التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا، أما الأحوال فجعلهاعشرة وهي:المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين"[3].

المقامات والأحوال لدى المتصوفة هي موضوع التصوف الإسلامي التي اختلفت أقوالهم في ماهيته، حيث أوردوا له تعاريف كثيرة و متباينة، وهي على أهميتها في النهاية لا تعطي معنى دقيقا له، وعلى حد تعبير الباحث محمد مصطفى حلمي"فلم يكن علم التصوف في أول نشأته إلا علما لبواطن القلوب وأسرار النفوس، والتماس الحقيقة العلية من ثنايا ما يختلف على النفس الإنسانية من مقامات، وما يعرض لها من أحوال"[4].

---

[1]القشيري ، الرسالة القشيرية،تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن شريف، مطابع مؤسسة دار الشعب،القاهرة، 1989،ص32.

[2]عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية و تطورها ، ص 152.

[3]أبو نصر السراج الطوسي،اللمع،ص 23-24

[4]محمد مصطفى حلمي ، الحياة الروحية في الإسلام ،تقديم ،محمد حلمي عبد الوهاب ، دار الكتاب العربي ،القاهرة ،2011، ص 106.

و قد أدرك هذه الحقيقة طائفة من علماء التصوف منهم السراج الطوسي الذي جمع في كتابه "اللمع" نحوا من ثلاثين تعريفا[1] ، وجمع قريبا من ذلك الكلاباذي في كتابه " التعريف لمذهب أهل التصوف" ، أما السهروردي فقد ذكر بأن " أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد عن ألف قول"[2].

وكثرة هذه الأقوال في تعريف التصوف ترجع حسب الباحث محمد مصطفى حلمي إلى أن التصوف: " لم يكن في أول نشأته إلا علما لبواطن القلوب و أسرار النفوس، وإلتماس الحقيقة العلية من ثنايا ما يختلف على النفس الإنسانية من مقامات ، وما يعرض لها من أحوال "[3].

وعلى حد تعبير الباحث محمود يوسف الشوبكي فإن "كل قول من هذه الأقوال يشير إلى أهم جانب في التصوف عند قائله ،سواء بالنظر إلى الطريقة أو الخلق أو الغاية ، أو بالنظر إلى حاجة الصوفي أو من حوله وبالنظر إلى حاله والخطأ الذي يريد أن يقومه، ينتهي إلى القول بأن أقوالهم لا تخلو من جانب من الجوانب التالية: "التصوف بمعنى الزهد، والأخلاق، والصفاء، و المجاهدة، والإلتزام بالشريعة، والتسليم الكامل لله، وبمعنى الإخلاص، و الارتباط الروحي بالله، وترك التكلف..."[4]

ولعل هذه المعاني المتعددة للتصوف واتساعها، تدل دلالة واضحة على صعوبة وضع تعريف جامع مانع للتصوف. ونشير في هذا الصدد إلى ما ذكره ابن الجوزي في تعريفه للتصوف ،قوله: "وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين من الهجرة ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على

---

[1] أبو نصر السراج الطوسي ،اللمع،تحقيق: طه عبد الباقي سرور، عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة، مصر،1960 ،ص 45-48

[2] شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي ، عوارف المعارف ،تح: عبد الحليم محمود/ ومحمود بن الشريف ، دار المعارف، القاهرة،1993،ص53-58.

[3] محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام ،ص106.

[4] محمود يوسف الشوبكي،مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة الجامعة الإسلامية ،المجلد العاشر،العددج الثاني، 2002، ص 14-15-16.

الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق،إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا و الثواب في الآخرة "[1]

يقول محمد مصطفى حلمي: "ومثل هذا يمكن أن يلاحظ في كثرة ما ورد من تعريفات التصوف التي يكفي أن نثبت منها :[2]

- تعريف معروف الكرخي وهو قوله:" التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"
- وتعريف أبي محمد الجريري، وهو قوله: "التصوف هو الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دنيء".
- وما ذكره رويم من الخصال التي يبنى عليها التصوف ، وذلك في قوله: " التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار ، وترك التعرض والإختيار "
- وما عرف به الجنيد التصوف في قوله: " التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع "

هذه التعريفات وكثير غيرها والتي أوردها القشيري في رسالته، " تعبر عما ينطوي عليه التصوف من المعاني الأخلاقية ، والأحوال النفسية من فناء العبد من نفسه وبقائه بربه ، ومن تحقق بالفقر والإفتقار ، وإسقاط للتدبير والإختيار ، وإقبال على الذكر ،وخضوع لسلطان الوجد ، وأخذ النفس بالأعمال التي لا تنافي تعاليم الكتاب و السنة "[3]

[1] ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، تح:محمد المعتصم بالله البغدادي ،دار الكتاب العربي ، بيروت،ط4 ،1417هـ ، ص301.
[2] محمد مصطفى حلمي ، الحياة الروحية في الإسلام،ص 108.
[3] المرجع نفسه ،ص108.

فجوهر التصوف الإسلامي قائم على مجاهدة النفس وتطهيرها ، وتحليتها بكل جمال وكمال ، وهذا أصل مكارم الأخلاق ، لذلك يقول ابن عطاء الله السكندري : " تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب "[1]

وفي قول ابن عطاء الله إشارة إلى أن السالك قد يغتر بنفسه وينسى عيوبه ،ويرى في نفسه الكمال المطلق، وفي غيره النقصان، فبهذه الحكمة يبين طريقة تصفية الانسان قلبه من عيوبه بإعادة النظر فيها وتصحبحها خير له من إلى تتبع ما غاب عنه من الأسرار الإلهية، والكرامات ،لان النفس تطلب الكرامة ،بينما الكرامة الحقيقية هي عين الاستقامة.

ومن التعاريف الإصطلاحية التي تستحق الذكر في هذا السياق ، هذا التعريف الذي أورده العلامة "عبد الرحمن بن خلدون" الذي يقول : " هو العكوف على العبادة و الإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعباد "[2]

ومن التعاريف الإصطلاحية للتصوف التي ترتضيها في هذا البحث، تعريف الشيخ : " أبو الوفا الغنيمي التفتازاني الذي يقول :" التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس الإنسانية أخلاقيا ، وتتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا لا عقلا، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها باللغة العادية ، لأنها وجدانية الطابع وذاتية "[3]

والنظر إلى التصوف في ضوء هذه التعاريف يقضي ببعض الحقائق اللازمة في هذا الصدد ، فلا يمكن أن يكون التخلق بالأخلاق الإلهية ولا الوفاء لله تعالى ولا اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ،ولا

---

[1] أحمد بن عجيبة ، إبعاد الغمم عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص79

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ص375

[3] أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ،ص 8

تحقيق غاية العرفان الذوقي المؤدي إلى السعادة ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون أساس عقدي ينطلق منه التصوف ويحتكم إليه ، وهذا الأساس في الإسلام هو عقيدة التوحيد التي يعتبرها البعض أخص خصائص التصوف الإسلامي.

ويتضح مما سبق مدى صعوبة الوصول لمفهوم يلقي الضوء على التصوف ويعطيه حقه من كافة الجوانب، وتوصل كل من توفيق الطويل[1] والتفتازاني[2] ومقداد يالجن[3] وسامية الخشاب[4].إلى وجهة واحدة لتعريف التصوف وهو " أن التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك يتخذهما الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية ".

ج–أقسامه:

وينقسم التصوف إلى:

تصوف سني : تميز التصوف خلال القرنين الأولين عند المسلمين بمظاهر الإلتزام بأوامر الله، ونواهيه والإقتداء بسنة نبيه وما تقتضيه من عبادة وزهد في الدنيا والإعراض عن زخرفها ، والإقبال على التوبة ، واجتناب المعصية، فتلخص تصوفهم في مظهرين : "الأول ظاهر تمثل في ترك مباهج الدنيا من مال وجاه ورغد العيش. وباطن يتمثل في مراقبة القلب الذي تصدر عنه أفعال الخير والشر. بهدف تحقيق الثواب والنجاة من العقاب ، وقد أطلق على هذه المرحلة من التصوف اسم "مجاهدة التقوى"[5] وأحسن

---

[1]– توفيق الطويل ،خصائص التصوف الإسلامي، العدد:87 ،مارس،منشورات وزارة الثقافة ،الكويت،1985 ،ص174– 175 .

[2]– أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ،ص 7– 9 .

[3]– مقداد يالجن، فلسفة الحياة الروحية ،منابعها ومشاربها ونشأتها، دار الشروق،ط1 ،1985، ص 74 – 76 .

[4]– سامية مصطفى خشاب، علم الاجتماع الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1985،ص 69 – 70 .

[5] – ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ،شفاء السائل لتهذيب المسائل ،نشر الأب أغناطيوس عبده ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، دت.

المصادر الصوفية لهذا الغرض كتاب " الرعاية لحقوق الله " للحارث بن أسد المحاسبي (ت 243هـ /858م) .

ثم تطور التصوف السني خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين – 9 و 10 الميلاديين ، فأصبح أصحابه يهدفون إلى الوصول إلى نفس لا يصدر عنها سوى أفعال الخير ، متخلقة بأخلاق القرآن والسنة النبوية فهذبوها عن طريق المجاهدة والرياضة.

"فأما الرياضة فهي تدريب النفس وفق مظهرين : مظهر بارز يتمثل في رفض زينة الدنيا من مال وجاه وشهوات البطن والفرج ومقاومتها عن طريق الصيام المتواصل ، وقيام الليل والتهجد، حتى يكون الفعل والترك عند صاحبه أمرا طبيعيا يأكل أو لا يأكل ينام أو لا ينام أمر طبيعي لديه . والهدف من تقويم النفس بهذه الطريقة هو الوصول إلى مراتب الأنبياء و الصديقين والشهداء والصلحاء، وقد أطلق على هذا النوع من المجاهدة النفسية مجاهدة الإستقامة"[1].

ثم أصبح خلال القرن الخامس الهجري -11م- ينزع إلى كشف عن عالم الغيب كمعرفة صفات الله، ورؤية العرش والكرسي والوحي والملائكة ، يحصل هذا عن طريق المجاهدات – مجاهدة النفس، بالتقوى والإستقامة.– "بالإضافة إلى الإقتداء بشيخ مارس أنواع المجاهدات وانكشف له عالم الغيب، بحيث يهتدي المريد المقبل على حالة الكشف بأفعاله وأقواله ، ثم يلتزم الخلوة في مكان مظلم بعيدا عن الخلق ، وممارسة أنواع من المجاهدات كالصمت بترك الكلام، والجوع بمواصلة الصيام والسهر بقيام الليل حتى تخمد كل الأحاسيس و القوى"[2].

---

[1] المصدر السابق، ص34-35

[2] يرى أبو حامد الغزالي أن الجوع ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة. كما أن قساوته بسبب الحجاب أما السهر فإنه يجلو القلب، ويصفيه وينوره، فيضاف ذلك الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدري، فيلوح فيه جمال الحق، أما الصمت فيلقح القلب ويجلب الورع، ويعلم التقوى، أما الخلوة ففائدتها، دفع الشواغل وضبط السمع والبصر لانهما دهليز القلب. أنظر الإحياء ،ص 82،ابن خلدون ،شفاء السائل، ج3، ص40.

ثم تختم هذه المجاهدات بالذكر ، حيث يعين الشيخ للمريد ذكرا يشغل به لسانه وقلبه كأن يكون نصه: " الله، الله، الله، أو لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله[1] ، "فيواضب عليه المريد حتى تسقط حركة اللسان، وتبقى صورة اللفظ في القلب حتى تمحى صورة اللفظ من القلب ويبقى معناه ملازما حاضرا. وفي هذه الحالة تصل المجاهدة بصاحبها إلى فراغ القلب عما سوى الله"[2]، "وعليه الحذر من وسواس الشيطان وخواطر الدنيا فيجتهد في ذلك في دفعها ،وخلال هذه المجاهدة يعرض المريد على شيخه كل ما يكابده في قلبه من اقدامواديار أو صدق إرادة، وهذه المراقبة من جانب الشيخ ضرورية ، لأن قلب المريد قد يغلب عليه خيال من الخيالات"[3]، "فيسلك طريق الإباحة أو قد يعجب بنفسه أو يقنع بما ينكشف له في أوائل الأحوال والكرامات فيكون الفتور في المجاهدة وقد تنقطع .لهذا يبقى المريد ملازما المجاهدة طوال حياته فإذا نجا من هذه المثبطات"[4]، حصل له الكشف والفيض الالهي، فيتعرض للمواهب الربانية والعلم اللدني، فيدرك حقائق الأشياء ويصبح في انسجام مع الكون ،رهن إشارته،فتحصل له الكرامة.

وفي أثناء هذه المجاهدات كلها التي يمر بها التصوف السني،تطرأ على النفس صفات يتلون بها القلب ليس من كسب المريد، ولا من اختياره، بل هي مواهب من الله كالسرور والحزن والطرب والإهتياج والشوق والإنزعاج أو الرجاء والخوف والقبض والبسط والهيبة والأنس[5].

---

[1] يقتصر المريد في هذه المرحلة على الفرائض ويجب على شيحه أن لا يكثر من الأوراد الظاهرة كالتلاوة ، لأنها تشتمل الأحكام و القصص التي قد يصغي إليها قلب المريد لفهم معانيها ، فينشغل عن ذكر الله لأن القصد من ذكر الله استجلاء نور المشاهدة . ابن خلدون، شفاء السائل،ص 40-43.

[2] أبو حامد الغزالي،إحياء علوم الدين، دار الحزم للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،ط3، 2005، ج3،ص83.

[3] يرى أبو حامد الغزالي أن التمكن من العلوم يساعد كثيرا على الوصول إلى الكشف ،لان المجاهدة من دون تعلم تؤدي إلى نشوب خيالات فاسدة في القلب ، تتطلب وقتا طويلا لفك التباسها. ينظر :الإحياء،ج3،ص 22.

[4] الإحياء ،ج3، 83-84.

[5] ابن خلدون، شفاء السائل، ص 40.

ومن أحسن وأشهر المصادر الصوفية في ميدان التصوف السني المقيد بالكتاب و السنة كما أوردنا خطواته "الرسالة" لمؤلفها أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري (465هـ/1073م) وكتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م)[1].

أصبح التصوف السني ظاهرة فكرية متميزة ، وامتزج فيها العلم بالعمل، وأصبح للصوفية فيها كيان خاص داخل المجتمع الإسلامي وطريقة خاصة في المعاملات، ولغة خاصة في التعبير أثمرت في ظهور بعض المفاهيم الجديدة، مثل مفهوم المعرفة ، الذي يتلخص في أن معرفة الله هي الهدف الأسمى من العبادة، وكذلك مفهوم الحب الإلهي ، الذي يعني أن الصوفي لا يعبد الله خوفا من النار أو رغبة في الجنة... وإنما يعبده لذاته، حبا فيه وتعلقا به. كما تحددت فيه معالم المنهج الصوفي الذي يبدأ بالتوبة من الذنوب، وينتهي بالقرب من الله، والإتصال به، فقد أصبح التصوف السني وسيلة من الوسائل التي يستعان بها على مطالعة وجه الله ومشاهدة جماله الأزلي.

-تصوف فلسفي:

"نشأ عن اهتمام الصوفية بعلوم المكاشفة التماسا لمعرفة الله، واكتساب علومه، والوقوف على حكمته وأسراره والإطلاع على حقائق الموجودات. فظهرت منذ القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي – عدة نظريات صوفية فلسفية تباينت في كيفية الوصول إلى هذه الأهداف".[2]

"وأول من أدخل مدرك العرفانية (الغنوصية) في التصوف الإسلامي ذو النون المصري (ت245هـ/ 859 م) أي معرفة الله بكل ما في النفس من حدس وعاطفة وخيال"[3] ، "ثم جاء بعده أبو زيد

[1] ابن خلدون، شفاء السائل، ص48.

[2] ابن خلدون ، المقدمة ، ص 296.

[3] محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية ،بيروت،ط2 ،د.ت، ص79.

البسطامي (ت 270هـ/ 875م) بنظرية الفناء أي فناء الإنسان عن نفسه وفقدانه الشعور بذاته مع الله"[1]

فعندما يتجلى المولى عز وجل لعبده بجلاله وجماله ويكون في حضرته ،يفنى عن الدنيا والآخرة، والدرجات والأحوال،فيفنى بذلك عن كل شيء وينفصل.

"وعن طريق نظرية الفناء توصل بعض الصوفية إلى القول بنظرية الحلول و الإتحاد التي تزعمها الحسين بن المنصور الحلاج (ت 309هـ/ 922م) ، أي حلول الذات الإلهية في المخلوقات ،واتحاد طبيعة الإنسان في الطبيعة الإلهية حتى تصير حقيقة واحدة"[2].

"إلا أن نظرية الحلول والإتحاد رفضها كثير من المتصوفة والفلاسفة، فجاء أبو نصر محمد الفرابي (ت 339هـ/950م) بنظرية الإتصال أي تجاوز النفوس عالم الحس إلى عالم الشهادة الحقيقية، عن طريق التأمل العقلي أولا ثم المجاهدة النفسية ثانيا"[3].

"أما نظرية الإشراقيين فيرى أصحابها: أن الوصول إلى معرفة حقائق الوجود يتم عن طريق النور الذي يقذفه الله في قلب عبده بعد تطهير النفس. ويعتبرون الله والملأ الأعلى أي عالم الأرواح جوهر روحاني من نور ،فيكون وصول المعرفة من النفس الطاهرة من خلال النور الواصل من عالم الأرواح"[4].

ومن أشهر أبرز رواد هذه المدرسة الصوفية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أبو الحسن بن عبد الله المعروف بإبن سينا (ت 428هـ/ 1037م) الذي تناول في كتابه "الإشارات

---

[1] توفيق الطويل، في رحاب التصوف، ص 189-190

[2] المرجع نفسه، ص 186-187.

[3] تقوم نظرية الفرابي على أساس التأمل العقلي أولا لأن المعرفة اللدنية حسب رأيه أسمى غاية ينشدها العقل. لبلوغ هذه الغاية لابد من المجاهدة النفسية لأن النفوس الطاهرة في رأيه تستطيع اختراق عالم الحس إلى عالم العيب والشهادة. توفيق الطويل،في رحاب التصوف ،ص 173.

[4] فيليب حتي، الإسلام منهج حياة، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين،،بيروت، ط2، 1997م، ص130

والتنبيهات" نظرية الإشتشراق. "كما صنف شهاب الدين يحي بن حبش السهروردي (ت580هـ-1191م) خلال القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي –كتابين هما "حكمة الإشراق" و"هياكل النور" استعرض فيهما آراءه الإشراقية"[1].

وخلال القرنين السادس والسابع الهجريين –الثاني عشر والثالث عشر- ذهب جمهور من الصوفية معظمهم أندلسيون إلى الإعتناء بعلوم المكاشفة ، فجعلوها علوما إصطلاحية بينهم، "فرتبوا الموجودات على ما انكشف لهم ،فأصبح علم التصوف عندهم يختص في البحث عن طريق العلوم المصطلح عليها المؤدية إلى كشف أسرار الملكوت وحكمته، وإظهار حقائق الموجودات عن طريق العقل، فإذا عجزوا أو طلبوا بالبرهنة عليها لجأوا إلى الوجدان أي المجاهدة النفسية"[2].

"حيث نزع أصحاب هذا الإتجاه منزعا فلسفيا انقسم إلى اتجاهين: اتجاه تزعمه أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي(ت546هـ/1151م)، وعبد الرحمن بن أبي الرجال المعروف بابن برجان (ت 536هـ-1141م)،وعبد الله محمد بن علي الحاتمي المعروف بإبن عربي (ت 638هـ-1240م)"[3]، قالوا عن وحدة الوجود.

واتجاه ثاني قال عن الوحدة المطلقة، ومن أشهر رواده: "أبو عبد الله الشوذي الحلوي(ت أوائل القرن 7هـ/13م) وتلميذه إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق المعروف بابن المرأة (ت 610هـ-1214م) وأبو حسن بن عبد الله النميري الششتري (ت 668هـ/1269م) وعبد الحق بن إبراهيم الشهير بإبن سبعين (ت 669هـ/1270م)"[4].

---

[1] شهاب الدين يحي بن حبش السهروردي، هياكل النور ،القاهرة،1957م، ص85.

[2] ابن خلدون،شفاء السائل،ص 50-51.

[3] ابن خلدون، المقدمة،ص297.

[4] المصدر نفسه، ص297

ـ تصوف طرقي:

يعرف التصوف الطرقي بأنه : " طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ، لتزكو النفس وتسمو الروح، وهو مجموعة المبادئ التي هي في اعتقاد المتصوفة الآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم "[1].

بدأت ملامحه تظهر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ،عندما تحول التصوف من ظاهرة نفسية فردية إلى ظاهرة اجتماعية.

هذا النوع من التصوف هو الذي لا زال مستمرا في البلاد الإسلامية إلى الوقت الحاضر ،وهو امتداد للتصوف السني ،وبكلمة أدق ،هو امتداد لتصوف الإمامين الغزالي والقشيري السنيين.

يقول الباحث حسن مرزوقي: " ولعل التحول المهم في الفكر الصوفي يتمثل في بداية مأسسته منذ أن أصبح التصوف مجموعة من الطقوس المكونة من الأذكار والأوراد الدورية التي تقام في الزوايا"[2].

التصوف الطرقي ،هو تصوف عملي له نظم وقواعد ورسوم خاصة، هو تجربة جماعية وليس تجربة فردية كما هو الشأن بالنسبة للتصوف النظري بشقيه السني السني والفلسفي ، يختلف عنهما في كونه يصدر عن جماعة وله طقوس معينة، وتعتبر الزوايا كمؤسسة دينية هي أظهر مكان لتأديتها.

[1] المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، وزارة التربية والتعليم ،القاهرة،دط،1994،ص 374.

[2] حسن مرزوقي، الإسلام الطرقي مستويات التأصيل ،الدوحة،قطر، 2002، ص1.

يقول التفتازاني: "أصبحت لفظة "طريقة" عند الصوفية النتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية، ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية في الزوايا، أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام "[1].

من أهم الطقوس التي يختص بها أهل الطريق:[2]

*الورد : وهو مجموعة من الآيات المنتقاة والأذكار التي يأمر بها الشيخ مريده ليلتزم بها في أوقات معلومة، ولكل طريقة أورادها ،فتختلف من ناحية العبارة (الصلاة على الرسول والآيات والتوحيد والأدعية) ، ولكنها تشترك في المضمون وفي إلزاميتها.

والورد هو ما أخذه الشيخ عن الرسول الكريم بعد الفتح عليه بمقام الولاية ووصوله إلى درجة المشيخة.

*الوظيفة: هي مجموعة من الأدعية، لكل دعاء إسمه.

*الهيللة أو الحضرة : تذكر ألف مرة ولا تنقص عن الألف ،وهذا طقس أسبوعي، يقام جماعيا ، وعادة ما يكون احتفاليا ، أي يأخذ إيقاعا معينا، وينتهي بما يسميه أهل الطريق التخمر، أي الغياب عن الوعي ، ويلتزم فيه المريدون حركات جسمانية وصوتية منسجمة.

*الأذكار: وهي الأدعية التي يلتزم فيها المريد بوقت أو عدد ،وهي طوعية من دون أمر، تشبه في العبادات الرسمية المستحبات أو النوافل.

[1] أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل الى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،1979،ص38.
[2] حسن مرزوقي، الإسلام الطرقي مستويات التأصيل، ص 10-11.

والغاية من هذه الأنواع من الذكر هو التربية الروحية والتي لا بد لها من وسط تربوي، يكون فيه الشيخ والمريد ،هما أساس العملية التربوية، فلا بد للتربية الروحية من قدوة ولا بد لها من ذكر ،واجتماع هذا بذاك ينقل الإنسان كما يقول الصوفية في مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى : هي مرحلة التنقية، يعني تزكية النفس من العيوب الموجودة فيها، وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة التحلية وهي أن يتمتع بالكمالات الإيجابية التي جسدها النبي صلى الله عليه وسلم وهو المثل الأعلى للمسلمين، والمرحلة الأخيرة هي مرحلة الكشف واليقين الديني الذي لا يقوم فقط على أدلة عقلية ولا على مجرد النص الديني وإنماعلى المشاهدة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ويبقى الشيخ هو الأصل الأول في التصوف الطرقي، ورتبة المشيخة هي أعلى رتبة في طريق الصوفية، وهي نيابة النبوة في الدعاء إلى الله، وكما هو معلوم في السياق الصوفي،لا يمكن لأي مريد أن ينتسب إلى أي طريق غير طريق شيخه، بل عليه أن يقلد شيخه فقط، فالشيخ هو الذي يوصل المريد إلى عالم الحقيقة، وهذا المقام هو دائرة الإعتقاد الحقيقية في الطريق. فلا يجوز الاعتقاد بأكثر من شيخ، والاعتقاد بالشيخ يستوجب طاعته وطاعة كل من ينوبه كالمقدم، وغير الاعتقاد به يؤدي إلى الطرد من الطريق.

ومن أبرز الطرق الصوفية التي توالت في الظهور وانتشرت في العالم الإسلامي:

- الطريقة القادرية: التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني.
- الطريقة الرفاعية: التي أسسها الشيخ أحمد الرفاعي.
- الطريقة السهروردية : التي أسسها الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي.
- الطريقة الشاذلية: المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي.
- الطريقة الأحمدية : التي أسسها الشيخ أحمد البدوي.
- الطريقة البرهامية : التي أسسها الشيخ إبراهيم الدسوقي القرشي.

وهكذا ظهرت طرق صوفية متعددة في العالم الإسلامي ، وانتشرت فيه على نطاق واسع.

من خلال العرض السريع لأنواع التصوف نستنتج أن القرن الثالث والرابع والخامس الهجري يمثل العصر الذهبي للتصوف السني و الفلسفي بالمشرق، في حين يمثل القرنان السادس و السابع الهجريين تطورا كبيرا لنظريات التصوف الفلسفي القادمة من الأندلس نحو المغرب.[1] أما بالنسبة للتصوف الطرقي فهو إمتداد للتصوف السني.

2 /نشأة التصوف وتطوره :

أ- نشأة التصوف :

يجب علينا أولاأن نرجع إلى مقالة قيمة وعظيمة لعالم جليل علامة وهو"ابن خلدون" في مقدمة كتابه التاريخي . فقد كتب ابن خلدون رحمه الله باستفاضة عن علم التصوف والغرض منه وحقيقة التصوف وما أصوله .

يقول "ابن خلدون" عن علم التصوف: "هذا العلم من العلوم الحادثة في الملة وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف"[2].

ويضيف"لما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة بإسم الصوفية والمتصوفة وعليه فكانت فترة السلف الصالح هي فترة القرون المفضلة

---

[1] الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين/12و13 الميلاديين،دار الهدى للطباعة والنشر، عين الميلة، 1999، ص 44.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص225.

التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا جميعا على قلب رجل واحد، ففي القرن الثاني الهجري ومايليه بدأت الأموال تأخذ طريقها إلى الأيدي والنفوس وبدأت غرائز الحرص والأثرة والأنانية تظهر، في حين هذا لم يكن موجود في القرن الأول، وفي القرن الثاني بدأت الناس تلتفت للدنيا وبدأ المال يجري في أيديهم، فحين إذاك انحاز أو ظهر قوم في القرن الثاني الهجري قوم السلف الصالح"[1] . فمن قول ابن خلدون يتضح أن علم التصوف علم السلف الصالح فبدأ القوم ينحازوا ويظهر فيهم منهج الزهد والتفرغ للعبادة والإقبال والتقرب إلى الله، ومحاسبة النفس ومجاهدتها بكبح جماحها وإرغامها على أن تكون منساقة لأوامر الله وتابعة لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهدي الصحابة والسلف الصالح أي التقيد بقيود الشريعة، فكان لسان حالهم (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس). وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى ان تفتح عليكم الدنيا ". بمعنى أنه إذا فتحت الدنيا انشغل الناس عن الآخرة وينسي العبد ربه.

إذن التصوف نشأ في جماعة مسلمة وتطور مستقلا غير آخذ من فلاسفة اليونان أو الهند أو الفرس، فالتشابه بين المذهبين لا يعني أنهما من أصل واحد.

فالأسباب المتشابهة قد تؤدي إلى نفس النتائج في كل عصر وقطر .و المطّلع على تاريخ الصوفية يجد أن التصوف أخذ مبادئه من الكتاب والسنة، فأخذ به المسلمون .

يقول الشيخ محمد بن الصديق، في كتابه(الإنتصار لطريقة الصوفية الأخيار) :" فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي، في جملة ما أسس الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان، الذي هو أحد أكان الدين الثلاثة، التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا فقال "هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم "[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص 225 .

[2] الزمزمي بن محمد بن الصديق، الإنتصار لطريقة الصوفية الأخيار، د.ط،د.ت، ص 05.

ومن هنا يرى الشيخ بن الصديق أن التصوف هو من الإسلام فهو مصدر له والطريقة أي التصوف في مقام الإحسان، بمعنى في نظره مقام الإحسان هو التصوف، وبما أن الإحسان ركن من أكان الدين فإتباعنا له أمر ضروري وبالتالي أي إخلال بالطريقة أي التصوف يؤدي إلى الإخلال بالإحسان وعليه يؤدي إلى الإخلال في بالدين . وفي هذا يورد الشيخ بن صديق قول آخر هو : "فمن أخل بمقام الإحسان الذي هو الطريقة، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركن من أركانه "[1].

ونجد رأي آخر يدعم هذه الفكرة من خلال القول التالي: "وأما الهجويري*، فلقد ذكر أن التصوف كان موجود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبإسمه، لكن استدل واستشهد بحديث مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلمأنه قال " من سمع صوت أهل التصوف ولا يؤمّن على دعائهم، كتب عند الله من الغافلين "[2].

وفي القول دلالة على أن الهجويري يرجع التصوف إلى زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن رأي الهجويري يبقى موضع شك كون الحديث الذي اعتمده مكذوب عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهناك فريق أو نزعة تنفي أن يكون التصوف منسوب لزمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسهم الإمام الجوزي وفي ذلك يقول :"كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام، فيقال مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاق تخلقوا بها"[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص 05 .

*الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان بن علي الغزنوي الجلابي الهجويري، صاحب كتاب كشف المحجوب، يعد أقدم الكتب باللغة الفارسية وأشهرها، ومن المحتمل أنه توفي بين سنتي 465 هـ أو 469 هـ في لاهور، عبد المنعم حنفي، الموسوعة الصوفية، ص 401 .

[2] احسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ، د.م، إدارة ترجمان السنة،ط1، 1986 م، ص 42 .

[3] ابن الجوزي، تلبيس ابليس، دار القلم، بيروت، 1403 هـ،ص 156 .

و المقصود أن لقب مسلم ومؤمن كان في زمن الرسول، ثم ظهر لقب زاهد وعابد، بعدها أتى أقوام وتعلقوا بالزهد وسموا متصوفة، فأصبحت طريق يتبعونها في الحياة تميزوا بها عن غيرهم . وفي هذا يقول السهروردي :" وهذا الإسم لم يكن في زمن رسول الله "[1].

وما دام الإسم أي التصوف ليس مخالفا للشريعة فلا ضير أن يطلق عليهم هذا اللقب، ما دام المضمون يصب بما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في إتمام مكارم الأخلاق ،من رحمة وتسامح وتقوى ومحاسبة ومحبة وإيثار وأمانة وصدق وإخلاص ورضى وتوكل وصبر ...، كل هذا تربى عليه جيل الصحابة والتابعين ،وتابعي التابعين، والسلف الصالح، فنشأت الفكرة الصوفية في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،و ترسخت وتبلورت في عهد التابعين والسلف الصالح كغيرها من علوم الشريعة (كعلم الحديث، علم الفقه وعلم الأصول....)، وتعدد التسميات دليل على شرف المسمى ، فكلها مصطلحات مقصدها واحد وهو الوصول إلى مرضاة الله . فحقيقة هذا العلم من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ب – عوامل نشأة التصوف :

1 – العامل الأول : القرآن والحديث :

"يرى التفتازاني أن العامل الأساس في نشأة التصوف هو ما جاء في القرآن الكريم والسنه النبوية، متعلقاً ببيان حقارة الدنيا وزينتها، وضرورة العمل الجاد من أجل الآخرة للظفر بثواب الجنة والنجاة من النار"[2].

[1] ابن خلدون ،المقدمة، ص474 .

[2] التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط3، 1979، ص 63 .

ومن الآيات التي تدل على فناء الدنيا وضرورة الزهد فيها قوله تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8)﴾[2]، وقوله تعالى﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)﴾[3].

ومن الآيات التي تبين حب الإنسان للدنيا وميله للشهوات، قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)﴾[4]، وقوله أيضا ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا

[1] سورة الحديد، الآية 19 .

[2] سورة يونس، الآية 7-8.

[3] سورة النازعات، الآية 37-40 .

[4] سورة الأعلى، من الآية 14 -17 .

تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾[1].

وبالمقابل يمتدح القرآن اولئك العباد المقبلين على الله، في مثل قوله تعالى :﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]، وقوله أيضا ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)﴾[3].

ومن الآيات الكريمة يمكن أن نستخلص، أن القرآن وصف الحياة الدنيا على أنها حياة مآلها إلى زوال، وعلى المؤمن أن يجتهد في مرضاة الله وذلك بلزوم الطاعات والعبادات، والمجاهدات التي يراعي بها أنفاسه، فيخالفها في حب الشهوات والملذات ،حتى يلقى ربه بقلب نقي تقي فيبلغ بذلك الجنة والدرجات العلى .

كما أن المؤمنين المقبلين على الله، النادمين على ما فرطوا بجنبه ،التائبين من ذنوبهم ومعاصيهم، العابدين له حق العبادة، الحامدين له في السراء والضراء، المراعين لحدوده، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وخروا له ساجدين، كل هذا يدل على صدق سريرتهم، ورقة قلوبهم، خائفين من عذابه إذا حبطت أعمالهم، فرحين بلقائه إذا قبلت أعمالهم، طامعين في رحمته وجنّته .

---

[1] سورة الفجر، من الآية 17-20.

[2] سورة التوبة، الآية 112 .

[3] سورة السجدة، الآية 15 - 16.

"وفيما يخص الأحاديث النبوية التي حثت على الزهد في الدنيا، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر"[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم :" يقول العبد مالي، إنّما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس "[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم لاصحابه: "فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم"[3].

والملاحظ أن هذه الأحاديث دفعت بالمسلمين إلى الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة لبلوغ رضوان الله والفوز بالدّارين.

2 – العامل الثاني : الأحوال السياسية :

"إنّ الخلافات السياسية بين المسلمين منذ أواخر عصر الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ كان لها أثر في مجال الحياة الدينية والإجتماعية للمسلمين، وظهر ما يسمى بالعصبية القبيلة، كما استمرت هذه الخلافات حتى في عصر الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ وأدّى ذلك إلى انقسام المسلمين الى أمويين وشيعة وخوارج ومرجئة، وامتد الصراع بين الأمويين وخصومهم ردحا من الزمن"[4].

---

[1] صحيح مسلم، نظارة المعارف الزكية، مصر، د ط، 1332 هـ، رقم الحديث 2956 .

[2] المرجع نفسه، ج 8 ،ص211 .

[3] محمد بن إسماعيل البخاري ،صحيح البخاري، شركة الشهاب، الجزائر، دط، 1990 م، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب .

[4] سعيد نواصر، الخطاب الروحي في الأدب الصوفي قصائد الوجد لمحي الدين بن عربي " نموذجا"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتورا في العلوم، تخصص : القرآن الكريم والدراسات الأدبية، إشراف محمد طول، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، 2016 -2017 .

وعدّ المستشرق " نيكولسون" أن مقتل "عثمان بن عفّان" ـ رضي الله عنه ـ بداية الإضطرابات السياسية التي اضرت بالإسلام ،قائلا :" لقد مزقت الحروب الأهلية التي اعقبت هذه الفئة (مقتل عثمان) الإسلام شرمزق، ولم يلتئم بعد الجرح الذي أحدثته هذه الحروب"[1]، مما جعل بعض الصحابة يستشعرون خطورة هذه الخلافات والصراعات السياسية، مما أدى بهم إلى الإبتعاد عن الفتنة، واختيار العزلة، وكان قصدهم في هذا، اللجوء إلى نوع من الزهد، وإلى هذا يشير النوبختي بقوله: "من الفرق التي افترقت بعد ولاية علي فرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وأسامة بن زيد بن حارثة، فإن هؤلاء اعتزلوا عن علي، وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه، .... فسموا المعتزلة "[2].

و يتضح لنا من هذا الكلام أن ذلك الإضطراب السياسي الذي شهده المسلمون دفع بهم إلى حب العزلة والتعبد والتقرب إلى الله والإبتعاد عن الفتن والصراعات السياسية .

3 – العامل الثالث : الأحوال الإجتماعية :

تغيرت الحياة الإجتماعية للمسلمين عما كانت عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، حيث امتدت رقعة الفتوحات الإسلامية، وكثرت الغنائم، وبدأ المجتمع الإسلامي يميل إلى الثراء، وما يؤديإلىالفساد الأخلاقي، هذا ما أدى بالغيورين على الإسلام إلى حث الناس على الإلتزام بمنهج السلف، الذي يتميز بالتقلل والزهد والورع، وعدم الإفراط في الشهوات، ومن أمثلة أولئك الغيورين على الإسلام، "أبي ذر الغفاري، الذي انتقد حياة االلهو والترف السائدة في عصره ،وحثّ الناس إلى الأخذ بمنهج الإسلام العادل وما كان عليه السلف الصالح "[3].

ب . موضوعات التصوف :

[1] التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 68 – 69 .

[2] النوبختي، فرق الشيعة، منشورات الرضا ، ط1 ـ2012،بيروت ،لبنان، ص 153.

[3] التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 71 .

يرى ابن خلدون في مقدمته أن التصوف منحصر في أربعة أغراض أساسية هي :

1 . المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق فتصير مقاماً ويرتقي منه إلى غيره .

2 . الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب : مثل : الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورها عن موجودها وتكوينها .

3 . التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات .

4 . ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشّطحات وتتشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول "[1] .

وهذا يعني أن التصوف ينبني على أربعة مقومات جوهرية، وهي: المجاهدات، والتجليات الغيبية، والكرامات، والشطحات. وقد دافع ابن خلدون عن أصحاب المجاهدات والتجليات الغيبية والكرامات الخاصة بالمتصوفة والأولياء الصالحين وميزها عن المعجزات الخاصة بالأنبياء، كما اعتبر "صاحب الشطحات معذور لأنه يكون في حالة سكر وانتشاء ذوقي لا يعي ما يقوله أو ما يريده من أقوال، أوألفاظ أو مرويات "[2]، وهذا يعني أنه تعجز الكلمات والألفاظ على وصف أو التعبير عن الحالة التي يعيشها صاحب الطريق أي الصوفي، فلا الكلام ولا الألفاظ تفي الحالة المعاشة حقها .

ج . مصادر التصوف :

يرى الكثير من الباحثين أن معظم الحركات في الحضارة العربية الإسلامية تعود إلى امتزاج العديد من العناصر، سواء كانت عناصر أصلية أم خارجية أي دخيلة، من أبرز هذه الحركات التصوف الإسلامي

[1] ابن خلدون ، المقدمة، ص 474 .

[2] المصدر نفسه، ص 474 – 475 .

والتي كثر الجدال حول مصدرها، فمنهم من رأى أن التصوف الإسلامي مبني على الشريعة (الكتاب والسنة)، ومنهم من يرى أنه مستمد من مصادر دخيلة على الإسلام ومن هذا نستعرض ما يلي :

أولا : المصدر الإسلامي:

وهم يرون أنه من الطبيعي أن يكون التصوف مصدره الأول إسلاميا، إذ أنه استمدّ ركائزه من كتاب الله وسنة رسوله، وكذلك من أحوال الصحابة الكرام وأقوالهم، التي لم تخرج هي الأخرى من كتاب الله وسنة رسوله، ولا بد أن للصوفية طريقا يتبعونه لتحقيق غاياتهم، "حيث أن الصوفية على اختلافهم يتصورون طريقا للسلوك إلى الله، يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقيا، ويتدرج السالك له في مراحل متعددة تعرف عندهم "بالمقامات *" و"الأحوال**" وينتهي من مقاماته وأحواله إلى معرفة الله"[1] .

و هنا يمكن القول بأن المقامات والأحوال هي أساس التصوف أو هي موضوع التصوف، حيث أن "جميع مقامات الصوفيةوأحوالهم، التي هي موضوع التصوف"[2]، نجدها تستند إلى المصادر الإسلامية في ممارستها وهي كالتالي :

ـ القرآن الكريم :

لقد حثّ القرآن الكريم على الزهد والإعراض عن الدنيا، وهذا ما يظهر في كثير من الآيات حين بين حقيقتها وأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وأن الدار الاخرة هي مطمع الصالحين والمتقين . قال

---

[1] التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص 38 .

* المقام، أخذ لفظ (المقام) من الآيات القرانية، حيث ورد بمعنى الموضوع والمنزلة ... فأشاروا به إلى المواضع والمنازل الروحية التي يقف عندها السالك في رحلة عروجه إلى الحضرة الإلهية . انظر : يوسف محمد طه زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، ، دار الجيل، ط1، 1991 م، ص 75 – 76 .

** الأحوال، فهي ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، ... ومن أمثلة الأحوال عندهم المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء . انظر أبو الوفا الغنيمي التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي،القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع،ط3، 1979، ص 39 .

[2] التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 39 .

تعالى:﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2] .

فالقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى الزهد والتقشف والتحذير من فتن الدنيا والاغترار بها، والعبرة بالدار الآخرة التي إليها معادنا ومفازنا . وفي القرآن أيضا الدعوة للتقرب إلى الله وقيام الليل والذكر وذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3].

قال المفسرون : الذين يذكرون الله في جميع الأحوال بقلوبهم وألسنتهم، قياما وقعوداً، ولا يغفلون عنه تعالى لإطمئنانهم بقربه. ومن هذه المعاني الروحية استقى الصوفية أورادهم وزهدهم في الدنيا، فكان كلام الله مرجعهم وحبلهم المتين ومصدر إلهامهم، ولحمايتهم من كل شر .

[1] سورة العنكبوت، الآية 64 .

[2] سورة الحديد، الآية 20 .

[3] سورة آل عمران، الآية 191 .

قال تعالى :﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾[1].

فالآية تدعو إلى الصبر والإحتساب لله، وهذه المعاني عند الصوفية تشير إلى مقام الصبر الذي حثّ الله عليه لما فيه من عظيم الأجر والعطاء وهذا ما أخبرنا به في الحديث القدسي عن فضل الصبر في الصيام في قوله : (الصوم لي وأنا أجزي به)، ففيه صوم عن كل الشهوات والملذات . كما ذكر القرآن أحوال ومقامات أخرى التي يرتقي بها الصوفي من منزلة لأخرى بدءا بالتوبة، الخوف، الرجاء، الشكر، التوكل، الرضا ..... وكل هذه المراتب تؤدي إلى التقوى، يقول المولى عز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2].

وهناك خصائص أخرى للتصوف وهذا ما ورد في الأحاديث القدسية والنبوية وذلك مما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم : يقول الله تعالى ﴿أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ﴾[3].

---

[1] سورة طه، الآية 130 .

[2] سورة الحجرات، الآية 13 .

[3] رواه مسلم في الذكر والدعاء رقم 2675 .

بما أن التصوف يدرس سلوك الإنسان ويبحث في أعماق النفس البشرية ويسعى لتهذيبها، ويحرص على إدراك المقامات والأحوال التي تأهله بلوغ درجة الولاية والقرب من الله ،كل هذا يشير إلىأن مرجعه الأساسي كتاب الله وسنة نبيه الكريم .

إنأول مصادر التصوف هو القرآن الكريم والذي استمد الرسول صلى الله عليه وسلم سلوكه وأخلاقه يقول تعالى :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] .

وكانت تقول عائشة رضي الله عنها : كان قرآن يمشي بين الناس، واتبعه الصحابة في أخلاقه حتى كان الواحد منهم يقرأ عشر آيات من القرآن فلا يتجاوزها حتى يعمل بها، فكانت حياته صلى الله عليه وسلم جانباً تطبيقياً للقرآن الكريم . يقول الحق تعالى :﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة 105)، وفي هذا دلالة على أن الله أمرنا بأن نعمل لكي يجازينا بما قدمناه، فالجزاء من جنس العمل، والقرآن علم وعمل.

ـ السنة النبوية :

"ونجد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي مثال للعفة، والطهارة، والتقوى، وغيرها من الأخلاق الكريمة، سواء كان ذلك قبل أو بعد البعثة حيث كان يتحنّث*في غار حراء كلما أقبل شهر رمضان، مبتعدا عن صخب الحياة، زاهدا في نعيمها، وترفها، متقللا في مأكله ومشربه، ومتأملا في الوجود، فأتاح له هذا كله صفاء القلب"[2]، وفي هذا دليل على أن حياة النبي عليه الصلاة والسلام كانت

---

[1] سورة القلم، الآية 04.

*تحنّث، ورد في القاموس المحيط تحنّث : تعبد الليالي ذوات العدد أو اعتزل الأصنام، انظر : أبو الوفا التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 43 .

[2] المرجع نفسه، ص 43.

تنطوي على الكثير من معاني الزهد، وتعبد الله تعالى قبل البعث، في حين أنّه استمر على ذلك بعد البعث إذ فحياته صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه، كانت أيضا تتصف بالزهد التقشف فالأكل الشرب.

وبهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والقدوة للمسلمين جميعا بما فيهم المتصوفة لما كانوا يحملونه من أخلاق وعلو الهمة تؤهلهم ليكونوا من اتباع الرسول الكريم .وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

ومن أهم الصفات التي كان يتحلى بها سيد الخلق، نذكر الزهد ،كان يدعو لذلك حيث قال : "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس "[2].

كما تحدّث عليه الصلاة والسلام عن معاني أخرى مثل: الذكر والطهارة والشكر..... حيث يقول:"الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض[3] " رواه مسلم .

وفي موضع آخر كان صلى الله عليه وسلم يحثّعلى الدعاء فيقول :"الدعاء هو العبادة"[4] (رواه ابو داوود).

كما قال: "من لم يسأل الله يغضب عليه "[5](رواه الترمذي).

---

[1] سورة الأحزاب، الآية 21 .

[2] التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 49 .

[3] خالد الحسينان، أكثر من 1000 دعوة في اليوم والليلة، ، مصر الدار العالمية للنشر والتوزيع، ط3، 2004 م، ص 171 .

[4] المرجع نفسه، ص 16 .

[5] المرجع نفسه، ص 17 .

وهنا إشارةإلى فضل الدعاء أيأن العبد متوكل على الله ومفوض أمرهإليه دون سواه .

من خلال المعاني الروحية التي ذكرت عند سيد الخلق تدل على أن التصوف في ممارساته وإتجاهاته وموضوعاته وسلوكياته الروحية، إنّما هي مستمدة من أصل نوراني وجد في حياته صلى الله عليه وسلم.

يقول تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1]،وفي هذا تسليم للمؤمنين بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، وإثبات للمنكرين أن التصوق الحق منبعه كتاب الله وسنة نبيه الكريم .

ـ صحابة رسول الله الكرام :

لقد اقتدى الصحابة بسنة رسول الله، واهتدوا بكتاب الله، في أقوالهم وأ فعالهم ،فكانوا القدوة والمثال الأعلى، حتى أن الله تعالى مدحهم في كتابه العزيز، يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنه ﴾[2].

كما أمر صلى الله عليه وسلم الإقتداءبأصحابه الكرام ،وبعد الإقتداء بهم هداية، ويقول في هذا :" أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم "[3] .

---

[1] سورة الأحزاب، الآية 21 .

[2] سورة التوبة، الآية 100 .

[3] أبي نصر السراج الطوسي، اللّمع، ص 166 .

وقد شبههم بالنجوم لكثرة المزايا التي تحملها الكلمة من معاني الهداية والنور، حيث يقول الطوسي في كتابه (اللّمع) :" والنجوم ما يهتدي به في البر والبحر لكبره، وكثرة ضوئه ونوره، فلذلك شبههم بالنجوم "[1].

وقد جعل الصوفية منهج صحابة رسول الله الكرام مصدر لأفعالهم التي كانت تشهد عن زهدهم وورعهم واقبالهم على الله .

ومما يروى عن الصحابة مايلي :

يروى عن أبي عتبة الحلواني رحمه الله، أنه قال : "ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ أولها : لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة، والثانية : كانوا لا يخافون عدوا قلوا أو كثروا، والثالثة : لم يكونوا يخافون عوزا في الدنيا، وكانوا واثقين برزق الله تعالى، والرابعة : إن بدا بهم الطاعون لم يبرحوا حتى يقضي الله فيهم "[2].

وفي القول دلالة على تحلي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالحب والإخلاص لله والرسول، وورعهم وزهدهم ورضاهم بقضاء الله وقدره .

ونجد أن عمر رضي الله عنه كان مثال للزهد، حيث روي عنه أنه " جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه، فشكا إليه الفقر فقال : عندك عشاء ليلتك ؟، قال : نعم، قال : لست بفقير"[3].

وروي عن عثمان، رضي الله عنه، أنه قال : "وجدت الخير مجموعا في أربعة، أولها : التحبب لله تعالى (بالنوافل)، والثاني: الصبر على أحكام الله تعالى، والثالث : الرضا بقدر الله عز وجل، والرابع :

---

[1] المرجع نفسه،ص 166 .

[2] أبي نصر السراج الطوسي، اللّمع، ص 167 .

[3] المرجع نفسه، ص 174 .

الحياء من نظر الله عز وجل"[1]. من خلال القول يتضح أن الخير في أربعة أمور، أولها التقرب إلى الله بمحبته واتباع الأوامر وتجنب النواهي، وأدائه للفرائض وفعله للنوافل وهذا دليل على قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : " إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب الي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه "[2] رواه البخاري .

و الثانية الصبر على قدر الله والرضى، والحياء من الله عز وجل كونه شعبة من الإيمان وكذلك لأن الله يرانا ويراقب أعمالنا ،كما ذكرنا سابقا أن التصوف هو مقام الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك، وكان الصحابة في مراقبة دائمة ومحاسبة لأنفسهم مخافة إغضاب المولى عز وجل، فتخلقوا بأخلاق النبي وحاولوا اتباعها وتطبيقها كمنهج حياة .

أما المصادر الخارجية لم أحاول التطرق إليها لأني خصصت بذكر التصوف عند المسلمين الذي مصدره الأول والأساسي الكتاب والسنة، واستنادا لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[3].

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[4]

[1] المرجع نفسه، ص 178 .

[2] رواه البخاري في الرقاق، رقم 6502 .

[3] آل عمران، الآية 85 .

[4] المائدة، الآية 33 .

والإسلام وشريعتنا قد وفّت في ذلك ولم تدع شيءا يخص الإنسان وإعلاء نفسه البشرية إلا وأوردته في الكتاب والسنه . فكل ما نحتاجه لإصلاح هذه السلوكيات موجود في هذين المرجعين (الكتاب ـ السنة) وحياة الصحابة والسلف الصالح .

أما القائلين في أن التصوف أتى من المصادر الخارجية (من فارسية وهندية ويونانية ....) يمكن القول أو الرد بأن العوامل الداخلية والمحيطة بالشخص في بيئته الأصلية التي نشأ فيها، هي أقوى تأثيراً وأعظم سلطاناً في توجيه السالك أكثر من اتصاله بالعوالم الخارجية، لأن الإستعداد الفطري موجود عنده، بحكم ما تزود به من موروث، وما اكتسبه من تربية، ويكفيه أن يسلك هذا الطريق من خلاصة تجاربه في الحياة . كفكرة أو حادثة حصلت معه تؤدي به إلى السير نحو الله تعالى . ففطرته السوية تؤدي به إلى التوجه نحوه سبحانه وتعالى مصداقا لقوله :"﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وتعني الآية الكريمة أن الإنسان جبل على التّخلق بالصفات الربانية التي تدل على الخير . وقوله أيضا: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [2]، كذلك بتوجهه إلى الله وفراره إليه لإيجاد ضالته وإنارة طريقه.

وبالتالي لا بد من استعداده الفطري التي لا تغني عنه تلك المصادر الدخيلة من "فلسفة أفلاطونية" ولا "فدانتا هندية "[3]ولا "زرادشتية فارسية "[4].

---

[1] سورة الروم، الآية 30 .

[2] سورة الصافات، الآية 99 .

[3] أصله في (فديك) ثقافة على الأقل حتى 2000 قبل المسيح، هو ثالث دين كبير هندوسي وهو قاعدة الروحانية من فدس وبالتالي (فدا) فضيلة، (فديك) فلسفة هندوسية/ انظر دي بورا تاريخ الفلسفة في الإسلام /50 .

[4] معتقد فارسي مجوسي/ انظر دي بورا تاريخ الفلسفة في الإسلام /50 .

فمن الممكن أن يكون السالك طريق التصوف قد قرأ في الأفلاطونية الحديثة أو لا يكون، وقد يكون على دراية بعقائد الهند أو لا يكون، فالمطّلع على الأفلاطونية الحديثة لا يفيده اطلاعه وبحثه هذا في أن يكون صوفيا، وكذلك بالنسبة للمتخصصين أو المطلعين على الفلسفة اليونانية .

ونجد أن الإمام الغزالي قد قرأ في كتب الصوفية أنفسهم، ويحدثنا بذلك فيقول :" فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : قوت القلوب " لأبي طالب المكي " رحمه الله، وكتب المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عند الجنيد والشبلي، وأبي يزيد البسطامي ـ رحمهم الله ـ وغير ذلك من كلام يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع "[1]، وكل هذا لم يجعل من الإمام صوفيا وقتئذ، ولم يكن الإمام الغزالي بهذه الكتب ولا بدراسته الفلسفة اليونانية دراسة معمقة صوفياً، ولكنه تبين أن أخص خواصهم ـ على حدّ تعبيره ـ ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم، بل بالأحوال والذوق .

إذن يمكن القول أن التصوف ثقافة وهبية تتأثر بتهذيب النفس والأخلاق الفاضلة، وتصفية القلب بذكر الله، كما يمكن أن تكون ثقافة كسبية وذلك عن طريق الإطلاع والبحث والدراسةولكن يكون الإستعداد والقبول لتلقي تلك العلوم بالإتباع والتخلية والتحلية وهذا لا يكون إلا من خلال المصادر الداخلية(قرآن وسنة) فهو الأساس الأول للمنهج الصوفي . ومن خصائصه أنه تضيق فيه العبارة، فلا يحاول أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الإحتراز عنه . والتي لابسته تلك الحالة، على حد تعبيرالإمام الغزالي لا ينبغي أن يزيد على أن يقول الشاعر العباسي ابن المعتز:

وَكَانَ ما كَانَ مِمَا لَست أذكره فَظُن خيراً ولاَ تَسألْ عَنِ الخَبَر.

وعليه فالمشاهدة في الطريق الصوفي ليس بالضروري أن تكون كسبية وليس بالضروري التحدث عن المصادر الخارجية، إنما يتأتى ذلك بعد الإستعداد الفطري الذي له الدور المهم في سلك هذا الطريق،

[1] د. محمد عبد الفتاح سيد أحمد، التصوف بين الغزالي وابن تيمية ،دار الوفاء ،المنصورة، مصر، ط1 ،2000،ص 76 .

أما مسألة الذوق الصوفي، والشعور الصوفي، والمعرفة، والمقامات والأحوال، فيمن الله به على من يشاء من فيوضات وإمددات ربانية.

الفصل الأول :

أبو مدين شعيب (عصره، حياته ،آثاره ومنهجه الصوفي)

1 ـ الأوضاع السياسية والإجتماعية والفكرية

أولا : الوضع السياسي

ثانيا : الوضع الإجتماعي

ثالثا : الأوضاع الفكرية والروحية في عصر أبي مدين

- الوضع الفكري
- الوضع الروحي

2 ـ حياة أبو مدين شعيب

أولا : مولده ونشأته العلمية .

ثانيا : التصوف عند أبي مدين شعيب.

ـ مسيرته الصوفية.

ـ منهجه الصوفي.

ثالثا: مؤلفاته وآثاره

رابعا: آراء العلماء فيه.

خامسا: قصة وفاته.

إن الكلام عن التصوف يدفعنا للحديث عن أهمأقطابها وأعلامها وممن ذاع صيتهم في العالم العربي، خاصة بالجزائر، إذ برز فيها من ابدعوا وتفننوا في هذا العلم، وقاموا بنشره في المغرب العربي، من بينهم القطب صاحب المدرسة المدينية " أبو مدين شعيب" والذي يعتبر من أشهر وأهم المتصوفة في المغرب العربي، والأوسط خاصة، ومن الذين نبغوا في هذا العلم، وهذا ما أقرته معظم الروايات على ما كان يتمتع به من بركات وكرامات أفاد بها كل من تتلمذ على يديه ومشى على دربه وخطاه.

1 ـالأوضاع السياسية والإجتماعية والفكرية:

أولا : الوضع السياسي :

قبل أن نتطرق إلى التعريف بالعالم الرباني " أبي مدين شعيب" تجدر الإشارة إلى الأوضاع التي سبقت وسايرت نشأته، ومنطلق ذلك ذكر الدولة التي كانت تحكم الجزائر أثناء حياته، هذه الدولة هي دولة الموحدين التي أنشأها أول الأمر "المهدي بن تومرت "، وخلفه بعدها " عبد المؤمن بن علي" حين بويع للخلافة سنة 524 هجرية [1].

وكان هذا إثر سقوط دولة المرابطين بالمغرب، وهذا التتابع في الحكم يجسد حالة عدم الإستقرار التي عاشتها المنطقة وانعكاسها على الحياة الإجتماعية والإقتصادية والفكرية .

استقر حكم الموحدين في المغرب الأوسط بمنطقة بجاية بعد أن انسحبت جيوشهم من مراكش إلى تلمسان وبعدها عاصمة ملكهم النهائية بجاية[2].

وإذا كان الحال على ما ذكر من اشتداد الصراع السياسي بين القبائل، في كامل المنطقة، فإنّ مجيء "عبد المؤمن بن علي" عمل على امتصاص غضب تلك القبائل، وذلك بتوزيعها بين سهول المغرب الأوسط والأقصى، فقضي بذلك على القلاقل الداخلية، وكرس للوحدة السياسية فيها، وتوجه بنظره

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،دط، 2006 م، ص 153 .

[2] شارل اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب : محمد مزالي، البشير بن سلامة، ، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 2، 1983 م،ص 135 - 137 .

نحو الأندلس فاستولى منها على غرناطة"[1]، لينهي بذلك آخر عهد للمرابطين بالأندلس، إلا أن الأمر لم يستمر لوقت طويل حيثتجمعبعض الناقمين على الموحدين "من أعيان بجاية" "ابن غانية" المرابطين للإستيلاء على الجزائر وإقامة دعوة المرابطين ...

وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى فاجأ أسطول المرابطين بجاية تحت إمارة "علي بن غانية" ...فشمر حينئذ المنصور الموحّدي وشن عليهم حملة عنيفة أخذ من يدهم الجزائر وطردهم "[2].

و ًهذا ما يثبت أن الجزائر عاشت مرحلة اللّإستقرار طيلة حكم الموحدين .

ثانيا : الوضع الاجتماعي :

أما عن الوضع الإجتماعي فلم يسلم من ذلك التوتّر الذي شهده الوضع السياسي بعد أن تساقطت إمارات الأندلس في يد الإسبان وزحف مسلموها نحو المغرب خاصة الأوسط منه فأفادت الجزائر من علماء وشعراء مدينة بجاية تحديدا .

استحدث الموحدون طبقة جديدة من أجل تقليص نفوذ الفقهاء والعلماء في دولتهم، وهذه الطبقة تمثلت في طبقة الطلبة، وكانت لهذه الطبقة مكانة رفيعة، وعند استقرار دولة الموحدين استرجع الفقهاء والعلماء والقضاة مكانتهم عند الخلفاء الموحدين، الذين عملوا على جلب هؤلاء من شتى الحواضر.[3]

وقد عانت الطبقة العامة من التهميش والازدراء، واشتدّت الأزمات وظهر الذين احترفوا التسول والاحتيال على الناس. كما انتشر الزواج المبكر ،ولم تخل الأعراس آنذاك من مظاهر البذخ واللهو، واستنكر العلماء ذلك. كما لبست النساء الفاخر من الثياب ولو استدعى الأمر أن يستعيروا من بعضهن البعض قصد التباهي.

---

[1] شارل اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ص 144 .

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 153 .

[3] ينظر: كتاب الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين ،2008، موقع ،ص245. archive . org archive . org

كما انتشرت في تلك الفترة الأمراض والأوبئة وحصدت أرواح الكثير من الناس ،ولم يتخلف الخلفاء الموحدون على توفير وسائل العلاج التي كانت تكلفتها باهضة، مما جعل الناس يتوجهون إلى الطب البديل ، ويقصدون حتى السحرة من أجل طلب العلاج.

ثالثا : الأوضاع الفكرية والروحية في عصر أبي مدين شعيب:

1. الوضع الفكري :

"تركز النشاط الفكري في هذه الفترة على الجانب العقدي والمذهبي إذ بحكم الموحدين تحولت عقيدة أهل البلاد عن السلف والمذهب المالكي إلى مذهب الأشاعرة، فأشاعت فكرة المهدي، خاصة بعد نشر علم الكلام بينهم، كما أعطيت الحرية كاملة للفكر وما يشهد على ذلك اجتماع الكلام في الفلسفة والشريعة، خاصة بعد أن أحلوا ببلاطهم "ابن رشد" [1].

مما يؤكّد على أن ذهنية أهل المنطقة ذات قابلية للتأقلم مع المذاهب الفكرية والعقدية بالرغم من التفاوت الحاصل بينها .

وعليه فإنّه لا يمكن بحضور هذا المجال الفكري الفسيح أن يغيب الشعراء والأدباء عن مثل هذه الساحة الثرية، فظهر بينهم " أبو عبد الله بن محرز بن محمد الوهراني "* صاحب "المنامات"، والفقيه الشاعر " أبو عبد الله محمد بن يحي بن عبد السلام "**، و"محمد بن حماد"*** وغيرهم كثير [2].

---

[1] كتاب الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين المرجع السابق، ص 155 - 156 .

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 160 .

*هو أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني، ولد ونشأ بمدينة وهران، تلقى فيها مبادئ العلوم ثم غادرها إلى مصر، وقصد بعدها إلى دمشق فولّى منصب الخطابة بجامعة داريا، وبقي به إلى وفاته، من مؤلفاته " جليس كل ظريف " و" المنامات " . كانت وفاته سنة 575هـ . ينظر: محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، مج1 ،ج 1، ط 2، طبع وإشهار داود بريكسي، تلمسان، 2005 م، ص 140 .

** هو عبد الله محمد بن يحي بن عبد السلام، الفقيه الأديب التدلسي ، سكن بجاية وأخذ عن شيوخها، وكانت له بذلك مكانة عالية ورفيعة، برع في التاريخ والفقه والطب، ولي القضاء في نواحي بجاية بحوالي السنة السابعة، له من الأشعار ما يشهد له فيها=

وموقع مترجمنا من هذا كلّه عظيم، إذ أنّه مثل تجربة روحية عميقة الأثر في أهل المنطقة استمرت لقرون، فهو الجامع بين الشريعة والحقيقة في توجهه ومذهبه، واستطاع التأثير بشكل لافت على تابعيه ومريديه .

2 ـ حياة أبو مدين شعيب :

أولا : مولده ونشأته :

ـاسمه ونسبه : "هو الشيخ الزاهد، العارف الكبير، قطب التصوف، القدوة، " أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري، الأندلسي، الإشبيلي، المالكي[1] "، القطنياني، المغربي، البجائي، التلمساني .وكنيته " أبو مدين " تكنى بإبنه " مدين " ذي الفضائل المشهورة دفين مصر بجامع الشيخ "عبد القادر الدشطوطي " ببركة القرعي خارج السور .

"ولد بقرية قطنيانة وهي تبعد عن إشبيلية بثمانية أميال على شاطئ النهر المسمى بالواد الكبير"[2].

وقد اختلفت المصادر في التحديد الدقيق لتاريخ مولده، فذهب بعض المؤرخين إلى أنّ عام ولادته كان في(510 هـ ـ1116م)، وقيل عام (514 ـ 1120 م)، والأرجح أنه ولد عام (509 هـ ـ1115 م)، استناداً إلى رواية المؤرخ " محمد بن حمدون البنّاني " حين تعرض لوفاته فقال " توفي أبو

=بالتفوق والتمكن، منها المطولات والمقتضيات الرائعة . ينظر : محمد بن رمضان شلوش والغوثي بن حمدان، المرجع نفسه، مج 1، ج 2، ص 194 .

*** هو محمد بن حماد بن علي بن حماد الصنهاجي من سلالة بن حماد أمراء القلعة، ولد بسوق حمزة سنة 548 هـ، نشأ بالقلعة وتلقى بها دروسه الأولى ثم أخذ العلم على فطاحل علماء بجاية، انتقل إلى الجزائر وبعدها تلمسان رغبة في اكتساب العلم، دخل المغرب الأقصى تولى خطة القضاء بالأندلس، ليعود بعدها إلى مراكش التي توفي بها سنة 628 هـ وقد نيف عن الثمانين، من مؤلفاته : أخبار ملوك بني عبيد، والنبذة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة "في التاريخ"، أما " الأدب " فله عجالة الموذع وعلالة المشيع " في الشعر والأدب "، ينظر : محمد رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر ،مج 1، ج 1، ص 173 .

[1] العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، محمد الطاهر علاوي، ، شركة دار الأمة، ط1، 2004، ج1، ص 14 .

[2] أبو مدين شعيب ،السعادة الأبدية، جمعه عبد الحميد حميد والتلمساني، طبع بالمطبعة الجديدة بفاس، 1935 ،ص 37 .

مدين شعيب بن الحسين الأندلسي سنة أربعٍ وتسعين وخمسمائة (594 هـ) عن نحو خمسٍ وثمانين سنة "[1].

أي المولد كان عام تسعٍ وخمسمائة، فمنذ نشأته ظهرت عليه أمارات التميز فكان كثير التأمل، تشغل فكره تساؤلات مختلفة، وكانت نفسه الصغيرة تتوق للتدين والعبادة، فنشأ أبو مدين يتيماً " وكان والده الذي توفي في عهد مبكرة صاحب غنم ولم تكن الغنم من الكثرة بحيث تسمح باستئجار راع لها، وكان شعيب أصغر إخوته، فكلّفوه بأن يقوم على رعيها، كانت الأغنام تكلّفه جهداً وتشق عليه "[2].

فلم يكن له بدّ سوى أن يقوم على رعيها قدر المستطاع، لكن نفسه كانت تشده إلى العلم والعبادة، فكان يتماطل في رعيها تارة ويمتنع تارة أخرى، فلم تكن له الرغبة لفعل ذلك، بل كان كما كان يقول عن نفسه"... كلّما رأيت من يصلي أو من يقرأ، أعجبني ودنوت منه، وأجد في نفسي غماً لأنّني لا أحفظ شيئاً من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة، ففررت فلحقني أخي وبيده حربةٌ فقال لي : والله لئن لم ترجع لأقتلنّك .فرجعت وأقمت قليلا "[3].

لكن نفسه لم ترتاح إلا بتحقيق مبتغاها، ولم تدم إقامته طويلا حتى عاودالفرار مجدداً، فقال " فأسريت ليلة وأخذت في طريق آخر فأدركني أخي بعد طلوع الفجر، وسل سيفه علي وقال لي : والله لأقتلنّك واستريح منك ! ، فعلاني بسيفه ليضربني . فتلقيته بعود كان بيدي فانكسر سيفه وتطاير قطعاً، فلما رأى ذلك قال لي : يا أخي اذهب حيث شئت..."[4].

من هنا ومن هذه النقطة بدأت رحلة مولانا في تحصيل العلم، رحلة محفوفة بالمصاعب والمخاطر، لكن كل ذلك كانت تعلوه إرادة قوية، إرادته المليئة بحب العلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة، قاصدا

---

[1] العربي بن مصطفى التشوار، ديوان أبي مدين شعيب، مطبعة الترقي، دمشق ،ط1، 1938، ص 44 .

[2] عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ،ط3، د ت ،ص8 .

[3] أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي،التشوف إلى رجال التصوف،تح أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء، ط 2، 1997، ص 320 .

[4] المرجع نفسه، ص 320 .

بذلك الله، فيتابع مسيرته الصعبة ويواجه أثناءها شتى المخاطر والتي كانت تتصدى لها نفسه وعزيمته القوية متوجهاً نحو المغرب.

يقول :" فسرت ثلاثة أيام...أو أربعة أيام فلاحت لي كدية على البحر وعليها خيمة، فخرج منها شيخ وليس عليه إلا ما يستر به عورته، فنظر إلي وظن أني أسير ففررت من أرض الروم، فسألني عن شأني فأخبرته . فأخذ حبلا وربط في طرفه مسمارا فرمى به في البحر فأخرج حوتا فشواه لي فأكلته، فأقمت عنده ثلاثة أيام، كلّما جعت رمى بالحبل والمسمار في البحر فيخرج به حوتا فيشويه وآكله، ثم بعد ذلك قال لي: أراك تروم أمرا، فإرجع إلى الحاضرة فإنّ الله لا يعبدَ إلاّ بالعلم. فرجعت إلى "اشبيليا"، ثم ذهبت إلى "شريس" إلى الجزيرة الخضراء، فجزت البحر إلى "سبتة"[1].

من خلال مغامراته والمصاعب التي شهدها كانت تنبئ بأن " أبا مدين" سيكون له شأناً عظيماً ، ومكانة علية في علم التصوف.

ثانيا – التصوف عند أبي مدين شعيب:

ما من شك في أن أبا مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي[2] رغم ما قدمت عنه من أبحاث ودراسات متنوعة، فإن عالمه يبقى مليئا بالدرر والنفائس، التي تستلزم مزيدا من التنقيب في مكنوناتها وتفاصيلها، خاصة فيما يتعلق بحقيقة التصوف الإسلامي عنده –مكانة ومنهجا-

1-مسيرته الصوفية :

[1] ابن الزيات أبو يعقوب بن يحي التادلي ،التشوف إلى رجال التصوف، 322 .

[2] ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: عبد الرحمن الطالب ، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، ط1، 1986،ص108-114

تذكر المصادر التي تحدثت عن حياته الروحية بأن مسيرته الصوفية تميزت بمرحلتين هما ،مرحلة المريد ومرحلة الشيخ وهما مرحلتان كان لهما أكبر الأثر في تكوين شخصيته الصوفية.

أ- **مرحلة المريد:** تبدأ هذه المرحلة من مغادرته لمسقط رأسه وتنتهي بوصوله إلى مدينة فاس، وأسباب المغادرة تعود لما ذكره في قوله "كنت بالأندلس يتيما فجعلني إخوتي راعيا لمواشيهم، فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والكتابة، ففرت... ذهبت إلى سبتة فكنت أجيرا للصيادين... ثم ذهبت إلى مراكش ... فقيل لي: "إن رأيت أن تتفرغ لدينك فعليك بفاس"[1].

وبنظرة تحليلية لهذا القول يتبين لنا بأنه كان منذ نشأته حريصا على تعلم القراءة والكتابة،شغوفا بالتدين والعبادة،فبدافع التعلم خرج هاربا من الأندلس، وبالدافع نفسه استقر بمدينة فاس التي أدرك فيها غايته، ففي جامعتها تعلم وفي زواياها تصوف وبجلوسه إلى حلق العلماء والفقهاء فيها، انكب على تحصيل العلوم والمعارف إلى أن "فتح الله عليه بمواهب قلبية وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل وارتقى إلى غاية ما يؤمل" [2].

تدرج أبو مدين وهو بمدينة فاس في معرفة العلوم الشرعية وجلس إلى الحلقات العلمية الكثيرة التي كانت تزخر بها مساجدها خصوصا منها جامع القرويين وجامع الأندلس، وبإحدى هذه الحلقات بدأ يكتشف طريق النور الذي يلف طريق العلم.

قال يصف ذلك :"كنت أجلس إلى حلق الفقهاء والمذكّرين فلا أثبت على شيء من كلامهم إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي ، فسألت من هو؟ فقيل لي: بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان، وقصدت الله بكلامي فيخرج من القلب ويدخل القلب[3].

ثالثا: شيوخه

---

[1] ابن الزيات ،أبو يعقوب بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف،ص 322.

[2] أبو العباس أحمد الغبريني،عنوان الدراية، تحقيق،رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط2،1981،ص56.

[3] ابن الزيات ،أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص320.

لم تكن رحلته في طلب التصوف سهلة، بل كانت رحلة شاقة مليئة بالمخاطر والمصاعب، لا يقوى عليها إلا من كانت له إرادة قوية وعزيمة صلبة، بدأها كمريد أولا ، على يد عدد من العلماء أبرزهم :

1) الشيخ بن حرزهم :

"هو أبو الحسن علي اسماعيل بن عبد الله بن حرزهم، ولد بفاس ونشأ بها، ويعدّ من كبار الفقهاء، كان متصوفا زاهدا له كرامات وفراسات، وكان والده وأخوه من كبار الصالحين"[1] .

و كان ممن يتبعون الملامتية ويحبذون إخفاء أمرهم على العامة في التقرب إلى الله وكان الإخلاص السبيل في أعمالهم، وللشيخ بن حرزهم قصة مع كتاب إحياء علوم الدين، وهي قصة مشهورة، رواها الكثيرون عنه إذ يقول: "اعتكفت على قراءة إحياء علوم الدين للغزالي في بيتي مدّة عام، فجردت المسائل التي تنتقد عليه، وعزمت على حرق الكتاب، فلما نمت رأيت قائل يقول : " جروه واضربوه حد الفرية، فضربت ثمانين شوطا،فلما استيقضت جعلت أقلب ظهري فوجدت به ألما شديدا من ذلك الضرب، فتبت إلى الله تعالى بما اعتقدت،ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة"[2].

أما وفاته، فيروى عنه أنّه كان يقول لن أصوم مع الناس هذا الشهر، يعني شهر رمضان ...و لم يبق إلاّ ثلاثة أيام أو أربعة من شهر شعبان، والناس يتعجبون من كلامه وهو مازال حياً، وقد قرب رمضان فأدركه الموت قبل دخول رمضان وهذا من كراماته، "ووافته المنية سنة تسعة وخمسين وخمسة مائة (559) ودفن خارج باب الفتوح من أبواب فاس [3] .

---

[1] العربي بن مصطفى التشوار، ديوان أبي مدين شعيب ،ص 15

[2] عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث . حياته ومعراجه الى الله ،. المكتبة العصرية، ، بيروت، دت،ص28 .

[3] العربي مصطفى التشوار ، ديوان أبي مدين شعيب ،الديوان، ص15 .

هذا هو " ابن حرزهم " الذي كان أول شمعة أنارت طريق الشيخ أبي مدين، ومن الكتب التي طالعها ابن حرزهم فتبعه في ذلك الشيخ "أبو مدين" كتاب "الرعاية لحقوق الله" لمؤلفه الإمام "الحارث المحاسبي"[1].

ويعد هذا الكتاب أهم كتاب ألفه " المحاسبي " "الذي هو نفسية معمقة لحياة الفرد، وقد قرأه حجة الإسلام الإمام الغزالي إذ استفاد منه في كتابه إحياء علوم الدين، وهو نموذج لإرشاد الناس وتوجيههم وهدايتهم . كما درس "أبو مدين" على "ابن حرزهم "كتابا آخر في التذكير هو كتاب "إحياء علوم الدين " للإمام الغزالي وهو كتاب نفيس لما يكتنفه من عبادة وعقيدة وأخلاق والتي هي مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله"[2].

وبهذا يكون الشيخ " أبو مدين شعيب " قد اكتسب وحصل زادا علميا ومعرفيا غزيرا أهله للرتبة التي بلغها وذلك بفضل تتلمذه على " ابن حرزهم "، ومما زاد في تقوية عزيمته وهمته وثباته على تصوفه هو إطلاعه على مختلف الكتب التي سبق وأن إطلع عليها شيخه " ابن حرزهم " .كما سبق وأن ذكرنا . كتاب الرعاية، كتاب إحياء علوم الدين، إضافة إلى علوم التصوف الفقهية، التي أخذها مباشرة من شيخه " ابن حرزهم " ولكن لم يكن يبلغ الدرجة الحقّة للتصوف لأن هذا الأخير أي التصوف ليس علماً فقط بل سلوك وتربية أيضا، ويعنى بتزكية النفس وتربيتها على الخلق الحسن من صدق وصبر وتسامح وكرم ومحبة ..... وهذا هو التصوف الخالص.)

2) الشيخ عبد الله الدقاق :

من بين الشيوخ الذي تتلمذ عليهم أبو مدين شعيب هو الشيخ الصالح أبو عبيد الله الدقاق . وهو من المتصوفة المشهورين، وكان إماما في ذلك الوقت، أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف، وفلتت منه يوماً كلمة يشكو فيها ضيق حاله فرأى بعض أصحابه في النوم قائلا :

---

[1] عبد الحليم محمود،شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، ص 32 .

[2] المرجع نفسه، ص 32 .

قُل للروجِلِ من ذَوِي الأَقْدَارِ الفَقر أَفْضَل شيمة الأَحرارِ

يا من شَكَا للنَّاسِ فِعلَه ربِــه هَل شَكَوتَ تَحمل الأَوزَارِ[1]

3) الشيخ ابن غالب :

"هو أبو الحسين علي بن غالب من فقهاء فاس وقد قرأ عليه الشيخ " أبومدين" " السنن " لأبي عيسى الترمذي في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وتفقه عليه، توفي ابن غالب سنة تسعين وخمس مائة (590 هـ)، ويروي الدارسون لحياته أن الأولياء كانوا يحضرون مجلسه . ومما يروى عنه أنّه كان إذا وجد صعوبة في حل مشكلة من المشاكل العلمية نظر إلى جهة من جهات البيت فيجدها مكتوبة في الجدار"[2] .

هؤلاء أهم مشايخ الشيخ أبي مدين، ومن مشايخه أيضا والذين كان لهم الفضل في رسم الطريق الصوفي لهذا العالم الرباني نذكر منهم :

. الشيخ أبو زكريا يحي بن أبي الزواوي :كان عالما صالحا زاهدا، ولد عام اثنين وستة مائة (602)، ودفن خارج بجاية سنة خمسة وثمانين وستة مئة (685هـ).

كان يقرأ التفسير والحديث وكان كثير الخوف من الله عز وجل، كثير التخويف للناس، يحذرهم من جهنم وعذابها وشرها، قال له الشيخ أبو مدين رضي الله عنه " لا تقنّط الناس وذكّرهم بأنعم الله تعالى فقال: " لا أقدر إلا على هذا "[3] .

. الشيخ الصالح أبو جعفر محمد يوسف الصنهاجي اشتهر بالكرامات وهو من كبار الصالحين .

---

[1] يوسف ابن اسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء،دار صادر، بيروت، ص23.

[2] العربي بن مصطفى التشوار،ديوان أبي مدين شعيب، ص23 .

[3] المرجع نفسه، ص24 .

. الشيخ الصالح أبو تميم عبد الرحمن الهزميري، وكان حافظا للمسائل، وقبره قريب من مكناسة ومن أخباره انه كان يشفي مرض البرص [1].

. الفقيه الصالح أبو عبد الله التاودي المقيم بفاس، كان يعلم القرآن ولكنّه كان يكتفي بأخذ الأجرة من أولاد الأغنياء، ويعطيها لأولاد الفقراء، كان يخيط ثياب المعلمين . كانت وفاته عام ثمانين وخمسمائة (580هـ)[2] .

. الشيخ الفقيه أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي، قرأ على الفقيه أبي الحسن علي بن غالب الذي قرأ عليه الشيخ أبو مدين بفاس، ولأبي الصبر كتاب عرف فيه بالشيخ المعروف بابن عربي صاحب كتاب " مواقع النجوم " في التصوف وغيرها من التآليف توفي في حدود الأربعين وستة مائة (640 هـ)[3]

. الشيخ الصالح أبو محمد عبد الجليل النصري، وكان كثير البكاء، من عباد الله الصالحين، العابدين والمنشدين، منها قوله :

رِجالُ الله قَدْ سعِدُوا وفَازُوا ونَالُوا فَضْل رحْمَته وجازَوا[4]

. "الشيخ الشهير العالم المحدث الصالح الخطيب القاضي العدل أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي الحافظ صاحب الأحكام الكبرى والصغرى في الحديث والعاقبة، كانت ولادته عام ستة عشر وخمسمائة (516 هـ)، ووفاته سنة اثنين وثمانين وخمسمائة (582 هـ)، قبره ببجاية"[5].

---

[1] العربي بن مصطفى التشوار، ديوان أبي مدين شعيب، ص 26 .

[2] المصدر نفسه، ص 25 .

[3] المصدر نفسه، ص 26 . 27 .

[4] المصدر نفسه، ص 27 .

[5] المصدر نفسه، ص 28 .

. الشيخ الصالح أبو علي حسين محمد الغافقي الصواف رافقه الشيخ أبو مدين ثلاثين سنة ولم يفارقه إلا بعد موته، وانتفع على يده فكان صاحب أسرار وكان له الفضل على تلامذته .

. الشيخ الصالح أبو علي عمر الصباغ، فكان صاحب مكاشفة،وله حادثة مع أبي مدين، فبينما هو يصلي مع أبي مدين رأى ثلاثاً أو أربعاً من الحور العين فلما سلما من الصلاة قال لأبي مدين:ما رأيت؟، فقال : وهل رأيتهن ؟ قلت : نعم، فأمره بأن يعيد صلاته، وقال أن المصلي يناجي ربه، وأنت ناجيتهن.

"الشيخ الصالح الولي أبو عمران موسى الحلاج كان يحلج القطن بفاس، فلما شاعت عنه العجائب من المكاشفة والحديث بخفايا الأنوار خرج خائفا على نفسه، وفر من المغرب إلى بجاية فقصد الشيخ أبا مدين فقال له أبو مدين وأنا إسمي شعيب وقد أمنت فإن موسى عليه السلام لم يؤمن حتى لقي شعيباً " [1] .

كما أسلفنا الذكر أن عبد القادر الجيلاني وبعد إقامته بمدينة فاس من أجل طلب العلم والمعرفة وأخذ " أبو مدين" مختلف العلوم من شيوخه الأجلاء أمثال : ابن حرزهم، ابن غالب، أبي عبد الله الدقاق، "تاقت نفسه لأداء مناسك الحج فغادر من المغرب متوجها نحو المشرق بين عام 550 هـ/ 555هـ (1155م /1160م) ولما وصل الحجاز التقى الشيخ عبد القادر الجيلاني، فكان من بين شيوخه الأكابر الذي درس عنه علم الحديث وعلم التصوف وتحصل منه على خرقة الصوفية، وأسرارها"[2].

4) الشيخ عبد القادر الجيلاني:

[1] العربي بن مصطفى التشوار، ديوان أبي مدين شعيب، ص 30 .

[2] يحي بو عزيز، مدينة تلمسان ،الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 80

"هو عبد القادر بن أبي صالحدوست بن عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن دراود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحضي بن الحسن المثني بن الحسن بن الإمام . رضي الله عنهم . ولد عام 470 هـ في جيلان"[1].

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ذو هيبة، وأخلاق حسنة وخوف وإخلاص من الله، مستجاب الدعوة، قريب من الله بعيد عن المعصية . أما عن تكوينه العلمي فدرس علوم القرآن، وتفقه على يد الشيوخ أمثال : "بن عقيل وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوداني، وأبي الحسن محمد بن القاضي بن يعلي الفراء، وأبي سعد المبارك بن علي المخزومي ودرس الحديث على يد بن حسن الباقلاني، بن علي الرسي، بن المظفر التمار،الأصفهاني السراح والكرجي، وقرأ الأدب على أبي زكريا يحي علي النتريني . وأخذ الحرقة الشريفة على يد شيخة ومرشده القاضي أبي سعد المبارك المخزومي . ولما نضجت علومه بدأ في نشرها بين طلبته، وأصبح إماماً يرشدهم إلى طريق الله ،كان يدرس بمدرسة (أستاده المخزومي) الوعظ والفتاوى حتى صارت مدرسته ملتقى لكل العلماء والفقهاء والصالحين وصار هو قطب وقته، وما تزال مدرسته قائمة الى الآن ببغداد"[2] .

" و كان الشيخ عبد القادر يتكلم ثلاثة عشر علماً، ويدرس التفسير والحديث ،و المذهب والخلاف وعلوم الحديث والنحو والأصول وكان يقرأ القرآن بمختلف قراءاته"[3].

وعرف بفتاويه التي كانت ترد عليه من بلاد العراق وغيرها، وكان يستند في فتاويه على مذهب أحمد بن حنبل والشافعي. ومما يروى عنه أنه قال : للإنس مشايخ وللجن مشايخ وللملائكة مشايخ، وأنا شيخ الكل . وقال عنه أبو الحسن علي بن الهيتي الزيري : كان الأولياء في ذلك الوقت لايبيتون إلا وقد أتوه لإلقاء التحية والسلام عليه احتراما للقطبية .

---

[1] ابن يوسف الشطنوفي ،بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني، دار القلم العربي، ط1، 2003 م،ص 09

[2] الرجع نفسه، ص 14 .

[3] المرجع نفسه ،ص15 .

قال ابن الأخضر : ."رحمه الله .كنا ندخل على الشيخ عبد القادر في الشتاء وقوة برده، وعليه قميص واحد، وعلى رأسه طاقية والعرق يخرج من جسده وحوله من يروحه بمروحة وكأنه في شدة الحر"[1] .

وما يذكر عنه أنه مر على مجلسه حدأة فصاحت فشوشت على الحاضرين فقال : "يا ريح خذي هذه الحدأة فوقعت في ناحيةورأسها في ناحية، فنزل الشيخ عن الكرسي وأخذها بيده وأمر يده الأخرى عليها وقال : بسم الله الرحمن الرحيم فحييت وطارت"[2] .

وكان معروف بكراماته . رضي الله عنه . وهذا ما تناقلته الكتب الكثيرة، كانت وفاته رضي الله عنه سنة 561 هـ .

5) الشيخ الزاهد المتصوف "أبو يعزى يلنور ميمون":

من صلاح المغرب ، الذي كانت له معه حوادث مثيرة واختبارات صعبة لا يقوى عليها إلا من كانت نفسه تواقة لطلب التصوف.

هذا العالم الأخير كان أول من فتق حقيقة التصوف في قلبه وأول شمعة أضاءت لم الطريق،حيث كانت له معه حوادث مثيرة وإختبارات صعبة عبر عنها في زيارته الأولى له بقوله : " فذهبت إليه في جماعة توجهت لزيارته، فلما وصلنا جبل إيروجان، دخلنا على أبي يعزى وأقبل على الخلق دوني ،فلما أحضر الطعام منعني من الأكل ، فقعدت في ركن الدار ،فكلما أحضر الطعام وقمت إليه انتهرني، فأقمت على تلك الحال ثلاثة أيام، قام أبو يعزى من مكانه، أتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهي فيه، فلما رفعت رأسي، نظرت فلم أر شيئا، فصرت أعمى، فبقيت أبكي طول ليلتي، فلما أصبحت، استدعاني وقال لي: اقرب يا أندلسي، فدنوت منه فمسح بيديه على عيني فأبصرت، ثم مسح بيده

[1] يوسف بن اسماعيل النبهاني ، جامع كرامات الأولياء ،دار صادر ، بيروت، ج 2 ،ص202 .
[2] المرجع نفسه، ص 203 .

على صدري وقال للحاضرين : هذا يكون له شأن عظيم، أو قال كلاما هذا معناه، فأذن له في الإنصراف "[1].

وعلى الرغم من قساوة هذا اللقاء إلا أنه كان بمثابة امتحان ، اجتازه المريد في حضرة الشيخ بتفوق ولم يكن سببا في الإبتعاد عن الشيخ بدون رجعة بل زاده إصرارا للتقرب منه وتكرار الزيارة له.

ويقول صاحب كتاب أنس الفقير في حديثه عن إعجاب أبي مدين بالشيخ أبي يعزى :" فنال من بركاته ، وشاهد العجائب من كراماته "[2].

لقد كان لهؤلاء العلماء وغيرهم من المشايخ دور كبير في توجيهه الوجهة الصوفية وهو لا يزال شابا فمهدوا له الطريق للمضي قدما لدرك أسرار الشريعة واستكناه حقائقها، وساعدوه في الحصول على مكانة علمية مرموقة ظهر فضلها على كثير من الناس ، مباشرة بعد عودته من الحج، واستقراره بمدينة بجاية التي احتضنته كشيخ فطاب له بها المقام معلما ومربيا.

ومن الكتب التي اعتمدها وكانت مرجعه ومستنده في تصوفه:

- كتاب "الرعاية" للمحاسبي الذي سمعه عن " أبي الحسن علي بن حرزهم " حيث يذكر أبو مدين شعيب وهو في مدينة فاس أنه تقلب في مجالس العلماء وحلقات الفقهاء والذاكرين دون أن يستوعب عنهم شيئا، حتى وجد ضالته في مجلس العالم " أبي الحسن علي بن حرزهم "، الذي قال عنه :" كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته "[3].

[1] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 320-321.
[2] المرجع نفسه،ص 321.
[3] المرجع نفسه، ص 322.

- كتاب "الرسالة القشيرية" والذي ألفه الإمام القشيري حينما رأى في صوفية عصره أنواعا من الإنحرافات عن خط التصوف الصادق ، وألفه ليكون مقياسا صحيحا لمن أراد أن يسير على الطريق المستقيم "[1].
- كتاب "الإحياء" للإمام العظيم أبو حامد الغزالي ، رائد الاتجاه السني المعتدل في التصوف والذي يقوم تصوفه على الزهد عن زخارف الحياة الدنيا والإستهانة بمباهجها وبمظاهر الجاه فيها، بالاضافة إلى اهتمامه بمعرفة أسرار العبادات والعناية بتعميق مفهوم الإحسان والولاية.

وعن أثر كل من الشيخ أبي يعزى وكتاب الإحياء للإمام الغزالي في تمكينه من التصوف الإسلامي، يقول أبو مدين شعيب: " طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا هذا، فما رأيت أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي"[2].

أثمر أخذه عنهما إلى جانب غيرهم من العلماء الأفذاذ، من أمثال الجنيد والحارث بن أسد المحاسبي، والقشيري، وعبد القادر الجيلاني ممن كانت كتبهم وأقوالهم وأفعالهم مرجعه ومستنده في فقهه وتصوفه، في بناء نسيج منسجو لهويته الدينية والثقافية والروحية ، وفق نموذج فريد ومتميز، ومنظومة متكاملة مبنية على اختيارات مذهبية تتوافق والتوجه السني المعتدل ، مستندا في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه الكريم.

وممن كان له الأثر الواضح في مسيرته الصوفية هو الإمام " الشيخ عبد القادر الجيلاني" والذي تعرف عليه خلال رحلته إلى الشرق لأداء فريضة الحج،"فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرامن الأحاديث، وألبسه خرقة الصوفية وأودعه كثيرا من أسراره، وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الأكابر"[3].

---

[1] عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث ،ص 35.

[2] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال الصوف، ص 321.

[3] العربي بن مصطفى التشوار، ديوان أبي مدين شعيب ، ص08.

أما عن تجربته العملية الذاتية في التصوف فقد التزم مع نفسه طريقة أراد أن يتخطى بها العائق الأكبر الذي يصيب المتعاطين للعلم: وهو فصل العلم عن العمل. ارتأى ألا يأخذ من العلمّ إلا بالقدر الذي يمكنه من العمل به، كان في بدايته إذا سمع آية أو حديث قنع به وأخذه بقوة، وانصرف مختليا بنفسه يتأمل فيما سمعه ويجتهد بكل ما في وسعه في أن يصبح متحققا به لا مجرد راو له، حتى يفتح عليه فيه.

اتخذ أبو مدين في هذه الفترة خلوة خارج مدينة فاس يتعبد بها، وفي الرواية التي عند التادلي عن هذه المرحلة، كان يخرج إلى موضع خال متصل بالساحل ثم يعود إلى فاس للإستماع إلى توجيه آخر ونصيحة جديدة.

ثم اقتضى اجتهاده ودراسته ومحاولته الجمع بين الشريعة والحقيقة أن يحدث خلوة بداخل مدينة فاس، وتحقيقا لذلك ارتأى أن ينقطع بجامع الأندلس.

وهكذا يمكن القول بأنه قضى فترة رياضته ومحاسبة نفسه آويا إلى مسجد الأندلس.

وفي ضوء ما سبق نستطيع القول بأن الطرق التي أخذ عنها أبو مدين علم التصوف هي باختصار كما يلي:

1- طريق التصوف القائم على الوعظ والتذكير ومحاسبة النفس واعتماد كتب مثل الرعاية للمحاسبي والإحياء للغزالي على يد أبي الحسن بن حرزهم.
2- طريق التصوف المبني على الكرامة وخرق العادة والمجاهدة على يد الشيخ أبي يعزى.
3- طريق التصوف المتضمن للبس الخرقة وربط السند بالرجال الأوائل على يد أبي الحسن السلاوي وأبي عبد الله الدقاق.
4- طريق التصوف المشرقي كما تمثله الطريقة القادرية على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ومن هذا المنظور يصعب على الناظر أن يحصر تصوف أبي مدين في نسبة واحدة دون غيرها من النسب المذكورة، بالرغم منأن البعض يترجح لديه تعويله الحقيقي على يد أبي يعزى، وينسب إليه قوله:

طريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده إلى الجنيد بسنده إلى الحسن البصري عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ب- مرحلة الشيخ : وهي المرحلة التي تبدأ بمغادرته لمدينة فاس باتجاه المشرق لأداء فريضة الحج وتنتهي بعودته إلى مدينة بجاية التي اتخذها مقرا لإقامته وقال عنها بأنها " معينة على طلب الحلال"، "وهذا ما فسره البعض بأن سبب تخليه عن حاضرة فاس التي حاز فيها مكانا مرموقا في سلوك الطريق كان البحث عن الكسب الطيب الخالص"[1].

فما إن استقر بمدينة بجاية التي" عد من جملة علمائها ومن كبار الفقهاء والأئمة فيها، حتى سطع نجمه وتفتق نبوغه وأصبح مهيبا معظما مكرما، مشهودا له بالخير، وكان أهل زمانه عموما وسكان بجاية خصوصا، يعتقدون أن كل من قرأ عليه ساد ونبغ في العلوم، وانساق إليه العلم والجاه والنعمة والثراء."[2].

ولذلك، كان الآباء لا يترددون في توجيه أبنائهم لحضور مجلسه والإقتباس من معارفه وأسراره، فظهر- رحمه الله تعالى - فضله على كثير من الناس"[3].

بدأت حاله وهو في مدينة بجاية التي كانت مركز إشعاع علمي وثقافي تزداد سموا ورفعة، وكثر فيها طلابه للعلم الذين توافدوا عليه من كل حدب وصوب، يتلقون منه الهداية والإرشاد، وعلى حد تعبير

التادلي في التشوف:"خرج على يديه أكثر من ألف تلميذ،ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة"[4]

وممن تتلمذوا على يديه نذكر:

---

[1] محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ،بيروت،ط1 ،1982،ص 185.

[2] الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، دار الأمة للطباعة والنشر ، ،الجزائر، ط1 ،2004، ص 22

[3] المرجع نفسه ،ص 22.

[4] أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 324.

لأبي مدين شعيب عدد كبير من طلاب العلم ناهيك عن المريدين . "وقال بعضهم أنه تخرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات"[1] وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي (698 ـ 768هـ) في كتابه مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان : " بعض تلاميذ أبي مدين، فقال : " وتخرج به جماعة من أكابر المشايخ الأصفياء، مثل : الشيخ أبي محمد عبد الرحيم القنادي، والشيخ أبي عبد الله القرشي، والشيخ أبي محمد عبد الله الفارسي، والشيخ أبي محمد صاحب الدكالي، والشيخ أبي غانم سالم، والشيخ أبي علي واضح، والشيخ أبي الصبر أيوب المكناسي، والشيخ أبي محمد عبد الواحد، والشيخ أبي الربيع المظفري، والشيخ أبي زيد بن هبة الله وغيرهم من العلماء "[2].

وقال محمد بن عبد الملك المراكشي " وروى عنه أبو أحمد التازي، وأبو جعفر بن السراج، وأبو الصبر أيوب الفهري وأبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني، وأبو علي بن زلال . وقال أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأنصاري : خرج أبو مدين ألف تلميذ، ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة "[3].

" وورث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه " عبد السلام بن مشيش " شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية، وعلى رأسهم أبو الحسن الشاذلي دفين مقبرة الجلاز بمدينة تونس الذي انتشرت طريقته في كل اصقاع بلدان المغرب العربي وغرب أفريقيا "[4].

وممن يستحقون الذكر في هذا المقام، تلميذه محيي الدين بن العربي الذي أخذ عنه كمريد ، واعترف به كشيخ الشيوخ، قوله: " من خمس وخمسين ممن تلقى عنهم، نجد أغلبهم من تلاميذه رحمه الله رحمة واسعة "[5].

---

[1] بوزياني الدراجي ،أدباء وشعراء من تلمسان، ، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011 ، ج2،ص 32 .

[2] مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ،ج3 ،ص121 .

[3] بوزياني الدراجي ،أدباء وشعراء من تلمسان ، ص33 .

[4] يحي بو عزيز ، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2، 2003 .

[5] ابن العربي، روح القدس في محاسبة النفس ،تح، عزة حصرية، مطبعة العلم للجميع، دمشق، 1970.

لقد أجمع الذين ذكروه في كتاباتهم على غزارة علمه، ويكفي أن نعلم في بيان علو كعبه في فهم حقائق الدين ما قاله المحدث الفقيه " عبد الحق الإشبيلي" ، صاحب المؤلفات الشهيرة في حقه لما كان يحضر مجلسه :" هذا وارث علم الحقيقة "[1].

وعن زهده وصلاحه وتقواه أثنى عليه الشيخ العارف أبو البر أيوب بن عبد الله الفهري، وهو الثناء الذي نقله التادلي في التشوف، قوله : "كان أبو مدين زاهدا فاضلا ، عارفا بالله تعالى، قد خاض من الأحوال بحارا ، ونال من المعارف أسرار وخصوصا مقام التوكل، لا يشق غباره ولا تجهل آثاره ، وكان مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم الله له بذلك "[2].

2-المنهج الصوفي لأبي مدين شعيب:

أما منهجه الفكري فيقوم على ثنائية الظاهر والباطن والسلوك والوجدان بدلا من الإعتماد على العقل والإستدلال كما هو الشأن لدى الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة.

يقول الفاضل بن عاشور عن منهجه: " هو منهج التصوف السني القائم على الجمع بين الشريعة والحقيقة، وقد استقاه من إمام الطريقة الصوفية، الشيخ عبد القادر الجيلاني، أما مرجعه في ذلك فكان "كتاب إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي "[3]

استطاع أبو مدين شعيب بمنهجه هذا أن :

أ- يحدد طبيعة ومعالم التصوف الإسلامي:

فالتصوف عنده ليس علما فحسب ،وليس عملا فحسب، وإنما هو علم وعمل، وكلاهما معا يقودان إلى الحصول على الحقيقة، وهو ما يعرف عند الصوفية بالمعرفة والعرفان.

---

[1] الغبريني، عنوان الدراية، ص 73.

[2] أبو يعقوب التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 314-324

[3] الفاضل بن عاشور ،أعلام الفكر الإصلاحي في تاريخ المغرب العربي ،مكتبة النجاح،تونس،ط3،دت،ص 41

اختار في ممارسته للتصوف المنحى السني ، والذي يرمز له بالتصوف السني عوض الإتجاهالصوفي الفلسفي، الذي هو في أحسن الأحوال تصوف الخاصة من الأفراد الذين تعمقوا في تفسير الوجود من خلال التحدث عن الحقائق، التي لا تدركها العقول.

التصوف الأسمى عنده هو تصوف أخلاقي كما قال لسان الدين بن الخطيب في كتابه روضة التعريف بالحب الشريف : " اشتهر خواص أهل السنة ، المراعين نفوسهم وأنفاسهم مع الله، الحافظين قلوبهم من طوارق الغفلة، باسم التصوف الخلقي... وذكر طائفة من الأسماء منهم أبو مدين شعيب"[1]

التصوف الخلقي هو الذي اعتمده في منهجه كقاعدة لا بديل عنها لتربية الذوق، وزرع كل خلق كريم في الإنسان، فجوهر التصوف عنده قائم على مجاهدة النفس وتطهيرها ، وتحليتها بكل جمال وكمال، التصوف الخلقي الذي يقوم على"أخلاق الفتوة والمروءة والكرم،وحسن المشاعر والتلطف في المعاملات [2]"

صفوة القول، التصوف عند أبي مدين شعيب هو تربية روحية أخلاقية، كفيلة بتوجيه الإنسان نحو طريق الهداية ، والسمو الأخلاقي، والرقي في مدارج السالكين.

هو التصوف الذي سئل عنه أبو محمد الجريري فقال : " الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني "[3].

وعليه فإن التصوف هو الاتصاف و التحلي بصفات الكمال الخلقي وبما يقتضيه الدين ، فيصبح بذلك صفة ملازمة للنفس عملا وفعلا.

ب- الموازنة بين الظاهر والباطن :

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف ، تح: عبد القادر أحمد عطا عبد الستار، دار الفكر العربي، 614-616.

[2] أبو مدين شعيب، المنن الربانية، ص 48.

[3] الطوسي، اللمع، ص45.

حرصا منه على التسنن الكامل قولا وفعلا وحالا بسيرة رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، فقد سعى إلى الربط بين الفقه الظاهر المتمثل في الشريعة وفقه الباطن الذي يظهر فيما يسمى عند الصوفية بالحقيقة، فالطريق إلى الله سبحانه لها ظاهر وباطن ، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة وهذا ما استفاد به أبو مدين شعيب من أئمة التصوف الذين أكّدوا على علاقة التلازم بين الشريعة والحقيقة ومنهم شيخه القشيري الذي يقول : " الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده. والشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر "[1].

والواقع أن أبا مدين ، بجهوده الدائبة من أجل إحياء البعد الباطني من الإسلام، استطاع أن يكسب مشروعية الوجود للتصوف السني المعتدل في البيئة المغاربية ، فلقد تمكّن من الجمع بين الشريعة والحقيقة في تصويره لحقائق التوحيد، فأضفى على التصوف الطابع الذي يقره الفقهاء ،ونذكر من أقواله:

"من اكتفى بالكلام في العلم دون الإتصاف بحقيقته فقد تزندق وانقطع ومن اكتفى بالتعبد دون فقه، فقد خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر وانخدع ومن قام بما يجب عليه من الأحكام تخلص وارتفع"[2].

تعد الممارسة الصوفية عند الولي الصالح أبي مدين شعيب في جوهرها تجربة روحية مفعمة بصدق العاطفة وإخلاص التوجه إلى الله وعمق الإيمان ، وفي هذا يقول: " من اشتغل بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذلّ ".

وحذّر من الميل إلى غير الله بقوله : "إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك لذّة مناجاته ".

[1] القشيري، الرسالة القشيرية، ص 148.

[2] أبو مدين شعيب، المنن الربانية، ص 54.

التجرد من علائق الدنيا وشهواتها هو منطلق أبي مدين شعيب في رحلته الروحية، ومن هنا كان لهذه التجربة طابعها العملي السلوكي التي تجلى فيها البعد الأخلاقي تجليا واضحا.

يمكن القول في النهاية بأن طريقة أبو مدين في التصوف تتميز بتوجهها الأخلاقي واهتمامها بالجانب العملي والسلوكي ، دونما تغليب لحقائق المعرفة الصوفية أو اعتداد بما يسمى بالكرامات السنية، وإنما بما يفيد تقرب المسلم من ربه وما تقتضيه أحوال عيشه، ولذلك يقول: " إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات وتتخرق له العادات فلا تلتفتوا إليه، ولكن انظروا إليه كيف هو عند الأمر والنهي"[1].

رابعا: مؤلفات أبي مدين وآثاره :

خلّف الشيخ أبو مدين مصنفات نثرية قليلة جدا بالرغم من علمه الغزير، ولعل السبب في ذلك كونه رجل دعوة وارشاد، وليس أديبا، كما كان تلميذه بن عربي، كما تخرج على يده ألف شيخ .كما سبق وذكرنا .، فلا عجب إن لم تكن له مؤلفات كثيرة أو لم يسلك التأليف الأدبي، بالرغم من أنه أهل لذلك لما كان له من مؤهلات علمية ومعرفية كثيرة، فعدد مؤلفاته قليلة وأكثرها عبارة عن مخطوطات لم يتم تحقيقها بعد ومن بين هذه المصنفات :

1. أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد : ذكره حاجي خليفة، اسماعيل البغدادي، وقد شرحه شهاب الدين أحمد بن عبد القادر المعروف بباعشن وسماه " البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد " [2] .

[1] أبو مدين شعيب، المنن الربانية، ص 54.

[2] ابن عطاء الله السكندري عنوان التوفيق في أدب الطريق،جمع وتعليق: عماد الدين عبد القادر عيسى، دار الغزالي للطباعة والنشر، حلب، ط1، 2001، ،ص 23 .

وقد قام بشرحه العلامة " شمس الدين بن هلال الدمشقي"، المتوفي سنة 1004 هـ في مؤلف بعنوان " فتح الملك المجيد في شرح رسالة أنس الوحيد " ويحتوي هذا الكتاب على حكم الشيخ أبي مدين وبعض أشعاره الصوفية [1].

وقد ذكر المستشرق " بروكلمان " في كتابه تاريخ " الأدب العربي " وجود مخططات من بينها : مخطوطة بمكتبة برلين بعنوان حكم، ونسخة بالمكتبة الوطنية بباريس، ونسختين بمكتبة الاسكريال بمدريد، ونسخة بمكتبة القاهرة [2].

2. مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب، ذكره الزكلي في الأعلام، وتوجد مخطوطة في شستريتي[3].

3. تقييد التصوف وآداب خدمة الشيخ، مخطوط محفوظ في مكتبة عبد الله قنون بطنجة، يقع في أربع ورقات [4].

تحفة الأريب ونزهة المريد، أورده " الفريد بيل " ضمن مراجعة في كتابه " الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي "، ترجمة عبد الرحمن بدوي [5].

5. رسالة في التصوف، توجد نسخة منه مخطوطة بدار الكتب الظاهرية، وقد كتب هذه الرسالة إلى الشيخ الصالح أبي محمد عبد العزيز جوابا عن رسالة منه كان قد بعث بها إليها، فقال : " أما بعد فإنّه من اتقى الله سبحانه وقاه، ومن توكل عليه حق التوكل كفاه، ومن استعاذ به نجاه ،ومن شكره والاه، ومن اقرضه جازته، واجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنّه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له " [6].

---

[1] محمد الطاهر علاوي ،العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب،ج1 ،ص28 .

[2] حسين فارسي ، أبو مدين شعيب، ص 151 .

[3] محمد الطاهر علاوي ،العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ص 29 .

[4] المرجع نفسه، ص 29 .

[5] المرجع نفسه، ص 29 .

[6] د. محمد مرتاض ،من أعلام تلمسان مقاربة تاريخية فنية، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 32 .

6. عقيدة أبي مدين : توجد مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس، ويعالج فيها الشيخ أبو مدين العقيدة الإسلامية الصحيحة التي تؤمن بالتوحيد والذات الالهية .

أما فانست ج. كرنال فقد أشار إلى وجود مخطوطة في المكتبة الوطنية بمدريد [1].

7. خطبة وعظية : نقلها عبد الله قنون في النبوغ المغربي . يقول فيها : " عباد الله لئن كانت ذنوبنا كثيرة ومساوئنا خطيرة وسيئاتنا أربت عن الحصى وموبقاتنا حلّت عن العدّ والإحصاء ولئن قلّت في الصالحات أعمالنا وطالت في الخبائث آمالنا واتبعنا هوانا فظهرت منّا القبائح ...فرحمة ربي تسع الجميع وفضل مولانا وافر يعم العاصي من خلقه والمطيع " [2] .

8. حكايات في التوحيد: مؤلف بعنوان "حكايات في التوحيد". وقد أبرز آراءه في المعرفة والتوحيد، وقد نقل هذه الحكايات تلميذه "عبد الله بن الأستاذ المزوزي، وقام بنسخها الحاج ابراهيم خليفة والنسخة الخطية موجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة [3]

9. بداية المريد : وفيه يبين صفات الشيخ الصوفي وخصال وأعمال المريد .

وقد قسم الشيخ أبو مدين كتابه " بداية المريد " إلى أبواب وهي كالتالي :

. باب في السماع وحقيقته.

. باب لباس المرقعة والشهرية والفرجية.

. باب في خدمة المشايخ.

. باب في التوبة.

---

[1] حسين فارسي، أبو مدين شعيب، ص 157 .

[2] شاوش الحاج محمد بن رمضان ، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسانعاصمة دولة بني زيان، ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص465 .

[3] حسين فارسي، أبو مدين شعيب، ص158 .

وقد اهتم بهذا المخطط "فانست كرنال" إذ قام بترجمته إلى اللغة الإنجليزية وقد عثر على هذا المخطط، أثناء ترجمته، في المكتبة العامة بالرباط، كما يشير إلى أن هذا المخطوط موجود ضمن رسالة التصوف في المكتبة العامة بالرباط، وفي مخطوط آخر بالزاوية الحمزاوية، وقد قام بدراسة هذا المخطوط الصوفي الجليل الشيخ أبو محمد صالح بن ينصارن المقري "[1]

10. حزب أو حرز أبو مدين شعيب : توجد منه نسختان مخطوطتان، أحدهما محفوظة في مكتبة بايزيد بإسطنبول، والأخرى محفوظة في المكتبة السليمانية بإسطنبول [2] .

وهناك من يذكر أنّ له حزبا واحدا يقع في خمس صفحات، وهذا الحزب موجود في مخطوط جمع عدّة أحزاب لصوفية آخرين [3].

11. وصية : مذكورة في دائرة المعارف الإسلامية [4].

و مما تجدر الإشارة إليه أنّ بعضهم تناولوا هذه الكتب بالشرح وخاصة كتابي " أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد "، وكتاب " عقيدة ". وقام بشرح كتاب " أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد " "البيومي" في كتاب أسماه " الأسرار الخفية الموصلة إلى حضرة العلية "، وهي مخطوطة موجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، يقول في مستهله " الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى علي البيومي الشافعي مذهبا " هذا شرح لطيف لحكم العارف بالله تعالى سيدي شعيب أبي مدين التلمساني، وسميته بالأسرار الخفية إلى الحضرة العلية"[5].

---

[1] المرجع السابق، ص156 .

[2] السكندري ، عنوان التوفيق في آداب الطريق، ص24 .

[3] حسين فارسي ، أبو مدين شعيب، ص 158 .

[4] السكندري ، عنوان التوفيق في أدب الطريق، ص26 .

[5] حسين فارسي ،أبو مدين شعيب، ص 160 .

.كما قام بشرح هذا الكتاب " ابن علان شهاب الدين بن ابراهيم " في كتاب سماه " شرح حكم الشيخ سيدي أبي مدين" .

يقول في مقدمة الكتاب : " ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين "، " اللهم اجعل ظاهرنا مزيناً بالشريعة وباطننا محلى بالطريقة كي تشرق علينا أنوار الحقيقة " . "وقام بكتابة هذا الشرح محمد جاد القماش الأشهوني المالكي، لكن هذا الشرح لم يطبع حتى الآن، وتوجد مخطوطة بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة، وأخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة"[1].

و قام بشرح هذا المصنف أحمد محمد بن عبد القادر المعروف ب "باعشن" في كتاب سماه " البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد "، ويستهل هذا الكتاب بقوله : " بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله العلية ذاته، المجيدة صفاته، القديمة اسماؤه وآياته، الظاهرة أفعاله، الباهرة أنواره، المتصرفة أقداره، الممكنة معانيه، لما خلق من مبانيه، فسبحان من لا أرض ولا سماء تكتنفه وتحويه، ولا عطلت منه كما هو في كل شيء من الأشياء فيه " [2] .

أما كتاب " عقيدة " للشيخ أبي مدين، فقام بشرحه شمس الدين محمد بن أبي اللطف عام (957هـ /1550 م) وسماه " العقد الثمين في شرح عقيدة العارف أبي مدين " وقد تولى تدوين هذا الشرح " أحمد بن السيد محمد الحسني المقدسي " سنة 1087 م، ولم يطبع هذا الشرح، ولكن توجد مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، يقول الشيخ في بداية هذه المخطوطة:"الحمد لله الذي أسس عقائد أوليائه على أثبت قواعد، وقدّس معاقد أصفيائه عن قول حاد "[3].

كما شرح الكتاب الشيخ عبد الغني إسماعيل النابلسي وسماه " القول الأبين في شرح عقيدة أبي مدين " وتوجد مخطوطة لهذا الشرح بدار الكتب المصرية بالقاهرة، ويستهل قوله : " الحمد لله الذي خلق

---

[1] المرجع نفسه، ص 161 .

[2] أحمد بن عبد القادر باعشن ،البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد، ، تح: المزيدي، دار الكتب العلمية، ، بيروت، لبنان، ط1 ،2005، ص02 .

[3] حسين فارسي ، أبو مدين شعيب، ص163 .

عبيده من أجل معرفته وتوحيده، وليفرقوا بين وجودهم ووجوده، ويعلموا مزية انعامه وجوده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه " [1] .

نلاحظ أن هذه المخطوطات تحتاج إلى مزيد من الشرح والتحقيق، وقد إهتم الأجانب بالجانب الصوفي ك " فانست كرنال " وبروكلمان "، فعلى الباحثين والدارسين العرب أيضا القيام بالمبادرة في الشرح والبحث والتحقيق عن آثار الشيخ التي بالفعل تستحق ذلك لما خلفه من علم صوفي وزاد معرفي فخم لأنه من المؤكّد قد ترك غير هذه المخطوطات المذكورة، فيجب الإعتناء بهذا التراث الصوفي الخاص بشيخ الشيوخ وأحد أهم الأكابر والساداة " سيدي أبي مدين شعيب "، وجمعه في كتاب واحد يضم أعماله النثرية والشعرية من أجل إثراء مكتبتنا العربية والتي ستضفي طابع من الرقي الحضاري العربي الإسلامي.

. التوحيد عند أبي مدين :

كان مذهب أبا مدين يتمثّل أساسا في " الفناء في التوحيد " وذلك لما إمتاز به من علم وأسرار أهلته لمرتبة القطبية والغوث والمشيخة ، وهذا السر الإلهي يحمل في طياته دلالات توحيدية خصها الله بأبي مدين وقد جمع تلميذه " بن عربي " في بعض مؤلفاته أقواله وكلامه تناقلها المريدون .

سئل عن التوحيد فقال : " التوحيد الحكم بأنّ الشيء واحد والعلم بأنّه واحد، وفي اصطلاح أهل الحقيقة تجريد الذات الإلهية عن كامل ما يتصور في الأفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان . التوحيد همّتي، وهي شريعتي وسنّتي، التوحيد هو الغاية القصوى، والملجأ والمأوى، هو الأساس الذي قام به الوجود،

[1] المرجع نفسه، ص163 .

وعليه فطرة كل مولود، لكن النّاس فيه على مراتب، فمنهم القريب، ومنهم الصاحب، فالمرتبة العليا هي الترقي من الأسماء والصفات إلى توحيد الذات، هنالك أفنيت عمري، وأتعبت خاطري وفكري إلى أن تلت منه المعنى، ولاحظت ذلك الجمال الأسني وذلك من الله سبحانه ابتداء وانتهاء ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[1] " [2] .

و سئل عن الوصول، فقال : "إذا دلّك به عليه كنت منه وإليه، وإذا أفناك عن الإحساس كنت في حضرة الإيناس (ضد الإيحاش أي الوحشة) وإذا كاشفك بحبه لم تتلذذ إلا بقربه، وإذا غيبك عن شهودك تجلى لك من وجودك"[3] .

وعن أبي مدين وأبي حامد الغزالي روى بعض الفقراء : سئل أبو مدين عن سر معرفته ومحبته، فردقائلا: المحبة مركبي، والمعرفة مذهبي والتوحيد وصولي، للمحبة سر لا ينكشف، وإدراكات لا يعبر عنها، ولا يو صف سرها، ومنبعها وأصلها الجود العلي، فهي للخواص سنة مسنونة، دلّ على ذلك قوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[4].

"فالمعرفة فخري ، والمعرفة هي معرفة الله تعالى حق معرفته، وهي قاعدة سري وأمري ثمرتها التوحيد"...[5]

وسئل عن التنزيل فقال: " نزهت (أي أُبعدت عنه كامل ما لا يليق به سبحانه وتعالى مع إطلاق التعظيم) الحق بما نزه به نفسه، وحمدته حمد ما به قدّسه، ومجدته تمجيد من كان معناه وحسه، فهو محرك للظواهر ومعلن العلانية، ومسر السرائر، فسره لسري لاح وتحفة تغمرني في المساء والصباح، إن

---

[1] سورة فاطر، الآية 2 .

[2] ابن عربي ، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ،دار اليقظة العربية ،1970، ج 2،ص 257 .

[3] المرجع نفسه، ص 54 .

[4] سورة المائدة، الآية 54 .

[5] ابن عربي ، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار، ج1، ص 326 .

نظرته وجدته معي، وإن تحققته كان بصري ومسمعي، فهو الممد لوجودي، ومقلّب قلبي، وناصر وجودي، فحياتي بحياته ظاهرة، وصفاتي بصفاته مطهرة، وخلقي بأخلاقه متخلقة، أمدّني بتوحيده، وملأ ظاهري وباطني بجلاله وتمجيده، ثم قال يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد جمل ناظري بالنظر إليك غدا " [1] .

. قال بعض الصالحين : رأيت في الواقعة أبا مدين وجماعة من الصوفية فقالوا للشيخ : زدنا في التوحيد شيئا ؟ فقال : التوحيد هو النور الذي منه مادة كل نور، وما عداه فأغشية وستور، هو الساتر والمستور، وهو الأصل في كل الأمور، مادته لكل زائد وناقص، وما تفرق في الوجود فهو عنده واحد ...وكل ما سوى الحق عنه مرفوض، ركن إلى الحصن المنيع فآواه، ودق نظره في معرفته فتمعنه بمعناه، فنودي في حضرة مولاه : "وحدني فإني أنا الله "[2].

رأى بعض الفقراء في الواقعة الشيخ أبا مدين، وبعض الصوفية، فسأله عن همه فقال : " همتي به متعلقة، وحقيقتي بنور جلاله مشرقة، حضرته موضع أنسي، وملاحظة جماله غمرت حسي، فالمحسوسات متحركة بأمر الأمراء، والأمر صادر عن حكم القادر، فأحكامه سبحانه جارية على وفق سابقته في خلقه، على حكم ما قدره في الأزل ..."[3].

قال بعض المريدين في الواقعة : "رأيت أبا مدين وجماعة من الصوفية فقالوا لأبي مدين : تكلم لنا في شيء من التوحيد، فقال : التوحيد هو الحق، وإليه الملجأ لأهله، وبه النجاة، هو السر الخفي، به ظهرت الأسرار، وهو الشمس المشرقة، ومنه ينابيع الأنوار، وهو قطب العارفين، وهو الدليل، ومبرئ الأسقام، وشفاء كل عليل، هو الظاهر فما سواه حجابه، فمن كان ذا بصر جاوز أبوابه، كشف له عن ملكه،

---

[1] المرجع نفسه، ص326 .

[2] المرجع نفسه ،ص 157. 158 .

[3] ابن عربي ، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار، ج1، ص 393 .

فعاين سلطانه، وعينه به عنه، فعظّم شأنه ... امتاز به عن سائر الخلق، فواصلته واجلسته في حضرته الحق، اخصته بالعلوم الأزلية العجيبة"[1] .

وفي الحقيقة التوحيد في ديننا الحنيف، هو نفي وجود أي اله مع الله ، ونفي الشبه بين الله وخلقه ،فهو واحد أحد، فرد صمد،لا شريك له يتصرف في ملكه كيف يشاء ،لا يسأل عما يفعل، لا عن ارادته شيء، فهو الفعال لما يريد ، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يحده زمان ولا مكان، بل الزمان والمكان من خلقه وتدبيره.

و"رأى بعض المريدين في الواقعة أبا مدين، وقد استوى في الهواء ومعه أبا حامد الغزالي، فقال الشيخ: يا أبا حامد السر بالله ناظر، والروح يتلفق منه الأوامر، والقلب للسكينة والساكن، والعقل حكم حاكم، والنفس تحت قهر القاهر، والحق به ظهر الوجود وهو الواحد المعبود ،(أي سورة الفاتحة).

ثم قال يا أبا حامد إذا تلاشت المعاني فإقرأ السبع المثاني، فإنّك تراه كما لم يزل وأنت كما لم تكن ... فقال أبو حامد لأبي مدين : كيف مادة الله للسر ؟ .

فقال له الشيخ : "اسمع إن نظرت به وجدتهما معا لم يفترقا ولم يجتمعا، ثم قال له : فالسر ما هو، فقال: هو خزانة النظر، قال له : والروح : قال : هو خزانة النظر، قال له : والقلب، قال : هو خزانة الفكر، قال : والعقل، قال: هو خزانة العدل والعلم، قال : والنفس، فقال : هو خزانة الأرض، ثم قال الشيخ : يا أبا حامد على هذا صنعه، وكل مفترق جمعه"[2] .

هذا بعض ما قاله في التوحيد، فكلها مصطلحات صوفية لا يعرفها ولا يفقهها إلا أصحابها الذين غاصوا في بحار التصوف وعرفوا مقاماته العلية وذلك بمجاهداتهم وتفرغهم للعبادة وطلبهم لعلوم الباطن

[1] المرجع نفسه، ص171

[2] ابن عربي ، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ،ص 300. 301 .

ففهموها وعملوا بها فارتقوا بذلك مراتب عالية مثل رتبة القطب والغوث التي حصلها شيخ الشيوخ أبي مدين فكان أهلا لهذه الرتبة لما كابده من مشاق في طريقه للوصول إلى الله .

وكان يدعو إلى التعبد وترك حرفة الكسب . فقيل له : لمَ لا تحترف والأكل من الكسب، فقال : " الضيف عندكم إذا نزل بقوم وعزم على الإقامة كم توقيتَ زمان وجوب ضيافته عليكم ؟ قالوا ثلاثة أيام، قال : وبعد الثلاثة أيام، قالوا يحترف ولا يقعد عندهم حتى لا يحرجهم، فقال لهم : لو أنّ الضيف في تلك الأيام التي نزل فيها ضيفا أكل من كسبه أليس هذا عار، قالوا نعم، فقال الشيخ : الله أكبر ؟ انصفونا، إنّ أهل الله رحلوا عن الخلق ونزلوا بالله أضيافا عنده، فهم في ضيافة الله، فنحن أضياف ربنا تبارك وتعالى، نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد فتعينت الضيافة، ثم قال : وأيام ربنا كما قال تعالى : ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[1] "[2].

فكلامه كله لله وعباراته تدل على نفسه الصافية التي امتلأت (بنور خالقها) بالأنوار والإيمان والحب الإلهي، فاليوم بألف سنة، بمعنى أن الإنسان يموت، وتبقى أيامه عند الله من الضيافة، إذن لا داعي للجري وراء الكسب والعمل،لقوله تعالى﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ(7)وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(8)﴾[3].

فإذا فرغت من الأكوان " فانصب " قلبك لمشاهدة الرحمن " وإلى ربك فارغب "في الدوام، وإذا دخلت في العبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها، وقال : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[4] . وفهمه من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكان يقول إذا سمع من يتلو هذه الآية ﴿وَمَا

[1] سورة الحج، الآية 47 .

[2] محمد الطاهر علاوي ،العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ،ج1 ،ص 97 .

[3] سورة الشرح، الآية 8.7

[4] سورة الحاقة، الآية 27 .

﴿أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، "القليل الذي أعطيناه ماهو لنا بل هو معار عندنا والكثير منه لم نصل إليه، فنحن الجاهلون على الدوام"[2].

و كان رضي الله عنه يقول لأصحابه : (قل الله ثم ذرهم) [3] . وكان يقول لأصحابه " أعلنوا الطاعة لله حتى تكون كلمة الله هي العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصي والمخالفات والمنكرات ولا يستحيون من الله" . وفي رواية " أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، فاظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة . يعني خرق العوائد . والباطنية . يعني المعارف" [4].

فإنّ الله يقول : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [5].

هذا هو الشيخ وهذه هي نفسه الزكية العظيمة التي تعج بالسر الإلهي وهكذا كان سيره إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، متأدبا في معرفته والتقرب منه، وذلك بطلب العلم أولا وبالعمل والمجاهدة ثانيا ،و بنشره لهذا العلم اللدني الرباني بتواضع وبصبره على خلق الله وتوجيههم وإرشادهم نحو الطريق إلى الله، حتى آخر نفس له وهو يذكر الحق تعالى .

. **علمه الوافر :**

زيادة على ذلك فقد تميز وعرف بحل المسائل، والإجابة على كثير من الأسئلة العالقة والتي استعصت على كثير من العلماء والفقهاء، فأتى بأروع التأويلات " ذكر بعضهم أنه وقع نزاع بين الطلبة في قوله صلى الله عليه وسلم " إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة فتردد الكلام بينهم في أن مؤمنين إذا ماتا استحقا الجنة بكاملها، فصاروا إلى مجلس الشيخ أبي مدين ليطّلعوا على ما عنده في المسالة فوجدوه

---

[1] سورة الإسراء، الآية 85 .

[2] محمد الطاهر علاوي ،العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ،ص100 .

[3] سورة الانعام، الآية 91 .

[4] محمد الطاهر علاوي ،العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب،ص102 .

[5] سورة الضحى، الآية11 .

جالسا يقرأ رسالة القشيري، فلماّ استقر بهم الجلوس سكت الشيخ أبي مدين عن الكلام الذي كان فيه وقال : نُزِيل الإشكال عن أصحابنا، من غير أن يسألوه، فقال لهم : إنّما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف جنّته، لأنّ لكل مؤمن جنّة تخصه، فإذا مات أعطي نصف جنّته وبعد الحشر يعطى النّصف الثاني، ثم زاد في هذا الكلام، وتكلم كيف يكشف للمؤمن عن مقعده في الجنة، وتنعمه بتلك الرؤية، واتّصال الأرواح وغير ذلك ممّا فتح الله عليه "[1].

من خلال إجابته وتأويله البارع يتضح علمه الغزير وهذا ما سيكتشفه المطّلع على كتب التصوف التي تناولت هذا الشيخ الجليل والتي تعج بالكثير من هذه المسائل .

. كراماته :

و مما يدل على علو مكانته وعظيم شأنه كراماته التي عرف بها والتي بدأت تظهر منذ كان صبيا، وقد ذكر التادلي وغيره من المؤرخين أن رجلا " جاء إلى الشيخ أبي مدين ليعترض عليه فأراد القارئ عليه الكتاب فسكّته أبو مدين وقال له : اسكت، ثم التفت إلى الرجل وقال له لِمَ جئت ؟ فقال له الرجل جئت لأقتبس من أنوارك، فقال له ما الذي في كُمك ؟ فقال له مصحف، فقال له أبو مدين أخرجه ! فأخرجه من كمّه، فقال له : اقرا اول سطر .ففتحه وقرا أول سطر منه فإذا هو قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

فقال له أبو مدين : " أما يكفيك هذا ؟ "[3].

---

[1] ابن قنفد أبو العباس أحمد القسنطيني ،أنس الفقير وعز الحقير ، اعتنى به وصححه: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص 17 .

[2] سورة الأعراف، الآية 92 .

[3] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 325 .

ومن الكرامات التي تروى عن الشيخ " أنّه دخل يوما في بعض سياحته على عجوز في مغارة، فأقام عندها، فجاء ابنها آخر النهار فسلّم عليه فقدّمت العجوز سفرة فيها صحن وخبز، فقعد الشيخ والابن يأكلان فقال الابن : تمنيت أن لو كان هذا كذا . فقال له الشيخ سم الله وكل ماتمنّيت، فلم يزل يعدّالتمني وهو يقول مقالته الأولى، واللون الواحد ينقلب ألوانا كثيرة، ويجد طعم ما تمنى " [1].

ومما يدل على علو مرتبته وشأنه العظيم ما رواه الشيخ العارف ابن عربي أن الشيخ " إذا خطر له خاطر في نفسه يجد جوابه مكتوبا في ثوبه الذي عليه، فخطر له يوما أن يطلق إمراته وكان بحضور العارف " أبي العباس الخشاب "، فرأى مخطوطا في ثوب الشيخ (أمسك عليك زوجك)[2] .

هذه بعض الكرامات التي تميز بها شيخنا وهي ـ كما سبق الذكر ـ كثيرة لكن الوقت لا يتسع لسردها كلّها، ويكفينا أنه ما يظهر ولاية الشيخ علو مقامه .

والكرامات التي يتمتع بها الأولياء لا نستطيع نكرانها وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، على عكس ما ينكره ويشكك فيه البعض فيردونه إلى ضرب من السحر والشعوذة وإلى تخيلات وهلوسات، بل إلى أمراض نفسية تصيب المريدين .

والكرامة كما يقول "ابن قنفذ" " ليست من شرط حصول الولاية فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت من ولي فهي دالة على صدق عبادته وعلو مكانته بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام، وإلا فهي خذلان من الشيطان "[3].

---

[1] محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ص 40، نقلا عن : يوسف بن إسماعيل النّبهاني ،جامع كرامات الأولياء، دار الكتب العربية الكبير، مصر، ص 99 .

[2] ابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، ص 03 .

[3] ابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير ، ص 04 .

بمعنى أنه ليس كل الأولياء تحصل معهم الكرامة، وأنه ليس كل من ظهرت له كرامة يعتبر ولياً، وعليه " لا يستدل على الولاية بالكرامة لإحتمال أن تكون من الشيطان، وإنما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية . و لا ينكر الكرامة إلا معاند محروم سيء الإعتقاد ،كثير الإنتقاد " [1].

إذن الكرامة الحقّة هي التي يهتدي بها الضال العاصي إلى طريق الإستقامة، وبذلك تعينه على دينه ومجاهدة نفسه، وضبط سلوكه، ولا تصدر إلا عن ولي طائع محب لله تعالى . " فمن امتثل أوامر الله تعالى واجتنب نواهيه ورزق الخوف منه، لا من خَلْقه، واجتهد في طاعته جل وعلا وبحث عن كسبه ووقف عند حدوده ورجع عن كل ما لا يعلم حكمهَ فهو صالح وأعلى درجة من هذا حصول الورع التام وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن التمسك بها،والفرار من دواعيها ومن أهلها والقناعة باليسير منها، ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله... " [2].

لقد ارتقى أبو مدين بجهاده إلى أعلى المقامات وتحلى بالأخلاق والصفات التي استحق بها لقب القطب والولاية، فمنذ نشأته تميز " بصفات جليلة قلّما تتوفر في خواص الخليقة ومنها ايثار الحق على النفس والإلتزام بميزان الشرع والغيرة على حرمة الدين ومقدساته، فكان يقول لأصحابه: " أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما هؤلاء بالمعاصي ولا يستحون من الله "[3] .

وكل هذا فضل من الله خص به شيخنا في وصوله إلى أعلى المراتب، واستعداده إلى التحلي بالصفات الربانية وحبه لطلب العلم ومجالسة العلماء وممارسة التربية والتعليم .

. ثقافته ومنزلته الصوفية :

بعدما أخذنا لمحة عن شيوخ سيدي أبي مدين وتأثيرهم في تكوينه الصوفي ،نتحدث الآن عن ثمرة ذلك التكوين من خلال ثقافته الصوفية.

---

[1] المرجع نفسه، ص 04 .

[2] المرجع نفسه، ص 04 .

[3] محمد طاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ص31 .

كما أشارت المصادر التي اهتمت بترجمته بأن بلاد الأندلس والمغرب العربي لم تعرف خلال القرن السادس الهجري مربيا أو مرشدا حصل له من رجوع الناس إليه كما حصل للشيخ أبي مدين، فقد رزق من حسن القبول ، وقوة التأثير ، وعلو الهمة مبلغا عظيما، هو بكلمة جد مختصرة أحد أقطاب التصوف الإسلامي ببلاد المغرب والأندلس، وأحد الأعلام الأفذاذ الذين وازنوا بين الشريعة والحقيقة وأصلوا للتربية الصوفية من القرآن والسنة.

وفي هذا السياق يذكر عبد الحليم محمود في كتابه : " شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث – حياته ومعراجه إلى الله – "، مبرزا مكانته العلمية الرفيعة : " لقد تثقّف سيدي أبو مدين كأحسن ما يكون المثقف، تثقف من مصادر أصلية : القرآن الكريم، والسنن، والإحياء، والرعاية، والرسالة القشيرية، وكان يصاحب في دراسته القمم : السنة النبوية ، والحارث المحاسبي، وحجة الإسلام، والإمام القشيري، وقد درس الفقه أيضا، وله فيه فتاوى نفيسة ،ودرس التفسير، وامتزج قلبه بنور القرآن، وكان عابدا، فاجتمع له العلم والعبادة ، فكان الشخصية الإسلامية المتكاملة ، فلقد كان متفننا في علوم الإسلام المختلفة، نقليًّا وعقليًّا ، ولم يبلغ منزلة الشيخ إلا بعد جهد مضن ، في ركني المشيخة : العلم والعبادة "[1].

وعن هذه المنزلة ، يقول أيضا الغبريني في عنوان الدراية، هو: "الشيخ الفقيه ، المحقق الواصل القطب، شيخ مشايخ الإسلام في عصره ،إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد... فتح الله عليه بمواهب قلبية وأسرار ربانية، استفاد منها بالتوجه والعمل وارتقى إلى غاية ما يؤمل "[2]

وبفضل ما عرف عنه من الإستقامة والصلابة في الدين والحرص على اتباع السنة النبوية في الأقوال والأفعال والأحوال، فقد ذكره ابن تيمية في فتاويه ، وعدّه من "شيوخ التصوف المتأخرين" ووصفهم بقوله :"إنهم مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة "[3]

---

[1] عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ ، أبو مدين الغوث ، ص46.

[2] أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص 56.

[3] تقي الدين أحمد بن تيمية ، مجموعة الفتاوى ، تحقيق ،علي بن عبد العزيز الشبل، المجلد السادس، الرياض، ط1، 1416هـ،ص 302-301.

يقول عنه صاحب أنس الفقير: " ارتبط أبو مدين بعلاقة أخوية خاصة مع الفقيهين الكبيرين عبد الحق الإشبيلي وأبي علي المسيلي، وهما معا من أفاضل رجال بجاية، وهما اللذان قصداه للتأكد مما يشاع عنه من كلام لا تحتمله كل الفهوم، وكان عبد الحق الإشبيلي يقر له بالسبق في طريق الحق"[1]

كما ذكره تلميذه الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه روح القدس في محاسبة النفس ووصفه بأنه من الأولياء وأهل طريق الله الذين قابلهم في حياته حيث سمع منه رضي الله عنه قولا استفاد منه كمريد أولا وكشيخ ثانيا: " لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد، هذا مقام المريد، فما ظنك بالعارف، هل يعرج على كلام غير كلام سيده ؟ "[2]

لقد اطلع كما أشرنا على مصادر أصيلة أهلته للإرتقاء إلى مرتبة الشيخ ومن بينها القرآن الكريم، السنن، الإحياء، الرسالة القشيرية، الفقه، والتفسير وكان إنسانا عابدا وبذلكاكتملت شخصيته الإسلامية، وهكذا وصل إلى درجة المشيخة بفضل عزيمته الصادقة التي ميزته، وبفضل توفيق الله سبحانه وتعالى " وما توفيقي إلا بالله "[3].

وقد وفق الله شيخنا للوصول الى منزلة الأصفياء، الأتقياء أهلته ليكون مرشدا وموجها وداعيا إلى الحق، يقول تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[4].

---

[1] ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير،ص 102

[2] محمود محمود الغراب، شرح رسالة روح القدس في محاسبة النفس، من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ،مطبعة خضر ، دمشق، ط2، 1994 ، ص 39

[3] عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، ص 29 .

[4] سورة الأحزاب، الاية 39 .

وهي صفة تفرد بها الصوفي، والذي عرف ربه وجاهد في سبيله وخشيه ولا يخشى غيره، يقول تعالى: ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وكانوا في نفس الوقت يدعون بالحكمة والترفق أحيانا بالعاصي والمبتعد عن الله، يقول الحق سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[2].

من خلال ما تقدم يظهر جليا أن أبا مدين كان متمكنافي العلوم الإسلامية، بالرغم من ظهور وتطور تيار العلوم الكلامية والفقهية في عصر الموحدين . وبالرغم من ظهور مذاهبهم في بلاد المغرب إلا أن الشيخ أبي مدين لم يتأثر بعلومهم، بل كان مهتما بعلم التصوف وساعده في ذلك شيخه "أبو يعزى"الذي أوصله إلى منزلة الصوفي وذلك بعكوفه على العبادات والمجاهدات من صيام وصلاة وابتعاد عن ملذات الدنيا والتقشف الشديد الذي لم يكن عائقا في وجه شيخنا، إذ لم يجد صعوبة في التخلص من هذا العالم ومن ملذاته الزائلة، فجاز جميع المقامات والمراتب حتى بلغ رتبة " القطب"و"الغوث "[3].

وهكذا عرف أبو مدين بشيخ المشايخ، فكان زاهدا، تقيا، عارفا بالله تعالى غاص في بحار الأحوال فنال أسرار المعارف ..منها " مقام التوكل " قال تعالى :﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[4]، وقال أيضا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[5].

---

[1] سورة المائدة، الاية 54 .

[2] سورة النحل، الاية 125 .

[3] أبو مدين شعيب، عبد الحليم محمود، ص46 .

[4] سورة الطلاق، ص الآية 03 .

[5] سورة المائدة، الآية 23 .

فالتوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لاتنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالىوإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره[1].

فعلى العبد أن يثق بوملاه وبما عنده ،لأن خزائنه ملأى لا تنفذ، وقد ورد ذلك في السنة النبوية، في قوله صلى الله عليه وسلم:" لو أنّكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" (رواه أحمد). ومعنى الحديث أن الطيور تذهب أول النهار خماصا، أي: ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخر النهار بطانا، أي: ممتلئة البطون، فمن ذا الذي رزقها ،المولى عز وجل ، الذي يرزق الخلائق كلها. فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها.

وقد عرف الشيخ أبو علي الدقاق التوكل فقال :" التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى عدوه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه " ويقول:" التوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية .

كما قال أيضا : " التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين "....وكان يقول : التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة ابراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم [2].

وقيل التوكل هو ثقة العبد بما عند الله، واليأس عما هو في أيدي الخلق .

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : " أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدّة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها ".

[1] القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص 162.163 .

[2] القشيري ،الرسالة القشيرية، ، ص 166 . 167 .

وقال ذو النون المصري " التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه "[1].

خامسا. آراء الآخرين في الشيخ أبي مدين :

تعددت الآراء واختلفت في شخصية أبي مدين شعيب، فالكل يقدره ويعظمه ويضعه في مقام عالي، فهو قطب زمانه، وشيخ المشايخ، والغوث إلى غير ذلك من الألقاب التي تليق بولي الله الذي ضحى بالنفس والنفيس من أجل خدمة الدين والقرب من المولى عز وجل، حتى من الله عليه بالكرامات وخرق العادة بما لا يعدّ ولا يحصى بفضل تقواه وورعه .

فالمؤلف أحمد بابا التنبكتي صاحب كتاب " نيل الابتهاج بتطريز الديباج " يقول فيه :" شعيب بن الحسن الأندلسي شيخ المشايخ سيدي بومدين سيد العارفين وقدوتهم الإمام المشهور "[2].

وهذا اعتراف له بالمشيخة والإمامة .

. وقال فيه ابن الخطيب القسنطيني : "كان من أفراد الرجال، ومن صدور الأولياء الأبدال جمع بين الشريعة والحقيقة، أقام هاديا وداعيا للحق، وقصدت زيارته من جميع الأقطار، واشتهر بشيخ المشايخ"[3] .

---

[1] المرجع نفسه، ص164 .

[2] التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ، مح عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكتاب،ط 2 ،2000 ،طرابلس، ليبيا، ص 193

[3] المرجع نفسه، ص 193 .

وقال أبو الصبر كبير المشايخ وقته : "كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، خاض بحار الأحوال ونال أسرار المعارف خصوصا مقام التوكل، لا يشق له غباره، ولا تجهل آثاره"[1].

وقال التادلي فيه :"كان مبسوطا بالقبض، مقبوضا بالمراقبة كثير الإلتفات بقلبه لربه، حتى مات وهو يقول في آخر زمانه :الله الحق.وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي"[2].

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال " سمعت أبا مدين يقول : أوقفني ربي عز وجل بين يديه، وقال له : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ فقلت : يا رب عطاؤك، قال :وماذا عن شمالك ؟ قلت :يا رب قضاؤك ، فقال:يا شعيب قد ضاعفت لك هذا، وعفوت لك هذا فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك "[3].

كما قال فيه الشيخ أبو عبد الله محمد التلمساني في كتابه . النجم الثاقب فيما لأولياء الله في المناقب: "كان الشيخ سيدي أبو مدين فردا من أفراد الرجال وصدرا من صدور الأولياء الأبدال ،جمع الله له علوم الشريعة والحقيقة، وإقامة ركن الوجود، هاديا أو داعيا للحق، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار، واشتهر بشيخ المشايخ "[4].

.كما ذكر صاحب الروض عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : " مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب فرأى أسدا افترس حمارا وهو يأكله، وصاحبه جالس بالبعد في غاية الحاجة، والفقر، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية (رأسه) الأسد، وقال لصاحب الحمار : امسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة موضع حمارك، فقال له الرجل وهو يقود الأسد ،والناس ينظرون إليه فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد وقال لأبي مدين :" ياسيدي هذا الأسد يتبعني حيث

[1] المرجع نفسه، ص 193 .
[2] المرجع نفسه، ص 193 .
[3] المرجع نفسه،ص195 .
[4] المقري ، نفخ الطيب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1369هـ، ص 343 .

ذهبت وأنا أخاف منه كثيرا لا أستطيع معاشرته فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم "[1].

ومما قال فيه صاحب عنوان الدراية الغبريني :" سمعت أنه قرأ حتى انتهى من سورة " تبارك الذي بيده الملك " فظهرت له معالم العلى، وتجلى عن مواهب الله بأحسن الحلي، فكانت تلك السورة سورة منتهاه وغاية مرماه.

اخبرني بعض المشايخ ـ رضي الله عنهم ـ أن الشيخين القاضيين أبا علي المسيلي وأبا محمد عبد الحق الإشبيلي سمعنا عنه أنه متمكن من فنون العلم، وأنه الله كشف له عن سره المدفون، مع أنه لم ينته بالقرآن إلا إلى السورة المذكورة . فكانا يتعجبان، وأرادا الإجتماع معه والإطلاع على ما عنده من أسرار فسارا إليه إلى أحد مسجديه ، فسلما عليه، ولم يكن قد رآهما الشيخ أبو مدين من قبل .فقال لهما : "أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق، وأما هذا فالفقيه أبو علي المسيلي . فقالا : نعم، فسألاه عن نهاية دراسته، ورددا عليه أنّهما سمعا عنه أنه لما إنتهى إلى سورة " تبارك الذي بيده الملك "، لم يزد عليهما فأجابهما قائلا: نعم كانت سورتي فوجدتها سدرتي، ولو تعديتهما لأحرقتني سبحات الوجه الكريم، ثم التفت اليهما مخاطبا بنزعة صوفية، مشيرا بيمينه ويساره وهو يقول : بي قل، وعلي دل،فأنا الكل فانفصلا عنه "[2].

كما يقول صاحب عنوان الدراية عن الشيخ " أبي مدين":" بأنه قد اطلع على كتاب فهرسة "أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني"، بعد ذكره لفضل الشيخ أبي مدين وبعد وصفه بالأوصاف الحميدة، أنه قال ظهر فيه صدق قول الرسول صلى الله عليه وسلم (يموت المرء على ما عاش عليه،

---

[1] المرجع نفسه، ص 347 .

[2] الغبريني ، عنوان الدراية، ، تح : عادل نويهض، الناشر دار الآفاق الجديدة، ط 2،د.ت، بيروت لبنان، ص57.

إذا كان من قول عند آخر رمق : الله حي) قلت هذه الخاتمة حسنى ومرتبة عليا، رحمه الله توفي في نحو تسعين وخمسمائة "[1].

وذكر صاحب الديوان "سيدي العربي تشوار التلمساني" استنادا إلى كتاب الحقائق المصرية لأبي يزيد البسطامي أنه قال"يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيبا لا تدرك له نهاية وقال هو أبو مدين"[2].

وممّا ذكره صاحب البستان ابن مريم :" كان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي، كان قائما عليه، كان يلازم كتاب الإحياء ويعكف عليه وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت وله مجلس وعظ يتكلم فيه فيجتمع عليه الناس في كل جهة، وتمر به الطيور فتقف لتسمع فربما مات بعضها، وتخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ،كان شيخه أبو يعزى يثني عليه ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل "[3].

وقد ذكر عنه شيخه الفقيه الحافظ العلامة أبو الحسن بن غالب أنه قال : " كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس اتخذه مأوى للعمل فإذا خلوت فيه تأتيني غزالة تؤنسني، ،كنت أمر في طريقي بكلاب القرى فيدورون حولي، فبينما أنا ذات يوم بفاس، وإذا برجل من معارفي بالأندس نزل ضيفا علي، فبعت ثوبا بعشرة دراهم وذلك لأعطيهما للرجل الضيف لكنّني لم أجده، فتركتها معي وخرجت على عادتي، وإذا بالكلاب تعترض طريقي وتمنعني من المرور فخرج من صدّهم عني، ولما وصلت لمكاني جاءتني الغزالة على عادتها، فلما شمتني نفرت عني، فقلت ما أتى علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي فرميتها، ولما رجعت لفاس لقيت الأندلسي فدفعتها له، فدار بي كلابها وجاءتني الغزالة فشمتني من مفرقي إلى قدمي وآنست بي" [4].

---

[1] المرجع نفسه، ص 57

[2] الديوان ، ص 11 .

[3] ابن مريم ،البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية، 01. 86، الجزائر ، ص 108 .

[4] ابن مريم ،البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ص 109 .

و قال أبو العباس المرسي :" جلت في ملكوت الله فرأيت سيدي أبا مدين متعلقا بساق العرش وهو يومئذ رجل أشقر أزرق العينين وقلت له ما علومك ؟وما مقامك؟فقال علومي واحد وسبعون علما ،وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال" [1].

و قال الشيخ العارف محي الدين أبو بكر بن العربي الهاشمي الطائي المعروف بابن سراقة "أن الشيخ "أبا مدين" ـ رحمه الله تعالى ـ لم يمت حتى تقطّب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات"[2]. والقطبية هي أعلى الدرجات وهي مبتغى العارف .

و قال أحد الأولياء ـ "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ـ في النوم معه أبو مدين وأبو حامد الغزالي ـ رضي الله عنه ـ فسأل أبو حامد الغزالي والشيخ أبا مدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ما روح الروح ؟ فقال: أبو مدين المعرفة، فقال له : وما روح المعرفة ؟ قال : اللّذة، قال فما روح اللّذة ؟ قال نظرت إليهم، فغشيهم نور عظيم، فأخذتهم الملائكة فصعدت بهم حتى غابوا في الهواء"[3].

ومن الكلمات المعبرة التي يقولها ابن عربي عن "أبي مدين " شيخنا أبو مدين، من الثمانية عشر نفس الطاهرين بأمر الله لا يرون سوى الله في الأبواب " . وقال: وكان يقول أبو مدين لأصحابه " أظهروا للناس ما عندكم من المواقف كما يظهر الناس بالمخالفة، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة ـ يعني خرق العوائد ـ والباطنية ـ يعني المعارف ـ .

فإن الله تعالى يقول :﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾"[4].

وقال في موضع آخر : " شيخنا أبو مدين ـ رضي الله عنه ـ الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء فكل حال عنده أعمال فتعلن بالصدقة كما يذكره في الملأ فان من ذكره في الملأ فقد ذكره

---

[1] المرجع نفسه، ص 110.111 .

[2] عبد الحميد حميدو ، السعادة الأبدية لأبي مدين فخر الديار التلمسانية، ، ص64 .

[3] المرجع نفسه، ص 65 .

[4] عبد الحليم محمود ، أبو مدين الغوث، ص124 .

في نفسه، فهذه حالة زائدة على الذكر النفسي لها مرتبة تفوق صاحب ذكر النفس، لا يطّلع عليه في الحالين، فهو سربكل وجه، فصدقة الإعلان تؤذن بالاقتداء الإلهي، فمن يخفيها أو يسترها فهو الظاهر قي المظاهر الإمكانية، فهذه كانت طريقة شيخنا"[1].

وقال الشيخ الأكبر ابن عربي ـ رضي الله عنه ـ : كان شيخنا أبو مدين يقول : "من علامة صدق المريد في إرادته فراره من الخلق، ومن علامة فراره وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخالق، فهذا هو حال الوارث للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه، ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربه حتى فاجأه الحق، فبعثه الله رسولا مرشدا لعباده"[2].

وأما صاحب الكواكب الذرية فيقول : " الأستاذ الأعظم العارف الأفخم، عظيم الأكابر، رأس الصوفية في وقته، ورئيسهم المشهور علم نعته زاهر، زاهد مراقب مشاهد، يقصد ويزار من جميع الأقطار، اشتهر حتى ملأ الآفاق وصار أمام الصديقين وقته بلا شقاق، وأخذ عنه الكبراء كالعارف بن عربي رضي الله عنه "[3].

ويقول صاحب شذرات الذهب : " أبو مدين الأندلسي الزاهد العارف شيخ أهل المغرب شعيب بن الحسين، ساكن تلمسان، وكان من أهل العلم والإجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنسك، بعيد الصيت ويسميه الشيخ محي الدين بن عربي بشيخ الشيوخ، نشر الله ذكره، وتخرج عليه جماعة من الفضلاء كأبي عبد الله القرشي وغيره، انتهى اليه كثير من العلماء والمحققين وفضلاء الصالحين كابن عربي وله في الحقائق كلام واسع " [4].

---

[1] المرجع نفسه ،ص125 .

[2] المرجع نفسه، ص 126 .

[3] عبد الحليم محمود ، أبو مدين الغوث، ص 128 .

[4] المرجع نفسه، ص 128 .

ومن الكلمات التي قالها عنه صاحب طبقات المالكية في حق أبي مدين :" ولي الله أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي البجائي شيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدوة السالكين، شيخ الطريقة، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة ".

" أخذ عن الحافظين أبي الحسن بن حرزهم، وأبي الحسن بن غالب والشيخ أبي يعزى المتوفي سنة 572 هـ "[1].

قال فيه الإمام التادلي في " قلائد الجواهر" : " القدوة الشيخ أبو مدين شعيب المغربي، كان من أعيان مشايخ المغرب، وصدور المقربين، عظماء العارفين وأئمة المحققين، صاحب الكرامات، الخواق، والأفعال الظاهرة، والمقامات العلية ...وهو أحد أوتاد المغرب ...،وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود ،صرفه في العالم، ومكّنه من الأحوال، وملّكه من الأسرار، وأظهر على يديه العجائب، وأنطقه بفنون الحكم واشتهر ذكره شرقا وغربا، وافتى ببلاد المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس ـ رضي الله عنه" .[2].

ونعته المرغيني : " بالقطب والأستاذ " [3].

وقال فيه الإمام الكبير " الشيخ بن عربي": "إنّ أبا مدين عبد صالح وإمام في التوحيد والتوكّل"[4].

و يقول في موضع آخر : " شيخنا أبو مدين ـ رضي الله عنه ـ الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء، فكل حال عنده أعمال، فتعلن بالصدقة ..." [5].

---

[1] المرجع نفسه، ص131 .

[2] العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، علوي، ص 56 .

[3] السكندري ، عنوان التوفيق في أدب الطريق، واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم، فلسطين ، ص 14 .

[4] حسين فارسي، أبو مدين شعيب، حياته وأدبه، ص 87 .

[5] المرجع نفسه، ص 87 .

ونعته أبو العباس العزفي " بالشيخ الصالح "، واعتبره ابن باديس " من الصدور العارفين المقربين وعظماء العارفين، وأصحاب الحقائق والمعارف والتمكين والتصريف وخرق العوائد "، واعتبره الصومعي " من أكبر الأئمة قدراً وأفخمهم أمراً، الشيخ العارف بالله، الصديق الأكبر "، ووصفه ابن القاضي بالشيخ العارف الواصل المحقق القطب "[1] الغوث، ولي الله تعالى "[2].

وقال فيه صاحب أنس الفقير وعز الحقير "ابن قنفذ القسنطيني ": " وأما كراماته وأحواله الصادقة والخير الصادق فكثير، وبلغ رحمه الله من الورع مقاما عليا ونال من الزهد والتحقيق منالا سنّيا تبعه فيه المتّقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون، وله أشياخ مشاهير، وإخوان جماهير، وأصحاب جواهير"[3].

و قد ذكر أبو علي الصواف عن وفاته فقال : "كانت وفاة الشيخ عام أربعة وتسعين وخمسمائة، وكان ذلك يوم محفلا عظيما، ومشهدا جسيما " . أما عن الضريح المبارك فيقول : " قبر الشيخ أبي مدين ـ بالعباد ـ معهود مشهور، وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا، فما رأيت أنور من قبره، ولا أشرف ولا أطهر من سره، وليس الخبر كالعيان، والدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان، وكان مما عاهد الله عند قبره، أن من وصله بأذى فلا يجاريه به "[4].

يقول صاحب المقال الذي بدائرة المعارف الإسلامية عن أبي مدين :" وأما قبر الشيخ من بين هذه القبور فهو أنك إذا دخلت البيت فارجع عن يمينك مستقبلاً، فالذي يقع على يسارك هو قبره ،وهذا المكان عادة الداخل أن ينتقل فيه، وهو مكان مصلى واحد، فإذا انتقلت فاستند إلى الفقيه بانحراف وظهرك في ركن الجدار، وسلم حينئذ على الشيخ من غير تقبيل وقل جزاك الله خيراً على اجتهاد في نفسك، وفيمن تعلق بك من تلاميذك ورحمك ونفعك بعلمك وطاعتك ونفع بك، ثم تقرأ ما تيسر،

---

[1] السكندري، عنوان التوفيق في أدب الطريق، ص13 .

[2] المرجع نفسه، ص 14 .

[3] ابن قنفذ القسنطيني ، أنس الفقير وعز الحقير، ، ص19 ـ 20 .

[4] عبد الحليم محمود أبو مدين الغوث، ص137 .

وتذكر ما تيسر، ثم تدعو بما شئت، وإن تيسرت لك صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين على الباب فادفعها، فإن كان أحد يريد الزيارة فخفف، وإلا فاجلس "[1].

وقد دفن أبو مدين في جموع حاشدة من اهل تلمسان، وكانت جنازته فرصة ليظهر اهل تلك المدينة فيها تقديرهم الكبير للصوفي، وصار أبو مدين منذ ذلك ولي تلمسان وحاميها "[2].

وتحت هذا البيت وبجواره قبور كثيرة متزاحمة لالتماس بركة الشيخ أبي مدين . رضي الله عنه . وزاويته قريبة منه ولها أوقاف يجزى من ذلك على المنقطعين للعبادة، وبجواره جامع للخطبة ومدرسة للعلم، والعباد منظر شريف وبقعة مباركة وطأها الصالحون، وسكانها متعبدون "[3].

من خلال الآراء والأقوال المذكورة عن سيدي أبي مدين الغوث ،تدل على علو شأنه ومكانته بين الخلق، وعلمه الغزير الذي انتفع به جل المريدين، وذيوع صيته وشهرته يوضح إخلاصه لعلمه بعمله الدؤوب، وصدق توجهه لله بالحب والتوكل و التوبه والمحاسبة و الرجاء والشوق...مما أهله بلوغ رتبة القطب .كل هذا أكسبه حب الناس وحب مريديه من جميع الأقطار ،تاركا بصمته في العلم الباطني بعد وفاته رضي الله تعالى عنه.

سادسا . قصة وفاته :

جسد ابن صعد التلمساني في كتابه "النجم الثاقب " خوف السلطة الموحدية من الوليين القطبين أبي يعزى وأبي مدين ،الأول الذي استدعاه السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي بعد أن بلغه خبر

[1] المرجع نفسه، ص 137 .

[2] المرجع نفسه ،ص 137 . 138 .

[3] ابن قنفذ القسنطيني ، أنس الفقير وعز الحقير ،ص 106 .

تنامي نفوذه واجتماع العامة بفاس حوله من قبل بعض الفقهاء"[1] . ونفس الشيء بالنسبة لتلميذه أبي مدين شعيب بعد الوشاية التي لحقت به من أحد الفقهاء.

فلما كانت طريقته الصوفية التي تميز بها والتي قام بنشرها في بجاية تخالف مذاهب العلماء والفقهاء الموحدين، فقلق هؤلاء من تميزه وشهرته ومن العدد المتزايد لتلامذته . ولما ذاع صيته ببجاية وشى به بعض العلماء عند يعقوب المنصور (من أكابر ملوك الموحدين بويع له بالخلافة 580 هـ / 1148 م، وتوفي سنة 595 هـ / 1179م)وأخبروه أنه يخاف على دولتهم من هذا الشخص ومن اتباعه الكثيرون، تأثر بهذا الكلام وظن سوءا بالرجل وطلب منه المجيء ليتأكد بنفسه من صدق نواياه، فكتب لحاكم بجاية أن يعتني به عناية خاصة وفي طريق سفره ساءت حالته وتأثر أصحابه، فقال لهم أبو مدين " لا عليكم، شعيب شيخ كبير ضعيف لا قدرة له على المشي، منيته قدرت بغير هذه البلدة ولا بد من الوصول إلى محل منيته، فقيض له الله من يحمله برفق، ويسوقه إلى مرام المقادير أحسن سوق، والقوم لا أراهم ولا يروني "[2].

" طابت نفوسهم وذهب بؤسهم واطمانوا لكلامه وعلموا أنها من كراماته فارتحلوا به على أحسن حال حتى وصلوا حوز تلمسان، فبدت رابطة العباد فقال لأصحابه : ما أصلحه للرقاد، قال أبو علي الصواف " رحمه الله، لما احتضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له أوصني فأتيته بغيري وقلت له: هذا فلان فأوصه، فقال سبحان الله ! وهل كان عمري معكم كله إلا وصية ؟ وأي وصية أبلغ مشاهدة الحال؟ قال : وقال بعضهم : آخر ما سمع منه الله الحق . وقال بعضهم الله حي . قلت : وأيا ما كان

[1] ابن صعد محمد بن أحمد، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، حققه: محمد أحمد الدبياجي، ، دار صادر، بيروت، ط1، 2011.ص،252-253.

[2] الغبريني ، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار ، رقم النشر 81 /1007، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط2، 1981، مركب الطباعة رغاية، ص 60 .

فهي خاتمة حسنة ومرتبة علية مستحسنة ظهر فيها صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يموت المرء على ما عاش عليه " [1].

هكذا كانت نهاية القطب الرباني الشيخ أبي مدين شعيب، حياة حافلة بالمجاهدة والإخلاص لله إلى آخر نفس، فلم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى تقطّب رضي الله عنه كما روى عنه تلميذه ابن عربي، فرحمه الله ونفعنا بعلمه .

"توفي أبو مدين سنة 594 هـ الموافق ل 198 م، فحمل للعباد مدفن الأولياء والأوتاد، وخرج أهل تلمسان لجنازته، فكانت مشهداً عظيماً "[2].

فأصبح منذ وفاته ولي مدينة تلمسان، ويذكر بأن المدينة ازدهرت ببركاته، وقد بنى فيه " السلطان الموحدي الناصر " قبة أبي مدين "، وبعدها أتى بعض الحكام والأمراء وأضافوا الكثير من الزخارف إلى قبره، إضافة إلى المنشآت الفخمة التي لا تزال إلي يومنا هذا ومنها جامع ومدرسة "سيدي بومدين".

كما لا يزال قبره إلى يومنا محل الرعاية والإهتمام، كما أن هناك عين بفاس بالقرب من مسجد حي الرميلة جانب قنطرة تسمى عين "سيدي بومدين" كما توجد بمقبرة هذا المسجد قبر شيخه أبي يعزى.

كما يذكر اسمه بتونس بزاوية"سيدي أبو مدين" من طرف جماعة الشيخ المختار الكسراوي تجتمع في حلقة للذكر .

---

[1] ابن قنفذ، انس الفقير وعز الحقير ،ص 102 . 103.

[2] أحمد بابا التنبكتي ،نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ،ط1 ،1989 م، ص197 .

الفصل الثاني :

القصيدة الصوفية (الإرهاصات والخصائص)

أولا : أهمية التصوف في الأدب عامة والشعر خاصة

ثانيا : نشأة القصيدة الصوفية

ثالثا : مصادرها

رابعا : الصلة بين التصوف والشعر

خامسا: أغراضها (أنواع الأدب الصوفي شعرا)

سادسا : خصائص وسمات القصيدة الصوفية

- أسلوب التناص في قصائد أبي مدين شعيب

أ- التناص القرآني.

ب- التناص الشعري.

سابعا : جمالية القصيدة الصوفية

لقد كان الشعر الصوفي وليد فلسفة وفكر معين ،فيحمل لغة خاصة يمثل بذلك الجانب الروحي الديني في الأدب ،و المتمعن في الشعر الصوفي يجد لغة التصوف في جماليتها المتميزة ترتفع بالمشاعر وهي تعبر عن تجربة عرفانية فريدة تكشف عن حس مرهف،وقد حصر الشعراء هذه اللغة في مستوى أساسي وهي لغة الإشارة والرمز والتلميح .

والشعر الصوفي شعر ذاتي روحي ووجداني . ذاتي كونه يعبر عن تجربة خاصة يمر بها الشاعر الصوفي وحده، ولم تأته عن طريق الإقتباس والتقليد ،" فالعنصر الذاتي فيه طاغ متسلط، وهو بذلك لا يخضع لمقررات العقل، ولمقياس الشعر العاطفي العادي، إذ أنه وصف لتجربة باطنية فريدة يمر بها الصوفيون وحدهم"[1].

"ووجداني لأنه في مجمله يمثل نفثات وجدانية لذلك الشاعر ،و لذلك فإن بعض دارسي الشعر الصوفي يعتبرونه تطورا لشعر الغزل العذري العربي"[2].

و روحي لأن التجربة التي يعبر عنها الشعر الصوفي تجربة روحية خلاقة تنبع تجلياتها في عالم الروح ، وعليه فان "الشاعر الصوفي مثالي ورمزي يستمد عناصر فنه من قلبه منبع حبه، ومنارة عالمه الذاتي، وهو يدين بدين الحب، وينشد الجمال المطلق في أسمى معانيه"[3].

أولا : أهمية التصوف في الأدب عامة والشعر خاصة:

تعددت أغراض الشعر العربي وألوانه على مر العصور من مدح ورثاء وهجاء وتشبيب ووصف...، بيد أن الإهتمام بالجانب الروحي في الأدب لم يلق الإهتمام الأمثل إلا في عصر صدر الإسلام، حيث كان الشعر قد كرس جهوده لخدمة الدعوة الإسلامية الناشئة، ومن ذلك ما يروى أن رسول الله ـ صلى

[1] نور سلمان، معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، رسالة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، الدائرة العربية بالجامعة الأمريكية، بيروت، 1954م، ص13 .

[2] محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي،دار غريب للطباعة ،القاهرة، 167 .

[3] نور سلمان، معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي ،ص13 ـ 14

الله عليه وسلم. قال لحسان بن ثابت : " اذهب إلى إبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم أهجهم وجبريل معك " [1].

ولعل عدم الإهتمام اللّائق بالجانب الروحي والإسلامي والصوفي في الشعر كان نتيجة عوامل عدّة منها :

. قل بين الشعراء من يهتم بالجانب الروحي في شعره، وذلك راجع إلى الطبيعة البشرية التي كثيرا ما تنشغل بأمور الدنيا .

. قر في كثير من الأذهان . وهو خطأ لا ريب فيه . أن الإسلام يحطّ من قدر الشعر والشعراء، لذا انفرد بالساحة الشعرية . في أغلب الأحيان . نفر من الشعراء الذين جاءت أغراضهم الشعرية معبرة عن انشغالاتهم بالدنيا ومفاتنها ولهوها، بل ومجونها، ونبت الشعر الديني الروحي بعيدا على استحياء مما نتج عنه أن أغفلت دراسة الأدب الروحي، وتركت الساحة للأدب الدنيوي . يقول "زكي مبارك": "إي والله ! كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحتري والمتنبي وأبي العلاء، ولكن طافت بالنفس طائفة من الجهل فتوهموا أن لا صلة بين الأدب والدين، وراحوا يقفون فيما يتخيرون عند الكتاب والشعراء الذين ألفوا الروح المدنية، وأخذوا غذائهم من الكؤوس المترعة، والوجوه الصباح"[2]..

كانت قصور الخلفاء والأمراء والملوك هي المنابر التي يتم من خلالها شهرة الشاعر وذيوع صيته، لأنها كانت بمثابة المراكز الثقافية والإعلامية . أما الشعر الروحي والصوفي فقد نبت بعيدا عن أحضان القصور لعزوف أربابه عن الدنيا، وتعففهم عن الوقوف بأبواب الملوك، لذا لم ينل هذا الشعر القدر الكافي من الشهرة والذيوع .

[1] د. فايز ترحيني، الإسلام والشعر ، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1990 ،ص104 .

[2] د. زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، 1/ 37

"وإذا أردنا أن ننشئ أدبا إسلاميا جديدا فإنه يتعين علينا أن نبدأ من حيث بدأ الصوفيون أدبهم، وأن نعود إلى القرآن الكريم، لنتفهم أصول دعوته، ولتمتلئ نفوسنا بجليل روحانياته، ولنتعمق في فهمه ودراسته، ولنستلهم من عبره وعظاته القدرة على مجابهة الحياة ومعاناة مشكلاتها"[1].

ففي القول إشارة إلى أن العودة إلى كتاب الله وسنة نبيه، يؤهلنا لإنشاء أدب إسلامي مليء بالروحانيات التي ترتقي بالنفس لإدراك مقصده وأخذ العبرة منه ، فيكون بذلك معينا فهم الحياة وحل مشكلاتها.

ثانيا : نشأة القصيدة الصوفية :

"الشعر لغة الوجدان، وهو نتاج خيال مخلّق وشعور مرهف وفكر رحب، والشعر من الشعور ولذلك سمته العرب شعرا، لأنها شعرت به وفطنت إليه، وللصوفية أدب غني بما فيه من ذاتية ظاهرة ونزعة وجدانية قوية وتحمل القصيدة الصوفية في طياتها نفحات قرآنية ونظريات فلسفية وخاصة بما يتعلق بوحدة الوجود واحتقار المادة وعالمها، وقد لجأ المتصوفة إلى الشعر لأنه أفضل وسيلة للتعبير عن مواجيدهم وأذواقهم التي لا يمكن للعقل أن يفصح عنها، والشعر الصوفي كثير وغزير غزارة النثر الصوفي، وشعراؤهم كثيرون في كل عصر، فقد خلّف الصوفية تراثا شعريا عظيما يتميز بثراء الخيال والرمز، وتنوع الموضوعات بين تصوير للتجربة في الطريق الصوفي، وتعبير عن الحب الإلهي، وشرح للفلسفة الصوفية عامة [2].

"ومن شعراء الصوفية الذين قالوا فأفاضوا واعتمدوا على الإرتجال والبديهية فأحسنوا وأتوا في شعرهم بغزير المعاني وروائع الخيال وبديع الصور وجميل التشبيهات ولطيف المجازات"[3].

---

[1] د. محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص66 .

[2] علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي ، القاهرة، دار المعارف، دط ،1404 ،ص21 .

[3] ابراهيم محمود منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ،دار الأمين ،1995 ،ص27 .

"وكان الشعر الصوفي تحولا للشعر الديني الإسلامي وامتداداً للغزل العذري في الأدب العربي فتغزلوا بليلى وهند ورمزوا بها إلى الذات الإلهية ولم يكن هذا النظم من المنكرات بل كان مباحا عند الأئمة ورجال الدين، وتطورا لشعر الخمريات، وشعر الوصف ،كانت القصائد النبوية تطورا لفن المدح في الشعر العربي"[1] .

"ظهر الشعر الصوفي في أوائل القرن الثاني الهجري على أيدي الحسن البصري وتلامذته من بعده وأقدم هذا التراث خلفه المتصوفة الأوائل من الشعراء بداية من رابعة العدوية (135 هـ) وسهل التستري(283 هـ) وثم الحلاج والشبلي وأبو زيد البسطامي وغيرهم في مختلف العصور"[2].

ويمكن أن نقسم الشعر الصوفي إلى عصور متعاقبة، "حيث يمتد العصر الأول منها من [100 هـ إلى 200 هـ] وتشمل القرن الثاني هجري كله والخلافة العباسية في بغداد، وفي هذه المرحلة كان الشعر الصوفي يكون نفسه بنفسه وينهض بتقاليده الفنية والفكرية ليتم بذلك إيصالها إلى أذهان الناس، وكان الشعر الصوفي فيها عبارة عن لمحات دالة أو قليل من الأبيات الوجيزة، ومن شعراء هذه المرحلة رابعة العدوية (185)"[3].

أما المرحلة الثانية فتشمل القرنين الثالث والرابع الهجري : كان الشعر الصوفي في هذه الحقبة في تطور وازدهار مستمر ومن شعراء هذا العصر أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي(245 هـ) وله شعر في علامة المحبة يقول فيه :

لاَ تَخْدعنَّ فللحبيب دلائل ولديه من تُحف الحبيب وسائل.

مِنْها تَنعمه بِمُر بلائِه وسروره فِي كُل ما هَو فَاعِل

---

[1] محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي ، ص167 .

[2] ابراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين، 1995 ،ص 27 .

[3] علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفيين الحلاج وابن عربي ،ص 21

فـــالْمنْع منـــهَ عَطية مقبولـــةٌ والفَـــقر إكْـــرام وبر عـــاجل[1]

وكذلك أبو حمزة الخراساني وفيها ظهر المتنبي والشريف الرضي وغيرهما من شعراء العربية.

وقد اشتملت المرحلة الثالثة القرنين الخامس والسادس هجري من [400 الى 600]: وفيها اتجه الشعر الصوفي إلى الحب الإلهي ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والشوق إلى الأماكن المقدسة،والدعوة إلى الفضائل الإسلامية، وفيها نشأ الأدب الصوفي الفارسي، ونبغ فيه معروف البلخي والبستي، وظهر من شعراء العربية المعري ومهيار ومن شعراء هذه المرحلة من المتصوفة "السهروردي الشامي (586 هـ)و عبد الله بن أحمد الأندلسي القرشي صاحب قصيدة المنفرجة والتي مقطعها :

اشْتَدي أَزْمة تَنْفَرجي *** قَد آذنَ لَيلُك بالبلْج .

وكذلك البرعي (550هـ) الذي تضمن شعره معاني الحب الإلهي والتغزل بالمشعر الحرام ومدح النبي صلى الله عليه وسلم.

و أما المرحلة الرابعة "فتشتمل القرن السابع الهجري بأكمله وفيه بلغ الشعر الصوفي قمة تطوره ونهضته، وظهر من أعلامه ابن الفارض (632 هـ) ويقرن بجلال الدين الرومي (694 هـ) وعبد الله الدميري المعروف بالدريني ،وابن عطاء الله السكندري (707هـ) وسواهم، وكان هناك أيضا مجد الدين الوتري الذي يقال أنه من القرن السابع، أما المرحلة الخامسة فقد اشتملت القرن الثامن حتى اليوم، ومن أعلامه الشعراني (973هـ) والنابلسي وغيرهما من شعراء هذه المرحلة...."[2].

ونخلص مما ورد في الشعر الصوفي بأنه وجداني بطبيعته وهو لون فريد من الشعر العربي، يعبر بذلك عن مجموع العواطف التي يعيشها الشاعر من حزن وفرح وألم الفراق... ،وفيه تنعكس نزعات التصوف والتجربة الصوفية و الشعورية والمحبة الإلهية والحياة الإجتماعية فقدجاء كردة فعل على الإنغماسفي

[1] علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفيين الحلاج وابن عربي، ص 22.23 .

[2] محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص175 ..

ملذات الحياة، وكان من الشعراء من دعا لذلك ،فجاء الشعراء المتصوفة يحثون الناس على ترك الدنيا والزهد فيها والتفرغ لعبادة اللهوالتفكرفي الآخرة.

ثالثا : مصادرها:

كان الشعر الصوفي أداة يعبر بها الشعراء الصوفيون عن الحقيقة والمعرفة الإلهية، ويصورون الكون بأدق تفاصيله، ويبعدون قلوبهم عن الماديات التي تشغلهم عن امور آخرتهم، ليصلون إلى أعلى درجات الكمال وهي القرب من الله وقد ارتبط الشعر الصوفي بالمعرفة والحكمة الصوفية ونتج عن ذلك قصائد شعرية مثل قصائد الششتري، ابن الفارض ،ذو النون المصري وغيرهم .

وقد استمد الشعر الصوفي مصادره من مؤثرات من داخل البيئة الإسلامية وأشعارها، ومن مؤثرات خارجة عنه، فتأثر الشعراء الصوفيون بالكتاب المقدس وخاصة مزامير داوود ،....."و يمكن لنا أن نلمح أثر سفر أيوب في كتابات السهروردي والأفلاطونية في كتابات النفري"[1].

و تأثر الشعر الصوفي بالشعر الديني في صدر الإسلام فهو من أول منابع الأدب الصوفي، "حيث كان هذا الشعر يعبر عن انتصار الدعوة الإسلامية وظهر فيه شعر الفتوح وتمجيد البطولة وذكر البلاء في الحرب والإشادة بالإسلام ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار، وتحول في العصر الأموي وصار يسمى بشعر التدين وكان له غرضان أساسيان هما : الوعظ والذكر بالآخرة ووصفها والحكمة الدينية والأخلاق وتطور هذا النوع مع تطور الحياة الروحية في المجتمع الإسلامي وظهر شعر الدعوة، إلى ترك الدنيا وذم الإقبال عليها والجهاد في سبيل مرضاته والإلتزام بعبادته"[2].

"و أطلق على هذا النوع اسم شعر الزهد ويعتبر هذا الأخير تطورا لشعر التدين ،ولكنه أشد توغلا في الروحانية منه"[3] .

---

[1] محمد ابراهيم منصور، الشعر والتصوف ،ص28 .

[2] المرجع نفسه،ص28 .

[3] عمر فرح، التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان ، دط ،1961 ،ص96 .

"وأصبح شعر الزهد أداة للمحبة الإلهية وبيانها فقد كانت رابعة العدوية أول من كتب في الحب الإلهي شعرا ثم شاع هذا اللفظ عند الصوفية من بعدها من الشعراء، وهذا جانب من جوانب تأثر الشعر الصوفي بالشعر الغزلي الذي كان في العصر الجاهلي مجرد أبيات يتحدث فيها الشاعر عن حبه لإمرأة ما، ويبكي أطلالها ويذكر أوصافها مشيدا بها، وفي العصر الأموي انقسم إلى نوعين جديدين وهما الغزل الماجن والغزل العذري، وقد حقّق شعراء هذا النوع ومنهم عمرو بن ربيعة وجميل بن معمر وغيرهما"[1].وقد كانت نقلة نوعية من الغزل المادي إلى الغزلالمعنوي الروحي لما كان في شعرهم من تعبير عن الجانب الروحي عكس الغزلالماجن الذي جعل المرأة عبارة عن شيء مادي فقط.

"وفي العصر العباسي انقسم الغزل إلى غزل ماجن وآخر عفيف وظهر الغزل الصوفي والذي أخذ عن النوعين اللذين سبقاه مصادره، وقد تناول الغزل الصوفي الحب بشكل مغاير فنسبوه إلى الله، فالحب الإلهي فرع من فروع الغزل لا يختلف عنه في الألفاظ لكن يختلف عنه في التفسير والتأويل"[2].

فتوصل الشعراء الصوفيون أن الحب أسمى من أن يكون بشريا ،و الجدير أن يكون هذا الحب خالص لله وحده ونجد ذلك في أشعار ابن عربي وابن الفارض فجل قصائدهم تتحدث عن الحب الإلهي الذي استقى مصادره من شعر الغزل .

وتأثر الشعر الصوفي كذلك بشعر الخمرة، فالخمريات الصوفية استلهمت صورها وأساليبها من شعر الخمرة ولم تأخذ مجونه وإباحيته، فنشوة الحب عند الصوفية يسمونها سكرا وهو يشبه في آثاره السكر الحسي واتجه الشعراء الصوفيون إلى الإقتباس من خمريات أبي نواس الذي اشتهر بها في العصر العباسي وسبب أخذهم عنه كثرة المفاهيم الفلسفية والوجدانية الموجودة في شعره، وبذلك أصبح للخمر وضع متميز في تراث الأدبي للمتصوفة ، فكان يعتبر لديهم رمزا من رموز الوجد الصوفي [3].

---

[1] المرجع نفسه ،ص 187 .

[2] عمر فرح، التصوف في الاسلام، ص98 .

[3] جودت نصر عاطف، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت ،ص339 .

و لإبن الفارض في ذلك قصيدة مشهورة عرفت بإسم الخمرية وهي :

شَرِبنَا عَلى ذِكْر الْحَبيبِ كَمدامةً سكرنَا بِها قبل أن يُخلق الكَرم

لَها البدر كَاس والشّمس يديرها هِلالٌ وكم يبدُو إذا مزجت نجم

ولَولاَ شَذاهَا ما اهتديتُ لِحانها ولَولاَ سناهَا ما تَصورها الوهّم[1]

استعمل الشعراء الصوفيون الرمز والذي استمدوه من من الأساليب الرمزية في القرآن ذكروا رموزا من عالم الشهادة مدللين به على عالم الغيب، فيقصدون بذكرهم لرمزالخمر والمرأة والأطلال وغيرها على أحوالهم مع الله وهذا ما نجده في معظم أشعارهم الصوفية .

رابعا : الصلة بين التصوف والشعر :

"لقد اتسم الشعر العربي عبر مسيرته بالعديد من الظواهر الفنية، والتي ساهمت بلا شك في تجديد مضامينه وإثرائها، ومن أهم هذه الظواهر التصوف الذي يرع سرُّ الإهتمام به لما يجمع بينه وبين الشّعر من علاقات وروابط جدية"[2].

فالشعر والتصوف يصبان في منبع واحد غيربعيد عن الواقع، فهما يتفقان من حيث الصورة والإيقاع واللغة ،و بهذا أردنا البحث عن أهم مواطن الإتفاق بينهما :

و يفسر أغلب الدارسين للخطاب الصوفي بأنّ التصوف أحد منجزات الفكر البشري التي تربطه بمختلف المعارف علاقات وطيدة، ويرى الباحث "جودة نصر" أنه : " هناك وشائج قربى تجمع بين التصوف والفن، بشكل عام وبينه وبين الشعر بشكل خاص، هذه الوشائح تتمثل في أن كليهما يحيل إلى العاطفة والوجدان " [3]. ،كلا من التصوف والشعر ينتميان لنسق واحد، فمثلا :

---

[1] ابن الفارض عمر بن علي ،ديوان ابن الفارض، تح: درويش الجويدي، المكتبة المصرية ،بيروت ،2008 ، ص191 .

[2] سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر ،منشورات بونة للبحوث والدراسات،ط2، 2008 م،ص137 .

[3] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، الإسكندرية ،ط1 ،1983 م،ص53 .

التجربة الصوفية والتجربة الشعرية هما تجربة حياتية ونفسية شعورية نابع من الواقع المعاش وما نتج عنه من مشاعر وخلجات الشاعر .

"فالنص الصوفي مثل النص الشعري يتميز بصدق التجربة لكونها وليدة معاناة، ذلك لأن الصوفي عاشق ينفّس عن مشاعره بكلمات تتسم بالرمزية التي تفرضها طبيعة المعاني الروحية، فهو لا يعبر بلغة العموم، بل يلجأ الى لغة الخصوص، فالتجربتان (الصوفية والشعرية) مرتبطتان، غير أن الشاعر قد لا يكون متصوفا أو لا يلزمه أن يكون متصوفا، ولكن الصوفي لا يبعد أن يكون شاعرا"[1].

فالصوفي هو "شاعر سواء نظم القول أو نثر ،فأداة الإدراك عنده هي نفسها وسيلة الشاعر"[2] .

فكليهما يعتمدان عن الباطن، ممّا جعل لغتهما مختلفة عن اللغة العادية، والوسيلة التشبيهية التي يعتمدها هي نفسها أداة الشاعر، وهذا ما يؤكد على تشابه التجربتين .

أما علي عشري زايد " يرى أن العلاقة بينهما هي علاقة تشابه وتماثل وحجته في ذلك أنّ الرابط بين التجربة الشعرية والصوفية جد وثيق،ويكمن هذا الرابط في ميل كل من الشاعرو الصوفي إلى الإتحاد بالوجود والإمتزاج به، ودليله في ذلك هو أنّ "المتصوفين والشعراء الكبار أمثال "رابعة العدوية"، " الحلاج، بن عربي "، " ابن الفارض " وغيرهم، كانوا يستعملون الشعر في التعبير عن معانيهم والكثير من جوانب تجربتهم الصوفية . فهي لغة الخصوص ،لا لغة العموم، لغة المجاز والرمز، لا لغة التصريح والوضوح . فما يعانيه الشاعر خلال عملية تجسيد ما اختمر في ذهنه من تساؤلات وأفكار يشبه ما يقوم به الصوفي في مقاماته وأحواله"[3].

---

[1] سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر،ص137 .

[2] ابراهيم محمد منصور (الشعر والتصوف) الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط1 ،1999 ،ص24 .

[3] سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصرمنشورات بونة للبحوث والدراسات، ط2،2008 ، ص138 .

مما سبق يتضح أن كلا من الصوفي والشاعر يشتركان في الوسيلة والهدف، يهدفان إلى تكوين رؤية للعالم، بينما يختلفان في تحديد تلك المعرفة : "معرفية تجريبية/ عقلية منطقية .بالإضافة إلى إلتقائهما توظيف الخيال والحدس والتي هي شرط أساسي في العملية الإبداعية، لذا كلا التجربتين تلجأ إلى الرمزوالإيحاء، خاصة التجربة الصوفية التي تعتمد على لغة خاصة ذات رؤية واسعة والعبارة فيها محدودة وعاجزة، فالنفري يرى " أنه كلما اتسعت دائرة الرؤية ضاقت العبارة " [1].

بمعنى أن العبارات غير قادرة على حمل كل معاني الرؤى أو التعبير عن كل الأفكار التي يحاول الشاعر الصوفي إيصالها أو البوح بها، وانطلاقا ممّا سبق، يتصح لنا بأنّ هناك انسجام وتقارب بين التجربتين وهذا من خلال ما أشار إليه " أدونيس " بقوله : " أنّ الشعر رؤيا، والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة، ويؤمن بأنّ الشعر كشف عن عالم يظل أبدا في حاجة إلى الكشف، ولا يمكن للشاعر أن يكون عظيما إلا إذا رأيناه وراء رؤيا للعالم "[2].

ومن بين المواقف التي تؤكد بأنّ هناك الكثير من الصلات التي تربط بينهما . الشعر والتصوف . نجد "صلاح عبد الصبور" الذي يقول : " فإذا أتحدّث عن الشعر والتصوف أقول :أنّني أحب التجربة الصوفية، ذلك لأن التجربة الصوفية شبيهة جدا بالتجربة الفنية، إنّ كتابة قصيدة هي نوع من الإجتهاد قد يثاب، لذلك قال الصوفيون : إنّ الإنسان يمضي في طريق الصوفية يجتهد ويتعبد، ولكنه قد لا يهبط عليه شيء أو لا يفتح عليه بشيء وهذا الفتح ليس إلا تنزيلات من الله "[3].

نلاحظ من خلال قول " صلاح عبد الصبور " في كتابه " حياتي في الشعر" أن العملية الإبداعية (ولادة القصيدة) تعدّ بمثابة رحلة كرحلات الصوفية كما بينها في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : أن ترد على الشاعر على هيئة "وارد" (تهيئة الذات، مواجهة الحقيقة).

---

[1] سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر،ص139 .

[2] أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط2 ،1978 م،ص09 .

[3] صلاح عبد الصبور ،حياتي في الشعر ،دار اقرأ، بيروت، لبنان ،1981 م، ص10 .

المرحلة الثانية : مرحلة العقل، وهي التي تلي مرحلة الوارد وتنبع منه، وتعرف في لغة الصوفية(التلوين والتمكين) .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة العودة، عودة الشاعر إلى حالته العادية، بعد ولادة القصيدة الذي أجهد نفسه في تقويمها حتى تم تشكيلها النهائي وهو سرها الفني "[1].

وعليه فإن رؤية صلاح عبد الصبور تبين العلاقة الوطيدة التي تجمع بين تجربة الشاعر وتجربة الصوفي من خلال ما يكابدانه من ألم ومعاناة لتحقيق الهدف والغاية ."فالغاية الفنية عند الأول (ولادة القصيدة) والغاية الروحية عند الثاني (الوصول إلى الحقيقة)لذا فكلا التجربتين تعيشان صراعا عسيرا"[2].

و ما يمكن قوله أن هناك من يفصل بين الشعر والتصوف . فحقيقة الشعر واقعها إنساني بحت، بينما حقيقة التصوف هي حقيقة وجدانية متصلة بالذات الإلهية والسعي في طريقها. ولكن ما يجمع بينهما ويمثل نقاط التقائهما أو تقاطعهما، هو أن التصوف تجربة وجدانية روحية وليست كتابية، وبالتالي تحتاج الى أداة تعبيرية تمكنها من إيصال المعنى والبوح عن مكنونات الذات ووجدت ضالتها في التجربة الشعرية التي تحمل اللغة الأنسب للتعبيرعن بواطن تلك الذات .

خامسا : أغراضها :

لعل أهم موضوع عبر عنه الشعر الصوفي هو " الحب الالهي "

يقول الحلاج :

أَحرفٌ أربعٌ بِها هَام قَلبِي وتَلَاشَتْ

[1] سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر ،ص 154.155 .

[2] الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة . ابن الفارض نموذجا . أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، بولعشار مرسلي، كلية الآداب، جامعة وهران، 2014. 2015 ،ص 14 .

بها هُمومي وفكْري

أَفتَألّفُ الخَلائقِ بالصنعِ الجميل فَلامَ

عَلى السلامة تَجري

ثُمّ لامَ زِيادةُ في المَعـانِي ثـم هـاء

بها أهيم وأدري .....

و الحب الإلهي يتنوع بتنوع تجارب المتصوفة ونظرتهم لهذا الحب، فالمحبة عند الصوفية لا يجوز النظر إليها على أنها غرض واحد فحسب، فهي في التصوف تتسع لتشمل موضوعات شتى متعلقة بها.. "فهناك علاقة المحبة والشوق إلى المحبوب، وعلاقة المحب وابتلاء المحبوب، وهناك علاقة ترتبط بالمقام الذي يصير إليه الصوفي، فالمحب الذي يرقى في المقامات الصوفية يرى المحبوب بنظرة تختلف بإختلاف المقام الذي يصير إليه"[1].

بالإضافة إلى أن الحب الإلهي هو الموضوع الأساسي في الشعر الصوفي نجد أيضا الزهد، والحكم، والدعاء، والمناجاة ، والإستغاثات، والغزل الصوفي، والنصائح والوصايا، والمدائح الدينية.

- **سمات الشعر الصوفي :**

. الحب الإلهي هو الموضوع الأبرز في الشعر الصوفي، فهو عندهم ليس مجرد موضوع شعري، بل هو منهج حياة، ودين يعتنقونه، ويعيشون له .

. العناية بالحديث عن دخائل النفس وأسرارها، واستخدام أسلوب الإستبطان الذاتي .

[1] زيدان يوسف، شعر الصوفية المجهولون ،دار النشر ط2 ،1996 ،ص129 .

. عدم الإحتفال بالجزالة والفخامة والزينة اللفظية .

- **الرمزية في التعبير**[1] :

يقول شمس الدين التبريزي : " لا يوجد فرق كبير بين الشرق والغرب، الشمال والجنوب .. فمهما كانت وجهتك، يجب أن تجعل الرحلة التي تقوم بها رحلة في داخلك، فإذا سافرت في داخلك، فسيكون بوسعك اجتياز العالم الشاسع وما وراءه ...

أنواعها :

1 . الرسائل الحجازية :

فن شاع في العصر الوسيط يلجأ فيه الصوفيون إلى النظم عندما تحول بينهم وبين أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فيتكتفون ببعث رسائل يترجمون فيها أشواقهم وحنينهم إلى البقاع المقدسة . برز هذا الفن ببجاية مع الصوفي أبي عبد الله محمد بن صالح الشاطي (ت 699 هـ)، يقول متشوقا إلى زيارة قير الرسول صلى الله عليه وسلم"[2]

أَرى العصر يفنى والرَّجاء طَويل ولَيس إلَى قُرب الحبيب سبيل

حباهَ إلَه الخَلْق أَحسن سيرة فَما الصبر عَن ذَاكَ الجمالُ جَميل

متى يشْفَى قلْبي بلثم تربه ويسمح دهر بالمزارِ بَخيل

وفي الغرض نفسه يقول " أبو عبد الله محمد بن حسن التميمي " (505 هـ)[3]

[1] سلمان نور، معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي ،ص 74 .

[2] الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تع عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2 ،1979، ص 340 .

[3] الغبريني، عنوان الدراية ، ص 96 .

وإني أَدْعــو الله دَعـوة مذنـب عَسـى انظُر البيتَ العتيقَ وألثـم

فَيا طـولَ شَوقي للنَبِي وصــحبه يا شــدَّ ما يلْقَى الفُؤَاد ويكتَـم

إلَيكَ رسولُ الله ارفــع حـاجــتي فـأَنْتَ شَفيع الخَلْقِ والخَلْقَ هيم

فَقَدْ سارتْ الرُكْبانُ واغْتَيموا الـمنى وإِني دونَ الخــلَائِــقِ مــحــرم

. وفي قصائد المدح النبوي اشتهر ببجاية الصوفي "عبد الله محمد بن الحسين بن ميمون القلعي " (ت673 هـ)، سلك في شعره طريق حبيب بن أوس وتميز بكثرة أشعاره قال فيه الغبريني : " له شعر كثير شرع في تدوينه ولو تم تدوينه لكان في مجلدات كثيرة " وأورد له قصيدتين في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم في ثمانية عشر بيتا منها هذه المقاطع [1].

أَمِن أَجلِ أَنْ بـانَ فُؤَادَكَ مــغْرم وقَلبكَ خَفَّاقُ ودَمـعك يســحـم

ومـا ذَاكَ إلاَ أَنْ جِسـمكَ منـجـدُ وقَلْبكَ مع من سار في الركبِ متيم

ونجد أن الصوفية في أشعارهم المختصة بالمدح النبوي قد تميزوا ببساطة الأسلوب وسهولة الألفاظ مستعملين الخطاب المباشر في مدحهم للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم ان يشفع فيهم ،و بالإبتعاد عن الذنوب بالتوبة .

2. شعر التوسلات والإبتهالات :

ارتبط ظهوره بالمغرب الأوسط بإستفحال ظواهر الظلم والتعدي من جانب الولادة وحياة الضرائب والإضطراب السياسي والإقتصادي الذي طال المجتمع بما فيه الصوفية الذين لجأوا إلى الشكوى والتوسل

[1] المرجع نفسه، ص 95 .

والتضرع إلى الله ليخلصهم من الأزماتوالمصائب. ويعد أبو الفضل ابن النحوي (ت513هـ) أنه ساد هذا النوع من الأدب بقلعة بني حماد ومن أشعاره في التوسل من البسيط [1].

لَبستَ ثَوب الرجا والنَّاس قَد رقَدُوا وقُمتَ أَشْكُ وإلى مولاَي ما أَجِدُ

وقُلتَ يا سيدي يا منتهى أَمـلـي يـا من عَليه بكشف الضرِ أَعتمدُّ

أَشْـكُو إلَيكَ أُموراً أنـتَ تعلَمـها مالِي علَى حَملِها صبر ولاَ جـلَدُ

وقَدْ مدَدْتَ يدي للضر مشْتـكِيـاً إلَيكَ يا خَير من مـدَّتْ إليه يـدُ

كما نظم قصيدته الجيمية المسماة بالمنفرجة انعكس فيها إيمانه العميق بأن الأزمة مهما اشتدّ وطؤها فإن مآلها الفرج، داعيا إلى الإستعانة بالقرآن وقيام الليل في تأمل وتمعن مع الإجتهاد في العبادة بهدف الوصول إلى الكشف معتبرا أن هذه الرتبة قمة العيش وبهجته وفي هذا المعنى يقول [من المتدارك][2].

اشْتَدي أَزْمةٌ تَنْفَرِجي قَدْ أَذِنَ لَيلُك بالْبلَجِ

وظَلاَم اللَّيلِ لَه سرج حتى يغْشَاهُ أَبو الْسَّرجِ

وقد نالت المنفرجة إهتمام العامة والخاصة أصبحت أثرا يستعينون به كلما حلت بهم النوائب وقد قام الفقيه " أبو محمد عبد الله الخضرمي "(ت 636 هـ .1239 م) لما أدخله الموحدون السجن في قسنطينة بتخميس قصيدة المنفرجة مما يبين استمرارها وتأثيرها على النفوس وفي دفع الكرب وتخليص الناس من شدائدهم وقد قال عنها الغبريني : " مازالت هذه القصيدة أي الجيمية معلومة الإفادة ظاهرة الزيادة "[3]

[1] رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط3 ،2000 ،ص 271 .

[2] الغبريني، عنوان الدراية ،ص 272 . 278

[3] الغبريني، عنوان الدراية، ص 272 .

بل الإهتمام بها تواصل في المغرب الأوسط الى غاية القرن التاسع الهجري /الخامس عشر ميلادي [1]

وشارك "ابن النحوي" في هذا الفن الصوفي ابن عبد الله محمد بن الحسين القلعي(ت673هـ.1275 م).الذي يقول طامعا في رحمة الله وشفاعة رسوله [2]

فَيا سامِع الشَّكْوى أَقِلْنِي عَثْرتِي فَإِنَّكَ يا مولاَي تَعفُو وتَرحم

ويا سامعين استوهبوا لِي دَعْوة عَسى عَطْفَةٌ من فَضْله تَتَنَسَّم

3 . الرسائل الإخوانية :

وتعرف عند الصوفية بالمكاتبات السنية التي كان الصوفية يتبادلونها فيما بينهم وأغراضها التشوق والثناء والمدح والنصحوطلب الدعاء، وفيها لم يلتزم الصوفية بأسلوب النثر المرسل فحسب بل أقحموا الشعر ،كان ابن خلدون يستقرئ هذا النوع من المراسلات في قوله :" وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور من باب الشعر وفنونه"[3].

4 . شعر الزهد :

تدور موضوعاته بين الدعوة إلى الزهد في الدنيا وترك ملذاتها ، والتذكير بالموت والعمل للآخرة ومن الذين اشتهروا بهذا الفن "أبو محمد عبد الحق الإشبيلي" وفي هذا يقول :

---

[1] المرجع نفسه،ص 278 .

[2] المرجع نفسه،ص97 .

[3] ابن خلدون، المقدمة ،ص351 ،دار القلم ،بيروت، لبنان،ط4 ،1980 ،ص467.468 .

واهاً لِدُنْيا ولِمغْرورِها كَم شَابتْ الصفْو بتَكْديرِها

أَيُّ امرئ آمن في سربه ولَم ينلْه سوء مقْدورِها

وكَانَ في عافية جسمه من مسِ بلْواها وتَغْييرِها

وعِنْدَه بلْغَةُ يوم فَقَدْ حيز تاليه بِحَذَافيرِها[1]

ويقول في موضع آخر :

إنَّ المَوتَ والمَعادَ لَشُغلاً وادّكاراً لِذي النهى بلاَغاً

فاغْتَنِم خَطْفَتَيْن قَبل المَنايا صِحةَ الجِسمِ يا أَخي والفَراغَا[2].

5. شعر التصوف السني :

وفيه يذكر المتصوفة مجاهداتهم وأورادهم وأذكارهم بأسلوب بسيط الألفاظ والمعنى بعيدا عن التكلف والإفراط في الرموزوالإشارات ومن رواده ،" أبو مدين شعيب " (ت 594 هـ) ويقول في هذا :

أَستَغْفِر الله مُجْرِي الفُلْك في الظُلَمِ عـلَى باب من التَّيَّارِ ملْتَطِـمِ

أَستَغْفِرالله منجي المُستَجير بـه إذَا أَلَمَّ به ضَراً مـن الأَلـمِ

أَسْتَغْفِرُ الله غَفَّار الذُنُوب لِمـن بالإنْكِسارِ أَتَى و الذُلّ و النَّدَم

أَستَغْفِر الله ستَّار العيوب عـلَى أَهْلِ العيوب ومنْجيهم من النِّقَمِ[3].

---

[1] شهاب الدين أحمد بن يحي،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح:إبراهيم صالح، إصدارات المجمع الثقافي ،أبو ظبي، ج5،ص586

[2] عبد الحق الإشبيلي، العاقبة في ذكر الموت،تح: خضر محمد خضر،مكتبة دار الأقصر،الكويت،ط1 ،1986، ص79

[3] سيد أحمد سقال، سيدي أبو مدين شعيب، نبذة من حياته ومقتطفات من ديوانه، نشر ابن خلدون،تلمسان، 2011،ص116.

6. شعر التصوف الفلسفي :

اعتمد فيه الصوفية على الرمز والإيحاءات والإشارات للتعبيرعن اتجاهاتهم في الإشراق ووحدة الوجود والوحدة المطلقة الذي يغلب عليه طابع الصور البيانية والمحسنات البديعية والتي تميل إلى الغموض كما نجد عاطفة الحب الإلهي التي يهيمون بها حتى السكر . وكذا توظيفهم للألفاظ الغزلية والخمريات للتعبير عن حقائقهم الصوفية .

وفي ذلك قول شعيب التلمساني واصفا الخمرة الأزلية :[1]

وأَبــدَتْ لَنَـا فِي كُـلِ شَيءٍ إِشَـارة وما احتجبتَ إلا بِأَنْفُسِنا عَنَـا

فَلَـم تُطق الإفْـهَـام تَـعبير كُنْـهِهَـا ولَكِنَّهَا لاذَتْ بِأَوصَـافِهَا الحسنَى

نَـصحتُكَ لاَ تَقْـصِدْ سِـوى بَـاب حَانِهَا فَمن وجدَ الأَعْلَى لاَ يطْلُب الأَدْنَـى

إن شعر التصوف أخذ الطابع الفلسفي مع ذلك حافظ على جماليته .

سادسا: خصائص القصيدة الصوفية :

أ . الغموض :

تتميز لغة الصوفي بالغموض الذي يعتبر أحد جماليات النص الصوفي والتي تكشف عن الحقيقة ومن ثم فإن التعبير عن هذه الحقيقة لا يمكن أن تكون إلا بلغة الباطن والإشارة ولذلك فإن تلك الجمالية بالغيب والباطن وتغييب العقل والمنطق ويلتمس بذلك التجربة الذوقية، وهذا الغموض يتضح من خلال توظيفهم للخمرة والمرأة التي تملء أشعارهم والمتتبع للنص الصوفي يلاحظ ذكرهم للخمرة التي ترمز للوجد الصوفي، والنديم للعارف والسالك، فقد أخذوا تلك الصفات المحسوسة وأعادوا صياغتها بما يتناسب مع أحوالهم وأذواقهم . فالخمر حين فك شفرات رموزها تدل على التوحيد الخالص وشهود الحق

[1] سيد أحمد سقال، سيدي أبو مدين شعيب،نبذة من حياته ومقتطفات من ديوانه،ص113.

بالحقوالتحقق في فناء ما سواه ولا يستطيع فك هذه الرموز إلا أصحاب هذه الطريق بالإضافة إلى رمز الطبيعة، المرأة ،.....

يقول في هذا أبو الحسن الششتري[1] :

غَيْر لَيْــلَى لَم ير فِي الحيِ حــيُّسل متى ما رتَّبتَ عِنْدَهَا كــلَّ شَــي

كُــلُّ شـــيءٍ سِرُّهَــا فِي سِــرِي فـهِــذَا يشنِي عــلَيهَا كـــلَّ شـــي

قــالَ من أَشْهـدَ معْنى حسنِهــا إنَّـــهَ مــنْتَشِر والـــكــلُّ طـــي

هِـي كـالشّمسِ تِلاَلاً نـــورهــا فَمتَى مـــا أَنْ تَرمه عـــادَ فـــي

هِـــي كَـالْمرآة تُبـــدِي صـــوراً قــابــلْتــهَا ويهَا مـــا حــلَّ شَــي

هِـــي مِثْل الـــعيْنِ لاَ لونَ لـهـا وبِهـــا الأَلـوانُ تـبـــدِي كُــلَّ زَي

لِبسهــا ما أَظْهرتْ مِـن لِـبسِهـا فـــلَـهَا فِي كُلِ مـوجـــود مـــرِي

أَسلَفْتَ يـــوماً لِـقَيسٍ فـانْثَنى قـــائِلاً يـا قـومِ لِـم أحـببتَ سِوى

أَنـــا لـيلَى وهِـي قَيس فَـاعْجبوا كَيفَ مِـنِي كَـانَ مطْلُـوبِي إلَـــي

و هذا الإشتقاق الرمزي يرجع إلى المفهوم الصوفي، إنما هو تجلي للجمال الإلهي الذاتي، فتلك المحبوبة العربية لا تتعدى كونها إشارة أو رمز حسي للجمال الأزلي .

ب . التجديد :

[1] أبو الحسن الششتري،الديوان،تح: علي سامي النشار دار المعارف ،الإسكندرية،ط1، ص822 .

ويظهر ذلك من خلال استحداث أنماط جديدة في استفتاح القصائد كالبدء بالغزل ومن ذلك قول أبي مدين التلمساني في مقدمته الخمرية [1].

ادرهـــا لَنا صِـــرفاً ودعْ مزجـــها عَنَّا فَنَحن أُناس لاَ نرى المَزج مذْكنَّا

وغَنِ لَنا فَالْوقْتَ قَدْ طَاب باسْمِها لأَنَّـا إلَيهَـا قَـدْ رحلْنا بِهَـا عَنَّـا

عَرِفْنا بِهَـا كـل الوجود ولَم نَـزلْ إلاَ أَنْ بِهَا كـلَّ المعـارِف انْكَرنَـا

هيي الخَمر لَم تَعرِفْ بِكَرم يـخصا ولَم يُجلبها راح ولَم تَعرِفْ الـدُنَـا

و خمرية أبي الحسن الششتري [2] :

طَاب شُرب المُدَام فِي الخَلوات اسقِني يا نـديم بالآنيـات

خَمْـرةٌ تَركُها عـلَينَا حـرام لَيس فِيهـا إثم ولاَ شُبهات

ومن ذلك قول أبي مدين في غزليته [من الطويل] [3] :

يُحرِّكُنَا ذكْر الأَحـاديث عَنـكُم ولَولاَ هواكُم فِي الحشَا ما تَحرَّكْنَا

فَقُل لِلَذي ينْهى عَنِ الوجْد أَهْلَه إذَا لَم تَذُقْ معْنى شَراب الهوى دَعْنَا

إذَا اهْتَزَّتْ الأَرواح شَوقاً إلَى اللّقَا تَرقَّصتْ الأَشْبَاح يا جَاهل المَعْنى

مَا تَنْظُر الطَيْر المُقَفَّص يا فَتَى إذَا ذكْر الأَوطَان حنَّ إلَى المَغْنى

[1] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري، ص 359 .

[2] أبو الحسن الششتري ،الديوان، ص35 .36 .

[3] نص الرسالة لإبن عربي منشورة في مجلة البلاغة المقارنة ،ألف عدد5 ،1985،ص24 ،انظر النص نفسه محرفا ،أبو مدين الغوث ،ص138 .

يفْـــرج بـالتغْرِيـد مـــا يـــفُؤَاده فَتَضْطَرِب الأَعْضَاء فِي الحِسِ والمَـعْنَـى
ويرقُص فِي الأَقْفَاصِ شَوقاً إِلَى اللّقـا فَتَـــهْتَز أَربـاب العقُـــول إِذَا غَنَّـى
كـذَلِكَ أَرواح المُـحِبّين يـــا فَتَـــى تُهَزِّزهَـا الأَشـواقُ لِلْـعـــالَمِ الأَسـني
انلْزِمهَا بِالصَّبْرِ وهـــي مـشُوقَـــةٌ وهَل يستَطِيع الصَّبْر مـن شَـاهَدَ المَـعْنى؟

كما نلتمس هذا التجديد في استنساخ الموشح الصوفي على غرار الموشح الأندلسي الذي هو علامة مميزة للأدب الأندلسي، ومن موشحات أبي مدين التلمساني التي تجسد موضوع الحب الإلهي قوله[1]:

زَارِني حـــبِيبِي طَابتْ أَوقـاتِي وسـمِيـح لِـي الحـــبِيبث
وعَـــفـا عَـن جـمِيعِ زَلاتـي عـلـى غـيـظ الـــرَّقِـيـب
زَارنِي منْيتِي وزَالَ الـــلّبَـاس وسَمَـــح يـالـــتَّوصـــال
وحضَر حصْرتِي ودَار الكَـــاس وبـــلَـــغـــتَ الآمـــالَ
وشَرِبنَا وطَابتْ الأَنْـــفَـاس مِـــن مـــدَام حـــلاَل

يقول في هذا الموشح [2] :

كَـما قُـلْتَ بقـــربِي تَنْطَفِي نِيـــرانُ قَـلْـبِـي

[1] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل) دراسة ،من منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق،2002 ،ص85 . 86 .

[2] أبو الحسن الششتري،الديوان ،ص360 . 362 .

زَادَنِي الـوصـل لَهِيباً هَكَـذَا حَـالُ الْمُحِبّ
لاَ بِـوصْلي اتَسـلَى لاَ ولَا بالْهَجْـرِ انْسـى
لَيْـس لِلْعِشْـقِ دَواء فَـاحْتَسِبْ عَـقْلاً ونَـفْسـاً
انَّنِي أَسْـلَمتَ أَمْـرِي فِي الهوى معنى وحِـسـاً
ما بـقَى إلاَ التَّفـانِي حُـبذَا فِي الحُـبّ نَحْبِي
إنَّـنِي بالْمَـوت راضٍ هَكَـذَا حَـالُ الْمُحِبّ
يا حَـبِيبِي بِحَيَاتِـكَ بِحَيَـاتِكَ يَـا حَـبِيبِي
رِقَّ لِي وانْظُر لِحَـالِي أَنْـتَ أَدْرى بِـالَّـذِي بِي
أَنْـتَ دَائِـي ودَوائِـي فَتَلَطَّـفْ يَـا طَبِيبِي
لَن يَـكُن يَـرضِيكَ قَتْلِي فَـاجْعَـلِ القَتْـل بِقُـرْبِي
إنَّنِي بِـالْوَصْـلِ أَفْنَى هَكَـذَا حَـالُ الْمُحِبّ
قَـدْ سَلَيْـتُم وِدَادِي يَـا مَـلاح الحَـيِ نَـفْسِي
إنّـما يَسـبِي فُـؤَادِي غَيْر تَـأَلُّفِـي وأُنْـسِـي
فَبِـهَـذَا زَادَ عِـشْقـاً ورِضِي بِـالْعِشْقِ صَـحْبِي
وتَـفَـانَـيْنَا جَمِيعاً هَـكَـذَا حَـالُ الْمُحِبّ
أَنْتَ فِي كُـلِ جَمِيـل وجَمَـالِي يَـامَـطَاعَ
قَـدْ تَجَلَيْتَ لِقَـلْبِي مَـسْفِـراً دُونَ قِـنَـاعِ
وعَلى عِشْقِ الجَـمَـال طَـبْـعِ اللهِ طَـبَـاعَ
آه يا تَمْزِيـقِض قَـلْبِـي آه يَـا قَـتْـلِي وسَلْبِي
مِتْ مِـن لُطْفِ الشَّمَائِلِ هَـكَـذَا حَـالُ الْمُحِبُّ
كُـل صَـب مَـاتَ وَجْـداً يَـشْتَـكِي حَـر الـدَلاَل
وأَنَـا بِالْـعِشْقِ وَحْـدِي نَـشْتَـكِي بَـرْدَ الوِصَـال

نـاسب اللُّـطْفُ وجَــدي فـــتَـفـــاني بـالجْمـال
عِـشْتَ طُولَ الدَّهْرِ فَـاني مستَهَـام الـعقْـلِ مســبِي
طـــيّب العيشِ خـلِيعاً هَكـــذَا حـــالُ المُحـــبّ

ج . المعجم الصوفي :

لغة أهل التصوف مشبعة بالمصطلحات الصوفية ولا نكاد نجد بيتا شعريا إلا وقد وظفت فيه هذه المصطلحات ورموز الشعر الصوفي، وهي نفس المصطلحات التي أجمع عليها القوم وباحوا بها للتدليل بها على مقاصدهم الوجدانية، والتي كشفوا عن دلالاتها للمريدين ،ويظهر هذا من خلال مؤلفات كثيرة، كاللمع للطوسي، والرسالة القشيرية، وكتابي " اصطلاحات الصوفية" لابن عربي والقاشاني .

يقول أبو الحسن الششتري (من البسيط)[1]

فَجر المَعارف في شَرق الهدى وضَحا بسمِـــل بكَاسِك هــذَا اليوم مفْتَيحاً
يـــوم تَنزه عــن أَيـــام عـادتِنـا وعــن أَصيلٍ فَـما تُلْفيه غَيْر ضَحـى
إنْ كُنْتَ تَنْصِفُه فَاخْلَع عَــذَارِكَ فِي زَمانه الفَــردَ لاَ تَنْفَـكَ مــصْطَبِحاً
واشْـرب وزَمزِم ولَا تَلْوِي عَلَى أَحــد ولَا تَعرُّج عــلَى منء ذَاقَ ثُمَّ صــحا
وبِــع ثِيابك في جريالِه شــغَــــفاً واجعل نَديمَك من أَفْكَارِكَ القــدحا
فَإِنْ تَجوهرت فَاشْطَح فَالسُّكُونُ هنَـا لاَ ينْبغِي إِؤمَا السَّكْــرانُ من شـطَحا
يـــا حبذَا كُلُّ من أَبْـدَى مـــواجِـدَه ولَم يعربِـدْ وقَــالَ الحـقّ وافْتَـضَحا
ومالَ لِلصَّحوِ بـعْدَ المَحوِ واتحَـــدتْ أَخْبـارُه وغَـــدَا لِلشَّـفْعِ مـطّرِحـــا
وقُـل لِـمن جـدّ فِي نُصحِي فَدَيتُك لاَ تَنْـصح فَقَدْ عَدْتَ لاَ أَصْغِي لِمن نَصحـا.

[1] أبو الحسن الششتري، الديوان،ص33

من خلال الأبيات يتبين غموض اللغة الصوفية التي استعملها الششتري في العبارات التالية (الصحو . المواجد . الشطح . المحو . السكون . الشفع . السكر.....) وهي مصطلحات خاصة بأهل التصوف .

يقول أبو الحسن الششتري (زجل لهجته فصحى مع مظاهر أندلسية)[1]

اسْمَعْ كَلَامي والتهم إنْ كُنْتَ تفْـهَام
لِأَنَّ كَنْزَكَ قَدْ عَـرى عَـن كُـلَّ طَلْسم
مِنْهُ المكلم والـكَلِيم عَلَى طُورِ الأَفْهَام
اسْمَعْ نِدَاي من قَرِيب بِـــلَا أَذَان
وشَمْس ذَاتِي لَا تَغِيب عَـنِ الـعيـان
انْظُر جَمَالِي شَـاهِدْ فِي كُـلِ إنْسان
وكَالْمَاء يَجْرِي نَافِذاً فِي أُسِ الأَغْصان
يسقى بِمَـاء واحِـد والـزَّهْـر أَلْـوانْ

وقوله أيضا :[2]

رأَيْنَاكَ فِي كُلِ أَمْـر بدَا ولَيس من الأَمرِ شَيء لَنَـا
سترَتْ اسْمَكُم غَيْرَةً هَـا أَنَا أُمْـوه بِـالشَّعب والْمُنحنى
إِذَا كُنْتَ فِي كُلِ حال معِي فَعن حَمْلِ زَادِيأَنَا فِي غِنى
فَأَنْتم هُـم الحقُّ لَا غَيْرَكُم فَيا لَيْتَ شِـعْرِي أَنَا من أَنَـا

من خلالالأبيات يؤكد الششتري على الواحد الموجود حقيقة وضرورة، بل هو الوجود كله وما عداه أوهام زائلة .

د . الناحية العروضية :

[1] أبو حسن الششتري، الديوان،ص267 . 268 .

[2] المرجع نفسه، ص69 .

جاءت معظم الأشعار الصوفية من البحور المتعارف عليها، كالطويل والوافر والكامل والبسيط . لما تتصف به هذه البحور من اتساع يعطي للشاعر من خلاله كمية كبيرة من السواكن والمتحركات، كما يعطيه مجالا للتعبير عن أغراضه . والشاعر الصوفي يبتعد بذلك عن اللغة المتكلفة ليبهر به الفصحاء، وإنما يكتفي بالتعبير عن طريق الأبيات الشعرية عما يجوب في مكنونات الوجدومثالا عن ذلك ما تؤكده إحصائية التي أجريت على ديوان أبي الحسن الششتري فطغت البحور الواردة سابقا عن بقية البحور كما يبين الجدول التالي[1] :

الرقم	البحـــــــور	النسبة المئويـــــــــــة
01	البسيط	%36
02	الطويل	%24
03	الرمل	%24
04	الخفيف	%16
05	الكامل	%16
06	الوافر	%16
07	السريع	%08
08	المتقارب	%08
09	الرجز	%04
10	المجتث	%04
11	المنسرح	%04

- **أسلوب التناص في قصائد أبي مدين شعيب:**

[1] رابح محوي، الأبعاد الفكرية والفنية للشعر الصوفي بحاضرة بجاية في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه، تخصص أدب جزائري قديم، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب واللغة العربية، إشراف عبد الرحمن تبرماسين، السنة الجامعية 2015 .2016م ،ص63.

اهتمت الدراسات النقدية الحديثة بموضوع "التناص" الذي يعتمد على تقاطع النصوص ،أو ما يسمى بحوار النصوص فيما بينها. " إذ تذهب فكرة التناص النقدية ، إلى أن النص المعين المقروء ،لا يمكن فهمه دون الرجوع إلى عشرات النصوص التي سبقته أو أسهمت في خلقه وتكوينه" .

وبذلك جعلت منه إجراء ،لا يقل أهمية عن الإجراءات الأسلوبية الأخرى، في فهم النص ومقاربته مقاربة أسلوبيةوسيميائية"[1].

وأسلوب التناص بدى واضحا في نصوصه رضي الله تعالى عنه وهذا ما سنحاول توضيحه:

أ- التناص القرآني:

فمن اقتباساته من القرآن الكريم : يقول أبو مدين شعيب في قصيدته (لَست أَنْسى الأَحباب ما دمت حيا):

واستَجِب في الهوى دعَائي فَإِنّي لَم أَكُن بالدّعاء رب شَقِيـــا[2]

ويظهر التناص من خلال قوله (لم أكن بالدعاء رب شقيا) فهو مقتبس من قوله تعالى ﴿**لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾ مريم الآية :4.

كما يقول رضي الله عنه:

أَنَا من عَاذِلِي وصبْرِي وقَلْبِي حائر أَيُّهم أَشَـــدَّ عَنِيـــا[3]

[1] د. مختار حبار ،شعر أبي مدين التلمساني(الرؤيا والتشكيل)، اتحاد الكتاب العرب،دمشق،2002، ص165.

[2] سيد أحمد سقال، سيدي أبو مدين شعيب،ص 70.

[3] المرجع نفسه،ص 70.

ويظهر التناص في قوله (أيهم أشد عتيا) فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ مريم الآية: 69.

أما في قصيدته (يا قَلْب زرت وما انْطَوى ذَاكَ الجوى):

وبِقَاب قَوسيْنِ الذي هو قَدْ دَنَا من ربِّه ذُو مرَّة ثُمَّ استَوى[1]

يظهر التناص من خلال قوله (وبقاب قوسين الذي هو قد دنا) و (ذو مرة ثم استوى)، والذي هو مقتبس من قول الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ النجم الآية :9. و قوله تعالى ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ النجم الآية:6.

ب- التناص الشعري:

كذلك نرى أن أبا مدين تأثر بالشعر العذري، ومن بين الشعراء الذين نسج قصائده على منوالهم نجد "قيس بن الملوح"، وهذا ما يظهر لنا خلال تناصه في قصيدة (تذللت في البلدان) التي نظمها على طريقة "قيس بن الملوح" في قصيدته (متى يشتفي منك الفؤاد المعذب).

يقول أبو مدين شعيب في قصيدته[2]:

وَلَكنَّ لِي قلْبا تَمَلَّكَهُ الْهَوى فلا الْعيش يهنا لِي ولا الْموتَ أَقْرب

كَعصْفُورَة فِي كَفّ طفْلٍ يضَمُّهَا تَذُوقُ سياقَ الْمَوْت والطفْلُ يلْعب

فَلا الطفْل ذُو عَقْلٍ يَحنُّ لما بِهَا ولا الطَّيْرُ ذُو رِيشٍ يَطير فيذهب

[1] سيد أحمد سقال، سيدي أبو مدين شعيب، ص 74.

[2] المرجع نفسه،ص 58.

تَسمَّيتَ بِالْمَجْنُون منْ أَلَمِ الْهَوى وصارتْ بِي الْأَمْثَالُ فِي الْحَيِ تُضْرب

فيا معْشَر الْعُشَّاق موتُوا صبابةً كَما ماتَ بالهجْران قيس المعذَّبُ

فالتداخل النصي واضح في قصيدة قيس بن الملوح والتي يقول فيها[1]:

فَبعدٌ ووجدٌ واشْتياق ورجْــفَــةٌ فلا أَنْت تــدنيني ولا أَنَــا أقْرب

كَعَصْفُورَةٍ فِي كفّ طفْلٍ يزمهَــا تَذُوقَ حيَاضَ الْمَوْت والطفل يلْعب

فلا الطفْل ذُو عَقْلٍ يرِقُّ لما بهَا ولاالطــَّيْرُذُوريشيَطيرفَيَذْهَبُ

فالتداخل النصي واضح مع قصيدة مجنون ليلى، فـ "أبو مدين" نظمها على نفس طريقة قيس ،إلا أن الإختلاف يكمن في أن موضوع قصيدة أبو مدين هو الحب العذري المتمثل في الحب الإلهي، أما قصيدة "قيس بن الملوح" فموضوعها حب وتغزل بإمرأة والذي هو حب بشري.

سابعا: جمالية اللغة الصوفية ومستواها:

- **نظرة عن الديوان :**

عاش أبو مدين شعيب .كما جاء في الفصل الأول . حياة حافلة بطلب العلم والتعليم، اكتسب خلالها كثيرا من العلوم النقلية والعقلية، إلا أن مؤلفاته تعد قليلة نسبة لتلك الحياة الحافلة، ويعود السبب الرئيسي وراء ذلك كما أسلفنا الذكر انشغاله بالدعوة وتعليم النشىء والمريدين، فهذا كان عائقا نحو اتجاهه للتأليف، إضافة إلى ضياع بعض مؤلفاته، وعدم وصول بعضها إلى أيدي الباحثين والدارسين في هذا المجال .

ولعل من أبرز تلك المؤلفات، والتي تم جمعها بعد وفاته بقرون، وهو ديوانه، الذي ضم جميع أشعاره، وترتيبه، بما فيها من أزجال وموشحات، الشيخ الزاهد (العربي بن مصطفى الشوار التلمساني)، رئيس

[1] قيس بن الملوح،مجنون ليلى ،الديوان،تح: عبد الستار أحمد فرج،دار مصر للطباعة، القاهرة، ص21.

الزاوية العلوية بنهج الحدادين بتلمسان، سابقا . وقد قام بنشره، نجله العارف بالله (محمد بن العربي بن مصطفى التشّوار)، وذلك عام(1938 م)، بمطبعة الترقي بدمشق، وهي الطبعة الأولى الوحيدة حسب رأي الدكتور " مختار حبّار)، وقد اعتنى بتصحيحه " عبد ربه محمد بن أحمد بنالهاشمي بن عبد الرحمن التلمساني الدّمشقي " .

الديوان من الحجم المتوسط، ويقع في حوالي ثلاثة ومائة صفحة (103)، حيث جمع فيه الشيخ "العربي التشوار" ما وقع في يده، من أشعار" أبي مدين شعيب "، "وقد صدّر الديوان قبل ذلك كله، بترجمة للشيخ (العربي التشوار)، كل ذلك في أربعة وأربعين صفحة، كما ضمن الديوان بعض حكمه النّثرية، حيث جاءت في أحد عشر صفحة، ثم قصائدة، وقد بلغت في الديوان اثني وعشرين قصيدة، منها خمسة مقطعات، في ثلاثة عشر صفحة، كما ضم الديوان الموشحات والأزجال، وقد بلغت سبعا وعشرين، بين موشّح وزجل في ست وعشرين صفحة، وفي الأخير ختمه بقصيدة مدحية، للفقيه المحدّث الصوفي قاضي تلمسان الشيخ (شعيب بن الحاج بن علي بن عبد الله الجليلي الحسني)، ثم تليها فهارس الديوان، في ثمانية صفحات ،و الصفحة الأخيرة ضمنها ل (شطرنج العارفين) المنسوب للشيخ الأكبر.هذا ما احتوى عليه ديوان أبي مدين شعيب "[1].

الديوان .كما أشار إلى ذلك د/مختار حبار . لازال في حاجة ماسة إلى إعادة تحقيق لشعره ونثره، لتوثيق ما به من قصائد، لأن هناك مجموعة كبيرة من القصائد ،و بخاصة الموشحات [2].

والأزجال ،كثير منها ينسب (للششتري)،حيث أشار جامع الديوان ،الشيخ "العربي الشوار" إلى بعض القصائد الموجودة في الديوان لكنها تنسب للششتري، كالقصيدة التي مطلعها:

يا من عَلَا فَرأَى ما فِي الوجود وما تَحْتَ الثَّرى ،و ظَلاَم اللّيلِ منْسدلُ

[1] جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، ماجستير، الطالب حمزة حمادة ،جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، الأدب الجزائري القديم ،إشراف أحمد موساوي، 2007.2008 ،ص 83.84 .

[2] ينظر مقدمة الديوان، أبو مدين شعيب ،جمع وترتيب ،العربي بن مصطفى التشّوار / مطبعة الترقي دمشق ،ط1 ،1938.

يقول أنها مذكورة في ديوان "عبد الغني النابلسي "،منسوبة للشيخ "أرسلان" الدمشقي بلفظ (يا من علا فرأى ما في الغيوب وما ..)[1].

و الموشح الذي مطلعه :

كُل واحد لَهَ نَصيب يأْتِي وهَـــواكَ لِي نَـــــصيب

يقول أيضا أنه موجود فيديوان الششتري , والزجل الذي مطلعه :

قَدْ لاَح لِي ما غَاب عَنِي وشَمْلِي مَجْموعٌ ولاَ افْتِرَاقُ

من "شرح المباحث الأصلية" لـ "بن عجيبة" ومنسوب للششتري [2].

وفي هذا يفنّد " د. مختار حبار " الرأي القائل، بفضل السبق في استخدام الموشحات والأزجال في التصوف لـ " محي الدين بن عربي، وأبي الحسن الششتري "، حيث ترى بعض الآراء " أنّ ما ينسب لأبي مدين من هذا الفن، هو في غالبه لأبي الحسن الششتري، وهي وجهة نظر إذا صحت فإنها لا تنف سبق أبي مدين لنظم الموشح الصوفي فحسب، ولكنّها تنفي أيضا أن يكون الرجل قد نظم الموشح، مثلما نظم القصيدة التقليدية، وهي وجهة نظر خطيرة، إذ بموجبها ينبغي شطب ثمانية عشرة موشحا منسوبة لأبي مدين، ومثبتة كلها في ديوانه دفعة واحدة..و هو الأمر الذي لا نرجحه ولانذهب معه، في غياب التحقيق والتوثيق العلمي " [3] .

---

[1] الديوان، ص 100 .

[2] ينظر الديوان ،ص 100.101 .

[3] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)،دار القدس ،تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية،وهران،2011، ص11 .

وعليه فإن إعادة تحقيق الديوان أمر ضروري خصوصا مع اختلاف وجهات النظر ،والتي لا تعتمد على سند علمي وثيق. وهناك قصائد غير موجودة في الديوان مع ذلك تنسب إلى أبي مدين، منها مقطوعة في في خمسة أبيات مطلعها :

جِئْتُ مستخفياً وقد عرفوني هَا أنا تَائبٌ تُرَى يَقْبلوني

المقطوعة موجودة في كتاب " التشوف الى رجال التصوف " للتادلي، (ص334)، وهي تنسب لأبي مدين. ومن أشهر مطولاته خمريته التي تأثر بها كبار المتصوفة أمثال " ابن الفارض "، فقد أشار إليها "د.عاطف جودة نصر " في كتابه " الرمز الشعري عند المتصوفة "، ونص القصيدة موجودٌ في مخطوط، ضمن مجموعة بمكتبة الأزهر تحت رقم (622)7217 .

وقصيدة أخرى مطلعها :

قَدْ زَادَ فيك منَ الغَرام تَلهُّفي فإلى مَتَى هَذا الجَفا يَا مُتْلفي

والقصيدة موجودة في كتاب " العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب " للأستاذ "محمد الطاهر علاوي " وأشار أن القصيدة موجودة ضمن "المجموعة النبهانية في المدائح النبوية " الجزء الثاني ،ص 379 . 380 .وهي أيضا تنسب لأبي مدين .

كما أورد الأستاذ "محمد الطاهر علاوي " في نفس الكتاب، أربعة قصائد كلها تنسب لأبي مدين شعيب،دون أن يشير إلى مضانّها، منها قصيدة مطلعها :

أتَاني زَماني بمَا ارتضي فبالله يا دَهْر لَا تَنْقضي

وأخرى في استغفار أبي مدين من (39) بيت، مطلعها :

استَغْفِر الله مُجْرِي الفُلْكَ في الظُلَمعـــلَى باب من التيَّار ملْتَطِم

وهي قصيدة تبتدأ من أول بيت فيها إلى آخر بيت بجملة واحدة هي (استغفر الله)...

وقصيدة أخرى مطلعها :

يا من يغيثُ الورى من بعد ما قَنطُوا ارحم عَبيداً اكُفَّ الفَقْرِ قَدْ بسطُوا.

وأخرى مطلعها :

أَيا من تَعالَى مَجْدُهَ فَتكَبَّرا وجل جلَالُ قَدْرهَ أَنْ يقَدَّرا

فهي سبع قصائد تقليدية فصيحة، خارج الديوان ،رأيت من ضرورة البحث وتكامله أن أضمها إلى مجموعة الديوان، فبعضها يتضمن الكثير من المزايا الأسلوبية والجمالية التي تدخل في هذا المجال، ويجدر الوقوف عندها بتأن .

وما يمكن أن نشير إليه في الأخير، أن البحث لم يتناول صحة هذه القصائد أم تلك، من عدم نسبتها، لأبي مدين أو لغيره، وإنما التعامل مع تلك القصائد، على أنها لأبي مدين فحسب . فمستوى بعض القصائد من تلك التي لا نزاع ولا شك في نسبتها لأبي مدين، من حيث لغتها وأسلوبها المتميزين ،لا يجعلنا نشك في أن أبا مدين يعجز عن كتابة الموشح أو الزجل، ويجعلنا نذهب الذي يرى أنّ أبا مدين " قد نظم الموشّح والزجل، إلى جانب القصيدة التقليدية، وأنّه قد سبق ابن عربي والششتري إلى نظمها، وذلك لأن المدرسة المدينية في بجاية التي تردد عليها وأخذ منها، كان لها أثرها في الأخذ الصوفي، والتقليد الفني معا "[1].

***جمالية اللغة الصوفية ومستوياتها :**

قال ابن عربي :

عِلْم الإشَارة تَقْريب وإبعـاد وسيرهَا فيـــك تـأْويب واسنَاد
ما بَحتَ عَلَيه فإنّ الله صيَّرَه لِمن يقُوم بـهِإفْـك وإلْحـــاد

[1] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني، (الرؤيا والتشكيل)، ص 11

تَنْبِيهَ عِصْمةُ من قَالَ الإِلَه لَه كُن فَاستَوى كَائِناً والقَوم إشْهَادَ[1]

وقال ابن الفارض :

وغَنّي بالتَّلْويحِ يفْهَم ذَائِق غَني عــن التَّصريح للْمتعنّت
بِهَا لَم يبح دمــه وفِي الـ إشَارة معنى، ما العبارة حدّثْ[2]

هكذا لخص "ابن عربي" و"ابن الفارض"، لغة التصوف وحصراها في مستوى أساسي هو(الإشارة) أو (التلويح)، هذه اللغة العميقة المعنى والمفعمة بالدلالات، التى تعارف عليها القوم .

منذ نشأة التصوف، مرت هذه اللغة بمراحل جعلتها تتطور، وقد كان للأحداث العنيفة التي تعرض لها كبار المتصوفة من أمثال " أبي منصور الحلاج " و"السهروردي"، وغيرهما، دور في تطور هذه اللغة خاصة، ودور في نضج المذهب أو الحركة الصوفية بوجه عام. وكانت إحدى الأسباب التي دفعت الصوفية إلى توظيف بعض أغراض الشعر العربي المتعارف عليها،كالغزل الذي يقابله الحب الإلهي ،هروبا من ذلك الضغط والتعسف الذي سلطه عليه الحكام بتحريض من بعض خصوم الصوفية .

كل تلك القضايا، وما كان فيها من ظلم وقهر، إلا أنها كما يرى . خدمت الحركة الصوفية، حيث مكنتها بناء خلفيتها، وسط هذا المجتمع الرافض لأفكارها، حتى تضمن الإستمرار،وقد تجلى هذا التطور، من خلال اللغة، التي انتقلت من لغة العبارة المعلومة لدى العامة والمرفوضة في نفس الوقت لسوء الفهم، إلى لغة الإشارة والتلميح، المبهمة عند عامة الناس، والمفهومة لدى الصوفي .

فاللغة االصوفية لغة تعتمد على الرمز، الذي يكسوها طابع الغموض والذي مرده . حسب بعض الدارسين . إلى ذلك الحضر الذي فرض عليها، وإلى الهجوم الذي سلط على شيوخها ومريديها، فاختاروا الهروب وراء تلك اللغة، حتى يسلم من ذلك العذاب . إلا أن تلك الكثافة اللغوية وذلك التلاعب

[1] ابن عربي، الفتوحات المكية، طبعة الكترونية ،مكتبة المصطفى www.al-mostafa .com ،ص 294 .
[2] ابن الفارض، الديوان، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة المصرية، بيروت، 2008 ،ص 55 .

بالألفاظ، وكثرة استخدام الرموز، يرتقي باللغة الصوفية من مجرد الإختباء وراء الحرف هربا من ظلم الحاكم وتسلط الفقهاء التيار المضاد الصوفي ويجعل منها " تجربة مفارقة تتأسس على عنصرين أساسيين : عنصر جمالي وآخر تراجيدي "[1].

فخصوصية اللغة الصوفية، تنأى بنفسها كثيرا عن ما يعتقده البعض، في كونها وليدة ظروف نفسية وإجتماعية فقط، بل تأخذ أبعادا أخرى، تقوم على عنصرين أساسيين، عنصر جمالي، وآخر تراجيدي، هذا الأخير يفسره كون الصوفي " يحس بأنّ وجوده مؤسس على الانفصام والإغتراب عن أصوله البدائية، التي هي الألوهية (أصل الروح)، والطبيعة الترابية (أصل الجسد) ،هذا الإحساس بالإنفصام، يفسر من جهة أخرى معاناة الصوفي والنزعة البكائية التي تطغى على الكثير من النصوص الشعرية "[2].

هذا الإنفصام الذي يعيشه الصوفي، بين الألوهية والطبيعة، والإغتراب عن الأصل، كون عنده تلك النزعة البكائية، حيث جعلته يقف موقفا تراجيديا من الوجود، في المقابل الحس الجمالي يعطي الصوفي حب الحياة والرغبة في الإستمرار .

وقد مرت اللغة الصوفية ـ حتى وصلت إلينا بهذا المستوى ـ بثلاث مراحل :

الأولى: "كانت فيها اللغة الصوفية بسيطة بساطة تجربة الصوفي نفسه، تلك التجربة التي كان يساعده القرآن على تبلورها، من خلال التلاوة، فالتجربة الصوفية وليدة التفكر في القرآن، والإكثار من تلاوته، واستعادة بعض ألفاظه، كالمحبة والقرب والشوق، وهنا يمكن القول ،أن التصوف نشأ نشأة إسلامية خاصة " [3]، فلغة التصوف ترتبط ارتباطا وثيقا بالتجربة الصوفية، ولما كانت هذه الأخيرة بسيطة في بداياتها، كانت اللغة الصوفية بسيطة أيضا، والتجربة الصوفية تستمدّ طاقتها، وتجددها من القرآن الكريم ،ما يفسر أن التصوف، إسلامي النشأة، على عكس ما يعتقده آخرون، في أنه نشأ متأثرا بالديانة

[1] منصف عبد الحق، الكتابة والتجربة الصوفية ،نموذج محي الدين بن عربي، منشورات عكاظ، الرباط، 1988 ،ص10 .

[2] المرجع نفسه، ص10 .

[3] حميدي خميسي، اللغة الصوفية، اللغة الصوفية ،مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، عدد 10 ، ديسمبر1996 .ص 36 ـ 37 .

المسيحية خاصة في الحب الإلهي، أو البوذية، في قضية الحلول، قد يكون استمدّ في وقت متأخر من نشأته بعض طقوسهما، لكن في حقيقة الأمر أنّ نشأته إسلامية خالصة .

أما الثانية : فقد بلغت فيها " التجربة الصوفية أشدها، ويصبح لها كيانها الخاص، ولغتها الخاصة، بما فيها من عبارات وإشارات ورموز، وفي هذه المرحلة أصبحت التجربة خلاّقة، تأتي بمعطيات جديدة لم تكن في القرآن، وتساعد الصوفي على النظر إلى كل شيء نظرة تأويلية، أصيلة " [1].

وعليه تصبح التجربة الصوفية أكثر استقلالية، ويصير لها كيانها الخاص، بعدما كانت مرتبطة بالقرآن الكريم، تستقي منه بعض ألفاظه وتكثر من تلاوته والتدبر فيه، لتصير تجربته خلاقة تأتي بأشياء جديدة، غير التي توجد في القرآن . وبتطور التجربة الصوفية تطورت لغة التصوف، وصارت تأول الأشياء وتعتمد الإستبطان والتأويل، ومن المتصوفة الذين مثلوا هذه المرحلة،" الحلاج "و"ابن عطاء الله السكندري ".

أما المرحلة الثالثة : فقد بلغت " الرؤية الصوفية أقصاها، وتبدأ مع منتصف القرن الرابع، ويمثلها أحسن تمثيل " النّفّري"، وينتقل الصوفي من التّفكّر في القرآن، إلى مخاطبة الله ....و يمتزج في هذه اللغة الرمز والإشارة، ويكسوها الغموض والإبهام، وتصبح لغة مستغلقَ حتى على ذهن الخواص، لأن الصوفي وصل من خلالها إلى مرحلة ما لا يقال "[2].

إذن في المرحلة الأخيرة، تصل التجربة الصوفية إلى ذروتها، حيث يتجاوز الصوفي فيها مرحلة التدّبر، والتفكّر في القرآن، إلى مرحلة مخاطبة الله، وفي هذا المستوى يختلط في اللغة الصوفية الرمز بالإشارة، وتحاط بهالة من الغموض والإنغلاق، ممّا يصعب على المتصوفة أنفسهم فكّ رموزها، لأن الصوفي وصل إلى مرحلة اللاقول (الصمت) "التي تحيل الوجود إلى كلام أبدي غير منطوق، وليس المقصود من الصمت، هو الصمت عن الكلام ،وإنما هو صمت الفكر، ذلك الصمت المبدع الذي يقبر فيه العقل،

[1] حميدي خميستي،اللغة الصوفية ،ص37 .

[2] المرجع نفسه، ص 38 .

كما يقول "النّفري"، وتحل معه السكينة، ويعيش المتصوف لحظة الخلود الأبدية، التي تتلاشى معها كينونة الزمن " [1].

والملاحظ أنه كلما تطورت التجربة الصوفية وارتقت في مقاماتها وأحوالها أصبحت اللغة الصوفية أكثر عمقا وتعقيدا وغموضا، ويزداد فيها وجد الصوفي، وبذلك يحتاج إلى لغة جديدة، تتناسب مع حاله، ورؤيته، التي يصعب التعبير عنها ،فتأتي اللغة غامضة، بل تصبح اللغة لديه " مخاضا عسيرا، يتجاوز بها حدود التّواصل، إلى التعبير عن غير المألوف، واللامحدود والمطلق، وهو يسعى إلى تفجيرها والخروج بها عن الموضوعات الإجتماعية، لتصبح لغة وجودية، تحمل في حروفها ومعانيها أسرار الكون والخليقة، ومن خلال هذه النظرة إلى اللغة، يصبح العالم كلّه نوعان من الكتابة أو اللغة، أو مصحفا كبيرا، على حدّ تعبير (ابن عربي) نفسه، إلى جانب المصحف الصغير، الذي هو القرآن الكريم "[2].

"فاللغة الصوفية في هذا المستوى، تصير تعبيرا عن اللانهائي، عن الوجود، عن أسرار الكون، الذي كان في البداية كلمة .هذا المجال الفسيح والمنبسط أما الصوفي، لا تسعه هذه اللغة النّسبية المتواضع عليها،" فكانوا مضطرين لأن ينشقّوا عن محدودية العبارة الثّابتة، فاصطلحوا على لغة دالة على التجربة الروحية، التي لا تقاس بالحدود والأوصاف "[3]، ولغة الإشارة هي التي عبرت بصدق ،عن الرؤية الصوفية، فباحت بما لم تستطع أن تبوح به العبارة، فتميزت لغة الإشارة عن لغة العبارة كونها لم تعد " مجرد وظيفة إبلاغية أو استشهادية أو انطباعية، وإنّما هي وظيفة فكرية نفسية تأثرية إفهامية، ذات أبعاد محددة عن أفكار صاحبها ومشاعره الخاصة "[4].

---

[1] حميدي خميستي،اللغة الصوفية،ص36 .

[2] المرجع نفسه،ص31 .

[3] أحمد الطريق أحمد، الخطاب وخطاب الحقيقة، مبحث في لغة الإشارة الصوفية، مجلّة فكر ونقد ،عدد 40 ،يونيو ،2001 ،دار النشر المغربية ،سبريس، الدار البيضاء،ص66 .

[4] حسين جمعة، جمالية التصوف مفهوما ولغة ،مجلة الموقف الأدبي ،عدد 364 ،اتحاد الكتاب العرب ،دمشق،ص18 .

لقد تعدّت اللغة الصوفية مستوى الإبلاغ، إلى مستويات أخرى، فصارت ذات وظائف تأثيرية، نفسية وإفهامية، تعبر عن الحالات التي يعيشها الصوفي، لذلك " لا يستطيع المتلقي أو القارئ أن يتماهى، مع لغة الصوفي إذا لم يندمج بمعارفه ومعارجه، ويضبط التقاطعات الرمزية لتلك اللغة...وهذا لا يمثل عجزا صريحا في الإدراك، وإنّما يجسد وعيا فاعلا لكيفية فهم اللغة الخاصة، التي يستعملها الصوفي في معارجه العقلية ،ومقاماته الروحية، والمراتب العلية القدسية " [1].

فعلى المتلقي اذا أراد أن يفك شفرات تلك اللغة أن يكون عارفا بهذا العلم أي الصوفية، حتى يتمكن من فهمها وإدراكها .

بالاضافة إلى الجمالية التي تختص بها اللغة العربية شعرا ونثرا من خاصية الإعراب التي لا نكاد نجدها . بذلك النحو . في أي من اللغات الأخرى، والأدب الصوفي، شعره ونثره أدب كتب ونظم باللغة العربية، فكيف لا يحمل تلك المميزات، ويحمل خصائصها ؟.

و المطّلع على فتحة الشعر الصوفي، في لغته وأساليبه يجد أنّ" لغة التصوف في جماليتها المميز لها، تخلق وحدة فنية، ومن ثم شعورية، فكرية ترتفع بالمشاعر، وهي تعبر عن تجربة عرفانية فريدة، تكشف الدلالة بوعي مرهف وحس وثّاب، قائمة على قصدية منفتحة على تصور شديد الخصوصية، وكذلك هي لغة المتصوفة التي اخترعوها ،فهي على رقّتها،وسهولتها وتنوعها ،ذات دلالة اشتقاقية خاصة"[2].

يقول أبو مدين، عندما يتناص مع "المجنون" في مجال الحب الإلهي :

تَذلّلت فـي البلْدَان حين سبيتَـني ... وبتُّ بأَوجـــاعِ الهــوى أَتقـــــلَب

فَلَو كَـانَ لِي قَلْبـان عِشْتَ بِواحد ... واتــركُ قَلْبــاً في هــواكَ يعـــــذّب

ولَـكنَّ لِي قَلْبــاً تَمَلّكـهَ الهـوى ... فـلاَ العيش يـهنى لِي ولاَ المَوتَ أَقْــرب[3]

[1] حسين جمعة، جمالية التصوف مفهوما ولغة ،مجلة الموقف الأدبي ،ص18 .

[2] المرجع نفسه ،ص22

[3] الديوان، أبو مدين شعيب ،جمع وترتيب ،العربي بن مصطفى التشّوار ،ص61 .

رغم خصوصية لغة التصوف، إلا أننا نجدها وهي تعبر عن تلك التجربة العرفانية المتميزة تتمتع برهافة الحس والسهولة والتنوع ما يحرك الخيال والوجدان ،يحملنا إلى أفق غير الذي يحملنا إليه خيال الشاعر العادي ؛ فهو أفق لدني مليئ بالصفاء والنقاء .

إذا تأملنا القصيدة الصوفية، بعيدا عن الموقف الأخلاقي، فإنّ الوظيفة الجمالية .كما يقول (ابن عربي) . تظل قائمة لأنّها " تتحصل من تفاعل لفظها مع معناها، وتداخلهما، يقول " جمال الشعر والكلام، أن يجمع بين اللّفظ الرائق، والمعنى الفائق، فيحار النّاظر والسامع فلا يدري، اللفظ أحسن أو المعنى، أو هما على السواء، فإنّه إذا نظر إلى كل واحد منهما، أذهله الآخر من حسنه، وإذا نظر فيهما معا حيراه " واختلال أحدهما، ينجم عنه تراجع القيمة الجمالية للقصيدة، لأنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى، هي عينها علاقة الصورة بالروح " [1].

إن اللفظ والمعنى يشكلان طاقة جمالية فعالة سواء في النص الأدبي الصوفي أو العادي، ونجد في قول ابن عربي السابق تناسقاوانسجاما في ألفاظه، ووضوحا وبيانا في معانيه، ،وهذا ما يؤكد على جمال اللفظ دون إهمال المعنى العميق للنص .

إذن فجمالية لغة التصوف ليست جمالية عادية فإذا " ظن المتلقي أنّه قادر على ادراك تلك الجمالية، في إطار التقابل بين لغة التصوف وما انطوت عليه من دلائل معجمية، أو من أساليب موروثة في البلاغة، أو ما اختزنته من ثقافة وتجربة قديمة،أو حديثة،فإنّه لن يجني من النص الصوفي إلاالسراب"[2]، لكن كل هذا لا يكفي لإدراك جمالية النص الصوفي، إلا إذا تحلى المتلقي أو دارس هذا المجال برداء الصوفي ،فيجب " أن يقوم بعملية رصد للُغة المتصوفة ،كناياتهم، واستعاراتهم، ورموزهم، وأن يتفاعل فيها، محاولا تمثّل التجربة، ومن ثم فهم ملابساتها ...ليقبض على طبيعتها وجماليتها"[3].

---

[1] خالد بالقاسم، الكتابة والتصوف عند ابن عربي، دار توبقال للنشر، ط1 ،2004 ،ص140 .

[2] حسين جمعة، جمالية التصوف مفهوما ولغة، مجلة الموقف الأدبي، ص23 .

[3] المرجع نفسه، ص23 .

أي أن يغوص في لغة التصوف، ويتعاطى معها ويحاول فهمها حتى يستطيع فك رموزها وشفراتها، ويفهم صورها البيانية ومحسناتها البيديعية، ويعيش تجربة الصوفي لكي يفهم لغتهم وأحوالهم، فلغة الإشارة .كما قال عنها (ابن عربي) :

عِلْم الإِشَارة تَقْرِيب وإبعاد وسيرها فيك تأْوِيب وإسناد[1]

. الإيقاع في القصيدة الصوفية :

1. توطئة :

"يعد الإيقاع ركنا أساسيا في الشعر، إذ عليه تبنى القصيدة، وتتماسك أجزاؤها من بدايتها حتى نهايتها، سائرة في خط إيقاعي واحد لا تحيد عنه، مشكّلة مع موضوعها بنية جمالية متكاملة، فتحدث في نفس المتلقي الشعور بالمتعة والغبطة والإرتياح، هذا ما يجعل الشعر يتميز بخصائص جمالية، فبالإضافة إلى الإيقاع والموسيقى، يتميز بكثافة الخيال وسعته، وجمال الصورة وبلاغتها، ودفء العاطفة وقوتها"[2].

يعرف ابن منظور الإيقاع بقوله " الميقع والميقعة، كلاهما المطرقة، والإيقاع مأخوذ من إيقاع اللّحن والغناءوهو أن يوقّعها ويبينها "[3] فإيقاع اللّحن والغناء إذا، يحتاج إلى وزن وتوقيت متساوٍ بين تلك الأوزان، فهناك . منذ القديم . ربط بين الوزنوالإيقاع، وقد عرف (السجلماسي) الشعر بأنه " الكلام المخيل المؤلّف من أقوال موزونة ومتساوية، وعند العرب مقفّاه "[4].

---

[1] ابن عربي ،الفتوحات المكية،الإلكترونية مكتبة المصطفى ،www.al-mostafa.com،ص294 .

[2] جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب ،حمزة حمادة، ماجستير، ص93 .

[3] ابن منظور، لسان العرب ،مادة (وقع)دار صادر ،بيروت،ط1 ،1997 ، ج6 ،ص475 .

[4] أبو محمد القاسم السجلماسي، المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علال الغازي ،مكتبة المعارف، الرباط، 1980 ، ص281 .

فالشعر يعتمد الكلام المتخيل، والمؤلف يبينه بوزن، بعدد إيقاعي معين، وقوله متساوية، أي أن يكون القول يتكون من أقوال إيقاعية متساوية في الأزمنة، أي عدد زمان الواحد منها مساوٍ لعدد زمان الآخر، فيحصل انسجام للموسيقى الشعرية، وعليه فإن الإيقاع مرتبط بالموسيقى.

فلقد أورد علماء البلاغة والعروض تعريفات متعددة للإيقاع، وعلاقته بالوزن وتبين فيه أن الإيقاع أشمل من الوزن، في المقابل ظل الإيقاع في المعاجم العربية مرتبطا بالمفهوم الذي جاء به (الخليل بن أحمد الفراهيدي)، في كونه " حركات متساوية الأدوار، لها عودات متوالية " [1]

فهذا التساوي والعودات المتكررة لا تخرج الإيقاع عن الوزن .و لعل أكثر المحاولات دقة، من المحاولات التنظيرية التي عرضت لدراسة الإيقاع، تلك التي قام بها (حازم القرطاجني)، حيث فرق بين التّناسب الزمني في الشعر ،والشعر عنده يتكون من " التخاييل الضرورية وهي تخاييل المعاني من جهة الالفاظ، وتخاييل اللفظ في نفسه، وتخاييل الأسلوب، وتخاييل الأوزان والنّظم"[2].

يفرق حازم بين الوزن والنظم، والذي يقوم عنده على مجموعة من الخصائص الصوتية والإيقاعية المنتظمة، كما أن الإيقاع البلاغي عنده يقوم على التّناسب بين المسموعات والمفهومات، والتي تقوم على التخييل .

و "معرفة جهة التناسب في المسموعات والمفهومات، لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان، إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة، الذي تندرج تحت تفاصيل كلّياته ،ضروب التّناسب والوضع"[3].

وفّق القرطاجني في الربط بين المستوى الدلالي والمستوى النظمي، من خلال حركة الألفاظ والعبارات، التي اصطلح عليها بـ (النظم) . بإعتبار أن الوزن هو عمود الشعر، وهو الذي يعطي القصيدة توازنها،

---

[1] ابن سيده ،المخصص، السفر الثالث، مادة (وقع)، دار الفكر، بيروت،1978 ،ص228 .

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تح محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط3 ،1986، ص89 .

[3] المرجع نفسه، ص89.

وبالتالي لايقل مكانة عن الإيقاع، لأن الوزن " هو وظيفة الايقاع وصورته، وجزء منه، إذ أنّ الإيقاع سابق للموسيقى والشعر، وهو مرتبط بالتجربة، يستمد منها خاصيته الدلالية المشكّلة لنظامه الإيقاعي "[1]، فهناك تكامل بين الوزن والإيقاع، والوزن له علاقة وطيدة بالتجربة الشعرية ،بإعتبار أن التجربة " هي التي تختار وزنها بما يلائم مع طبيعتها وخواصها، وهذا يعني أن لكل وزن نظامه الخاص الذي يحمل في طياته قدرة خاصة على استيعاب نمط معين من التجارب "[2].

أما "مفهوم الإيقاع في العصر الحديث، فأصله إنجليزي، مشتق من اليونانية، والذي يعني الجريان والتدفق، ثم تطور وأصبح مرادفا للكلمة الفرنسية (mesure) المعبرة عن المسافة الجمالية"[3]. وبالتالي فهو يرمي بين التواتر المتتابع، بين الصمت والصوت، أو القصر والطول أو الإسراع والإبطاء ...ورده (كلوريدج) في القرن التاسع عشر " إلى عاملين، أولهما : التوتر الناشئ عن تكرار وحدة موسيقية معينة، فيعمل على تشويق المتلقي، وثانيهما المفاجأة أو خيبة الظن، التي تنشأ عن النغمة غير المتوقعة، والتي تولّد الدّهشة لدى القارئ "[4]، وهذا التوتر يؤدي إلى عنصر التشويق لدى المتلقي، "كما تعمل المفاجأة، على إنشاء أفقٍ من التوقعات في ذهن المتلقي، والتي قد تحدث عنده أحيانا خيبة الظن، أو المفاجآت التي تكون وليدة المقاطع، فالإيقاع إذا، ليس وليد الصوت منفردا، أو العنصر الشكلي فحسب، بل هو نتاج ذلك النسيج المتآلف، في علاقته بأعضاء أخرى في المنجز الشعري"[5].

و الإيقاع ظاهرة لا تخص الشعر والنثر لوحدهما، بل هو خاصية تتمظهر في كل ما يتعلق بالفنون، فهناك " إيقاع للطبيعة، وآخر للعمل، وإيقاع للإشارات الضوئية، وإيقاع للموسيقى، وهناك بالمعنى المجازي إيقاعات للفنون التشكيلية "[6].

---

[1] محمد صابر عبيد، القصيدة العربية بين البنية الدّلالية والبنية الإيقاعية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000 ،ص18.

[2] المرجع نفسه ،ص18 .19 .

[3]Le grand robert de la longue francaise –tome lx paris 1985p218

[4]ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ،دار القلم العربي ،سورية ،ط1 ،1998 ،ص21 .

[5] جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب ،ماجستير، حمزة حمادة،ص95.

[6] رينيه ويلك، واوسطنوارين، نظرية الأدب ،تر:محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1987،ص170 .

فالإيقاع، قاعدة تقوم عليه كل الأعمال الفنية، "بل هو ظاهرة أحس بها الإنسان في كل ما حوله من مظاهر الطبيعة، التي تسير في نسق محدّد، أحس بها في حركة الحيوانات، بل كل الكائنات من حوله، قبل أن يعرفها في تكوينه العضوي، فأدرك أنّها أساس يقوم عليه البناء الكوني، ليضمن حركة الظواهر المادية بما يوفر لها من توازن وتناسب ونظام"[1].

فالإيقاع بهذا المعنى يأخذ في سياقاته الإجرائية ،عدّة أشكال فهو ،" التّكرار المتّسق لوضع أو مركز قوة لمعنى أو حركة، وهو أحد أنواع الوحدة لأنّه تركيز على حركة نغم أو لفظ معين، يظهر في تناوب الحركة والسكون، الأنوار والظلام، عودة البداية في النهاية، رجوع القرار في الأغنية، رد العجز على الصدر في الشعر، تكرار قافية واحدة، أو قواف متناوبة، رجوع نوبة واحدة أو عبارة موسيقية في المعزوفة، فهو تناظر زمني يقابله في الطبيعة توقف الحركة أمام حاجز ثم استأنافها، ويقوم جمالها على لذّة انظار ما نستبق حدوثه "[2].

وهذه الأشكال لا تجعل من الإيقاع مجرد وسيلة إطراب، بل هو قيمة متميزة ،من حيث المعنى التي توحي إليها، فالفن تعبير إيحائي عن معنى يفوق المعنى الظاهر .وبما أن الإيقاع لغة التواتر والإنفعال فهو وسيلة مهمة للتعبير.

ارتكز الشعر على الإيقاع كونه أهم وسيلة للتعبير ،ولغة التواتر والإنفعال ،ارتكازا أساسيا في موسيقاه باعتباره أهم أركانها .

2 . الإيقاع الداخلي:

أ . تكرار الأصوات :

[1] محمد العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية، تونس، 1976 ،ص112 .

[2] عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ، دار الفكر العربي، ط2، 1974، ص115 .

اهتم الشعراء بظاهرة تكرار كم معين من الأصوات في ابداعاتهم الفنية، "بيد أنّ معالجة الصوت، تحقق مقاربة ناجحة إذا ما استثمرت في ضوء علاقة الصوت بالدلالة، بمعنى أن دراسة الإمكانات الصوتية في الشعر، إنّما هي بحث في بنية صوتية دلالية "[1].

فهي من ناحية تشكّل بتواليها وتواترها في النص، ظاهرة إيقاعية جميلة تثير المتلقي وتشده إلى النص ،ومن ناحية ثانية تزيد الجانب الإيحائي من النص قوة ووضوحا، و" يتحقق التكرار بوصفه بنية أسلوبية، على مستويات عدّة، فهناك تكرار على المستوى الفونيمي، ويضفي هذا التكرار بعدا نغميا يعد مكونا تتضمنه العناصر اللسانية، الأمر الذي أدى إلى اكتساء هذه العناصر، إيقاعا خاصاً، هو مكون ذاتي في اللغة ينبثق من طبيعة الفونيمات نفسها "[2]، وقد شكل هذا الإنزياح الصوتي، مجالا خصبا في البحث الأسلوبي، فأصبح تناول النصوص الأدبية انطلاقا من هذه المستويات عامة، فتعددت قراءة وتأويل النص الواحد، ناهيك عما " يحققه التوافق الصوتي من وحدة حقيقية يفرضها على الفكر، عن طريق صميمية العلاقة القائمة بين الصوت والمعنى، إذ لا يمكن أن يوجد أي معنى بدون صوت يعبر عنه"[3]، فعلاقة الصوت بالمعنى، علاقة وطيدة، فلا معنى بدون صوت، ولأن الصوت رمز للمعاني فإنّ دلالته الكامنة، "لا تظهر إلا من خلال حدث وحكة، وإذا كانت النفس الإنسانية، بوصفها ميدانا حيا للحركة والفعل والحدث خاضعة لتأثير الصوت بنحو أو بآخر، فما هذا التأثير إلا لأنّ الصوت في حدّ ذاته يحمل في طياته معنى "[4] وعليه يمكننا القول أنه لا صوت بدون معنى .

واللافت للنظر في ديوان أبي مدين شعيب وجود بعض الحروف بكثافة، والتي تتجاوز حروفا أخرى، والملاحظ أيضا أنّه إذا وظف حرفا معينا في روي القصيدة، نجد أن ذلك الحرف يطغى على متن القصيدة ،فيكثر في أبياتها. الحشو. ومن الأصوات التي شكّلت انزياحا واضحا في ديوان أبي مدين

---

[1] حسن ناظم، البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب،ط1 ،2002 ،ص97 .

[2] المرجع نفسه، ص87 .

[3] محمد صابر عبيد،القصيدة العربية بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية، ص 19 . 20 ،نقلا عن :كلود ليفي ستراوس،الأسطورة والمعنى، شاكر عبد الحميد ، ص75 .

[4] المرجع السابق، ص21 .

شعيب، نجد الأصوات الساكنة أو ما يصطلح عليه بالأصوات الذّلقية، وهي (اللاّم، الراء، النّون) هذه الأصوات التي تتميز بالتوسط . إن صح التعبير . فهي "مع قرب مخارجها تشترك في نسبة وضوحها الصوتي، وأنّها من أوضح الأصوات الساكنة في السمع ،و لهذا اشبهت من هذه الناحية أصوات اللين، فهي جميعا ليست شديدة أي لا يسمع معها انفجار، وليست رخوة ،ولذلك أعدّها القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشّدة والرخاوة "[1].

ومن أكثر الأصوات الذلقية شيوعا في ديوانه، والذي يحتل الترتيب الأول، هو صوت (النون) بالرغم من ظهوره في ثلاثة(03) قصائد ومقطوعتين (02)فقط، إلاّ أنّه تكرر واحدا وأربعين ومائتي مرة،في ستة وخمسين(56) بيتا من مجموع الأبيات ،والتي تقدر بثلاثمائة وستين بيتا (360)، بنسبة تقدر بـ(66.94بالمئة). وقد وظّف الشاعر صوت النون "و النّون لأمر ما تسمى بالحرف النّواح"[2].

وتعد خمرية أبي مدين ،وهي أطول قصائده، حيث تبلغ خمسين بيتا، تكرر فيها صوت النّون إحدى وثمانين مرة (81)،وقد بناها على روي النون المشبعة بألف، يقول في مطلعها:

أَدرِهَا لَنَاصِرفاً ودعْ مزجَها عَنَّا فَنَحن أُنَاس لاَ نَرى المَزج مذْ كُنَّا

وغَنِ لَنَا فَالْوقْتَ قَدْ طَاب يَاسْمِهَا لأَنَّا اَلَيهَا قَدْ رحلْنَا بِهَا عَنَّا.

عَرفْنَا بِهَا كُلَّ الوجود ولَم نزل إلَى أَنْ بِهَا كُلَّ المَعارِف أَنْكَرنَا[3]

إن رمز الخمر عند الصوفي يعني الوجد، ومعرفة وحب الله عز وجل، فحالة السكر التي يعيشها دليل على رغبته في لقاء الله . ولصوت "النون " ارتباط قوي بالمناجاة " أي أنّها ترتبط بالبكاء وما

[1] ابراهيم أنيس ،الأصوات اللغوية ،مكتبة الأنجلو المصرية، ط4 ،1999 ،ص58 .

[2] رجاء عيد ،التجديد الموسيقي في الشعرالعربي (دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد لموسيقى الشعر الغربي)منشأة المعارف بالإسكندرية،ص10 .

[3] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية ،ص359 ،نقلا عن مخطوطة ضمن مجموعة بمكتبة الأزهر تحت رقم 7217(622) .

يسبب البكاء، مثلما أنها تتناسب من حيث قيمتها الإيقاعية مع التعبير عن هذا المعنى وأدائه "[1] ويعرف علماء الأصوات حرف النون أنه " صوت مجهور متوسط بين الشدّة والرخاوة، ففي النطق به يندفع الهواء من الرئتين محركا الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولا، حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى، فيسدّ بهبوطه فتحة الفم ويتسرب الهواء من التجويف الأنفي، محدثا في مروره نوعا من الحفيف لا يكاد يسمع "[2].ولعل طريقة خروج هذا الصوت تشبه تلك الحالة من المناجاة التي يعيشها أبو مدين، وخاصة أنه صوت متداول في قصائد الحب الإلهي، كما بنى الشاعر قصيدته على القافية، فأتى رويها نونا مشبعةً بألف، مثل قوله (كنّا، عنّا، حضرنا ...)كأن نون الجماعة هنا، توحي بالإرتقاء والسمو إلى الحضرة الإلهية، والتي يحاول الصوفي جاهدا بلوغها والسعي إليها . يقول في نفس القصيدة . معبرا عن الغيبة والحضور :

حضرنا وغبنا عند دور كؤوسها وعدنا كأنّا لا حضرنا ولا غبنا

وأبدت لنا في كل شيء إشارة وما احتجبت إلاّ بأنفسنا عنّا [3]

والملاحظ أن " الخمر في قصيدة أبي مدين، تلويحا إلى الحب تارة، وإلى موضوع هذا الحب تارة أخرى، وإنّما كانت الخمر في الشعر الصوفي رمزا على الحب الإلهي، لأن هذا الحب هو الباعث على أحوال الوجد والسكرالمعنوي والغيبة بالواردات القوية، عما يصرف عن الكينونة ويحول دون العلو "[4]، ويقول في قصيدة أخرى تتكون من اثنين وعشرين بيتا، طغى فيها حرف " النون " بشكل لافت، حيث تكرر، إحدى وتسعين مرة (91) تتحدث عن الحب الإلهي، يقول في مطلعها :

---

[1] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية، دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج، دار مجدلاوي ،عمان، الأردن، ط1 ، 2002، ص85.

[2] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، دار الكندي، ط1، 1978،/ أو شعر عمر بن الفارض(دراسة في فن الشعر الصوفي)، دار الأندلس،لبنان،ط1 ،1982،ص359.

[3] المرجع السابق، ص359، نقلا عن مخطوطة ضمن مجموعة بمكتبة الأزهر تحت رقم (622)7217.

[4] المرجع السابق، ص363.

تَضيقُ بِنَا الدُنْيا إذَا غِبتَـــم عَـنَّـــا وتَـــذْهَب بالأَشْـــواق أَرواحنَا مِـــنَّا
فَبعدُكُـــم مـــوتٌ وقُربـــكُم حيـــا فـــإنْ غِبتَموا عَنَّا ولَـــو نَفْساً مِتْنَا
نَمُوتَ ببعدِكُم ونَحْيا بِـقُربِكُـــم وإنْ جاءنَا عَنْكُم بشير اللّقَا عِشْـــنَا [1]

فهنا الشاعر، على "مدار أبياته يصف حالته، التي تعج بالشكوى والعتاب والألم والحرقة والحسرة، لما يتعرض له من صدود من معشوقه ـ الذات العليا ـ فهو باك، هائم الفؤاد ..و هي معان يفيض بها كل بيت، وينسجم فيها صوت النون، ولعل هذا المعنى ما دفعهم لتسميته الصوت النواح " [2].

و يقول أبو مدين،في مقطوعة تتألف من أربعة أبيات، تكرر فيها صوت النون ثمانية عشر مرة ، يقول:

طـــالَ اشْتِياقي ولاَ خَـــلٍ يؤانسني ولاَ الزَّمـــانُ بِمـــا نَهْوى يـــوافِيـــني
هَذَا الحبيب الذي في القَلْبِ مسكَنَه عَلَيه ذُقْتَ كُؤوس الـــذُلّ والمِحـــنِ
عَـلَيه انْكَـرِني من كَـانَ يعرِفُنِي حـــتى بقيتَ بِـلاَ أَهْـــلٍ ولاَ وطَـــنِ

فالشاعر يعبر عن اشتياقه لمن يحب (الذات العليا)، " فأحدهما يصبو إلى التّواصل، والآخر يمنعه ويصدّه، ولن يتم التواصل المأمول إلا بمثابرة الذات المحبة على المحو والإثبات، محو الحظوظ وإثبات الحقوق، فإذا ما تم ذلك، فإن بنية الخطاب الشعري تتبدّل من ثنائية التقابل إلى التوحد "[3].

لأن النص يبنى على التقابل، الذات المحبة (نهوى، الحبيب، اشتياقي...)، والذات المحبوبة (خل، انكرني...) وهذا التقابل أضفى على النص مسحة حزينة ،ظهرت في تكرار صوت النون .

[1] سيد أحمد سقال، سيدي أبو مدين شعيب، نبذة عن حياته ومقتطفات من ديوانه ، ص66.
[2] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية، ص86.
[3] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني(الرؤيا والتشكيل)،اتحاد الكتاب العرب،دمشق، 2002،ص92.

. صوت الياء : كما تكرر صوت (الياء) في قصائد أبي مدين شعيب، عدد اثني عشرة ومائتين مرة (212)، في أربع (04) قصائدومقطوعة واحدة، بمجموع واحد وخمسون بيتا، بنسبة مرتفعة وهي (58,88%) .

و"الياء" تختلف في النطق على بقية الأصوات " فالياء لأنها تشتمل في النطق بها على حفيف، يمكن أن تعدّ صوتا ساكنا، أما اذا نظر موضع اللسان معها فهي أقرب شبها بصوت الّين (i) لهذا اصطلح المحدثون على تسمية "الياء " يشبه صوت الّين"[1].

ويحمل صوت (الواو) نفس الميزات مع صوت (الياء)، وعند النطق بصوت "الياء" " تتخذ الأعضاء الوضع المناسب لنطق نوع من الكسرة، تاركة هذا الوضع إلى حركة أخرى بسرعة ملحوظة ويتّجه أوسط اللسان نحو وسط الحنك، وتنفرج الشّفتان، ويسد الطريق إلى الأنف، وتتذبذب الأوتار الصوتية " [2].

ومن القصائد الذي تكرر فيها هذا الصوت ، قصيدة تتألف من إحدى عشر بيتا يقول فيها :

تَمَلَّكْتم عَقْـــلي وطَـرفي ومسمـعـي ... وروحي وأَحـشائي وكُـلي بـأَجْمعي
وتيـهتموني في بـــديعِ جـمـالـكُم ... ولَم أَدْرِ في بـحرِ الهوى أَين موضعـي
وأَوصيتـــموني لاَ أَبـــوح بـــسركُـم ... فَبـــاح بِمَا أُخْفي تَفيُّـــض أَدْمـعي
ولَمَّـــا فَـنى صبْري وقَـلَّ تَجلُّـدي ... وفَـارقَني نَـــومي وحـرَّمتَ مضْجعي
أَتَيتَ لِـقَاضي الحبّ، وقُلْتَ : أَحـبَّني ... جفُوني، وقَالُوا: أَنْتَ في الحـبّ مدَّعي[3]

و المقطوعة تتحدث عن الحب الإلهي، وهي بذلك تشبه الغزل البشري، والشعراء الصوفية، ونلاحظ أن معاناة الشاعر تتجسد في إقباله على المحبوب، ولكنّه دوما يقابل الصد والهجر، والقصيدة مبنية على التقابل، فيظهر فيها بعدين، بعد الحضور ،أي حضور المحب، وبعد الغياب، أي غياب الذات العليا،

[1] ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ،ص40.

[2] كمال بشير، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1،2000،ص369.

[3] أبو مدين شعيب، الديوان، جمع وترتيب، العربي بن مصطفى التشوار، مطبعة الترقي ،دمشق ،ط1،1938،ص60.

مما يزيد في معاناة الشاعر وألم الشوق وحرف "الياء" بالإضافة إلى خصوصيته كونه " صوت إنتقالي، أي أنها تتكون من موضع صوت اللّين، ثم تنتقل بسرعة إلى موضع آخر من أصوات اللّين" [1].

والإنتقال السريع الذي يتميز به صوت "الياء "، من موضع إلى موضع، ما يشير إلى حالة الصوفي " فهو في حالة انتقال دائم، إذ يعبر من حال إلى حال،،كثيرا ما يتوسط بين ما هو مادي محسوس ،وما هو معنوي روحي، وبين ما هو جزئي وما هو كلّي، وبين حظور وغياب، وقرب وبعد، ووصل وافتراق، وترح وسرور...."[2].

و خير مثال في توضيح مفهوم الحظور والغياب، والوصل والإفتراق ... ما ورد في قصيدة أخرى متألفة من أربعة عشرة بيتا، تكرر فيها صوت " الياء" حوالي سبعة وستين مرة (67)، بالإضافة إلى وروده رويا مضعفا، في كل القصيدة، والتي نورد من مطلعها الأبيات التالية :

لَستَ أَنْسى الأَحباب ما دَمتَ حيا مذْ نَأَوا لِلْنَّوى مكَاناً قَصيا
و تَلُوا آيةَ الوداعِ فَخَرُّوا خِيفَةَ البيْن سجَّداً وبكيا
ولذِكْراهمتسيح دموعي كُلّما اشْتَقْتَ بكْرةً وعَشيا [3]

من خلال الأبيات، لم يجعل موضوع الغزل أسلوبا ليعبر به عن ألم الفقد والهجران، بل جعله موضوع " الحنين إلى الأوطان، والأهل والأحباب والخلان، وهو موضوع يشكّل حيزا ملفتا في القصيدة العربية، ويتميز بالإحساس الرهيف، ويمتلئ بمشاعر الفقد والإغتراب، ويُجسد معاناة المغترب في موطنه الجديد، من آلام مبرحة ،و أحزان متواصلة، وعجز كامل من كل محاولة لمدّ جسور التواصل التي انقطعت في يوم بسبب من الأسباب"[4]فجعله موضوعا للتعبير عن معاناته واستيائه، من أجل تحقيق الوصال.

---

[1] ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،ص41.

[2] أماني سليمان داود، الأسلوبية ،ص70.

[3] أبو مدين شعيب، الديوان ،ص62.

[4] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)، ص29.

. صوت الميم : ظهر صوت الميم بشكل ملفت في ديوان أبي مدين شعيب، إلا أنه أقل شيوعا من الصوتين السابقين، فقد تكرر في ثلاث قصائد، ستة وستين ومائة مرة (166)، في أربعة وخمسين بيتا من مجموع قصائد الديوان، وذلك بنسبة (46,11%)من مجموع الأبيات و" الميم" " صوت مجهور، لا هو بالشديد ولا بالرخو، بل ممّا يسمر بالأصوات المتوسطة، ويتكون هذا الصوت بأن يمر الهواء بالحنجرة أولا فيتذبذب الوتران الصوتيان، فإذا وصل في مجراه إلى الفم، هبط أقصى الحنك فسدّ مجرى الفم، فيتخذ الهواء مجرى في التجويف الأنفي محدثا في مروره، نوعا من الحفيف لا يكاد يسمع، في أثناء تسرب الهواء في التجويف الأنفي تنطبق الشفتان تمام الإنطباق "[1] ،وفي مثل ذلك يقول أبو مدين في قصيدته المتكونة من أربعة عشر بيتا، تكرر فيها صوت "الميم " ستين مرة، نأخذ من مطلعها الأبيات التالية :

متى يا عَرِيب الحيِ عَينِي تَراكُم وأَسْمَع من تِلْكَ الدّيار نِداكُـم
و يَجْمعنَا الدَّهْر الذّي حالَ بيننَا ويَحْظَى بِكُم قَلْبِي وعَينِي تَراكُم
أَمرُّ عَلَى الأَبواب من غَيْرِ حاجة لـعلِي أَراكَـموأَرى من يـراكُم[2]

فالقصيدة كلها تتحدث عن موضوع غياب واغتراب الحبيب، واشتياق الشاعر وحنينه إليه.

و يقول في الموضوع نفسه عن (الإغتراب والحنين) في قصيدة تتكون من اثنين وعشرين بيتا من الطويل :

يُحرِّكُنَا ذِكْـــر الأَحـاديث عَنْكُـم ولَـولاَ هَواكَم في الحشَا ما تَحَرّكْنَا
فَقُــلْالذي ينْهى عَنِ الوجْد أَهْلُه إذَا لَم تَذُقْ معْنى شَراب الهوى دَعْنَا
إذَا اهْتَزَّتْ الأَرواح شَوقاً إلَى اللّقـا تَرقّصت الأَشْباح يا جـاهل المَعنَى

[1] ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،ص44.

[2] أبو مدين شعيب ،الديوان، ص65 ..

أَمـا تَنْظُر الطّير المُقَفَّص يا فَتـى إذَا ذَكَر الأَوطَـانَ حنَّ إلـى المَغْنى [1]

فقد شبه أبو مدين "الروح البشرية، وهي مسجونة في شرنقة الجسد، تحن إلى العالم الأسنى، أو عالم الذّر موطنها الأصلي يطير مسجون في قفص، يحن إلى موطنه من الأجواء الفسيحة الحرة، فكلاهما نقول عن أصله معزول عن إلفه، وكلاهما يحن إلى موطنه وأصله، ويتشوق إلى التحرر من غربة ما هو فيه، للقاء جنسه وإلفه "[2].

. الأصوات المهموسة :

لم يخل ديوان أبي مدين شعيب من وجود الأصوات المهموسة، حيث نجد أربعة أصوات منها، استعمل بشكل متفاوت، ومع أن نسبة ورودها في القصائد قليل، إلا أنها شكلت ظاهرة يمكن أن نستخرج منها عدّة خصائص أسلوبية لدى الشاعر.

ومن الأصوات المهموسة التيظهرت بشكل كبير، في القصائد، صوت (الكاف، الحاء، التاء، الهاء)، من مجموع الأصوات المهموسة والتي يبلغ عددها اثني عشر صوتا، وهي (الكاف، الحاء، التّاء،الهاء، الثاء، الخاء، السين، الشين، الصاد، الطاء، الفاء، القاف) والصوت المهموس كما يعرفه علماء اللغة " هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به "[3].

وكان صوت (الكاف)، أكثرها شيوعا في بعض قصائده، فتكرر ثلاث وسبعين مرة (73)، في قصيدتين ومقطوعة واحدة، بمجموع ثلاثون (30) بيتا، بنسبة (20,27%) .

وتكرر صوت (الكاف) في قصيدة والتي تتألف من أربعة عشر بيتا، تكرر فيها سبعة وعشرين مرة (27) يقول مطلعها من الطويل :

متى يـا عَرِيب الحيِ عَينِي تَراكُـم وأَسْمَع من تِلْكَ الدّيـارِ نِدَاكُـم

[1] الديوان، ص59.

[2] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)، ص 60.

[3] ابراهيم أنيس ،الأصوات اللغوية، ص22.

و يَجمعنَا الدَّهـر الذي حـالَ بيننَا ويَحظَى بكُم قَلْبِي وعَينِي تَراكُـم

أَمـر عَلَى الأَبواب من غَيْر حـاجة لَعلّي أَراكُـم أَو أَرى مـن يراكُـم

سقَاني الهوى كَأساً من الحبّ صافِياً فَيا لَيتَه لَمَّـا سقَـاني سقـاكُم[1]

لقد اتخذ أبو مدين، في هذه الأبيات موضوعة الطلل التي "تتغير في صياغتها ولغتها، وتتشكل تشكيلا جديدا أو مختلفا، ولكن الرؤيا التي تحتويها الموضوعة تظل ثابتة، وذلك لثبات مفردات لغوية بذاتها، وتكرارها هي بعينها" [2]، فجعل من تلك الموضوعة، مجالا للتعبير عن البعد والغربة ، فأخذ يذكر الديار، ويترقب أخبار المحبوب، شوقا له ،وما يوجد من خصائص في صوت الكاف تنطبق على حالة الشاعر، حيث يعرف اللغويون صوت الكاف بأنه " صوت شديد مهموس، يتكون بأن يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة، فلا يُحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولا، فإذا وصل إلى أقصى الفم قُرب اللهاة، انحبس الهواء انحباسا كاملا، لإتصال أقصى اللهاة بأقصى الحنك الأعلى، فلا يسمح بمرور الهواء، فإذا انفصل العضوان انفصالا مفاجئا انبعث الهواء إلى خارج الفم، محدثا صوتا انفجاريا، هو ما نسميه الكاف "[3]ففي حركة الكاف من الرئتين إلى الفموانحباسه قرب اللهاة قبل خروجه، شبيهة بمعاناة الشاعر وتوقف حاله،و توقه وشوقه للقاء المحبوب، وحال الشوق كما عرفه (السراج الطوسي) لا يكون إلا " لعبد قد تبرم ببقائه شوقا إلى لقاء محبوبه "[4]، كما يقول أن المحبة لا تكون إلا " لعبد نظر بعينيه إلى ما أنعم الله به عليه ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه، وعنايته به، وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى، من العناية والهداية، وقد تم حب الله له ،فأحب الله عز وجل"[5].

يقول في مقطوعة تتألف من أربعة أبيات، من البحر البسيط :

---

[1] أبو مدين شعيب، الديوان ،64.

[2] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني(الرؤيا والتشكيل) ،ص40.

[3] ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص77.

[4] السراج الطوسي، اللمع، ص94.

[5] المرجع نفسه ،ص 86.

تَحْيـا بِكُم كُـلَّ أَرضٍ تَنزِلُونَ بِهَا كَأَنَّكُم فِي بِقَـاعِ الأَرضِ أَمْـطَار
و تَشْتَهِي العَيْنَ فِيكُم منْظَراً حسناً كـأَنَّكُم فِي عيـون النَّـاسِ أَزْهَـار
و نُوركُم يهْتَدي السَّـارِي لِـرؤْيته كـأَنَّكُـم فِي ظـلاَمِ اللَّيلِ أَقْـمـار
لاَ أَوحش الله ربعـاً مـن زِيارِبكُم يـا من لَهُم فِي الحشَا والقَلْب تِذْكَار [1]

أما بقية الأصوات المهموسة التي تكررت في الديوان وهي (الهاء، والتاء، والحاء)، فنسبة ورودها ضئيل، فالهاء تكررت في مقطوعة من بيتين تسع مرات (09)، بنسبة(2,5%)، أما صوت الحاء، فتكرر خمسة وعشرين مرة في ثلاثة عشر بيتا،وبنسبة (6,94%)، أما التاء في قصيدة تتألف من اثني عشر بيتا تكررت واحد وعشرين مرة، وبنسبة (5,83%).

ب) . التماثل الصوتي :

ويقصد به شيوع "المقاطع الصوتية المؤلفة من صامت وصائت طويل، سواء أكان الصائت الطويل ألفا أم واوا أم ياء"[2].

و هذه الأصوات الثلاث (و ا ي)، والتي تسمى في الإصطلاح اللغوي، بحروف العلة ،شكلت مجالا واسعا للبحث لدى اللغويين، نظرا لما تلعبه في النظام الصوتي للغة العربية، فتضاربت الآراء حول كونها صوتا أم حركة أم نصف حركة، أم أنها تجمع كل تلك الخصائص، وفي الحقيقة " أن الفتحة والكسرة والضمة، وما يتفرع عنها من حروف مدّ، هي أصوات اللّين العربية التي أشار إليها القدماء"[3]وهذه الأصوات تجمع بين صفة الصوت والحركة، وهذا ما يؤكده كتاب (ابن جني) "سر صناعة

[1] أبو مدين شعيب،الديوان ،ص66.
[2] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوتية، ص87.
[3] ابراهيم أنيس ،الأصوات اللغوية ،3837 .

الإعراب " حيث يقول : " اعلم أن الحركات أبعاض لحروف المدّ واللّين، وهي الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو"[1].

. أصوات اللّين :

شاعت حروف اللين في ديوان أبي مدين شعيب ،فلا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة منها، بإعتبار أنّ " لحروف المد والحركات، وظيفة فنية صوتية إذ تؤدي في كثير من الأحيان إلى تنوع النغمة الموسيقية، للفظة أو لجملة، فهي ذات مرونة عالية وذات سعة في إمكانياتها الصوتية، فتضفي موسيقى خاصة ذات تأثير نفسي يشبه ذلك التأثير الذي يحققه اللحن الموسيقي" [2]، كما أن أصوات اللّين أوضح في السمع من الأصوات الساكنة .

و ما يظهر ذلك ما تقدّم في قول أبي مدين :

تَضيقَ بِنَا الدُّنْيا إذَا غِبتَم عَنَّا وتَذْهَب بالأَشْواق أَرواحنـا منَّـا

فَبعدُكُم موتٌ وقُربكُم حيـا فَإنْ غِبتَموا عَنَّا ولَو نَفَسـاً متنَـا

نَمُوتَ ببعدِكُم ونَحْيا بِقُربكُم وإنْ جاءنَا عَنْكُم بشير التّقَا عِشْنَا[3]

بالإضافة إلى الوضوح الذي تمتاز به حروف "اللّين " (المد)، فعند نطقها تستغرق وقتا طويلا ولعل ذلك " يتناسب دلاليا مع الصوت المصاحب للنّداء أو المخاطبة عن بعد، فكثير منها يوحي بنداء ضمني يتمثل في مناجاة الشاعر للذات العليا التي يتعلق بها ويخاطبها طلبا للوصول أو شرحا لحاله الذي يعاني فيه الألم والحزن والحسرة، أو البث والشّكوى والأنين وطلب المواساة" [4]، ومدّ الصوت في المقاطع

---

[1] أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسين هنداوي، دار القلم، دمشق ،ط1 ،1985، ج1،ص17.

[2] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية، ص87.

[3] أبو مدين شعيب ،الديوان ،ص59.

[4] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية ،ص88.

الطويلة في الأبيات السابقة، في مثل قوله (تضيق، غبتم، الأشواق، بشير، متنا ....) تماثل صوتي، حيث " ينسجم هذا التماثل مع دلالة المقطوعة التي يعبر فيها الشاعر عن بثّه وشكواه فضلا عما تحتاجه المقاطع الطويلة من صوت ممتدّ، إذ النطق بها يحتاج إلى زمن أطول من نطق المقاطع القصيرة، مما يستدعي إيقاع الحزن وأصوات التألّم " [1].

وفي هذا يقول الشاعر في قصيدة من الكامل :

قَدْ زَادَ فِيكَ مِن الغَرام تَلَهُّـفِـي فَإِلَى متى هَذَا الجفَا يـا متْلفي

فِي القَلْبِ نِيرانُ الجفَا قَدْ اشْعلَتْفَمتى بوصلِكَ نَار قَلْبِي تَنْطَفِي

و إِلَى متى هَذَا التَّجنِي والقِـــلَى فَعسى المُعنّى من وِصالِكَ يشْتَفِي

يا مالِكاً رقّي بحسنِ جَمَـــالِه هَلاّ تُراقُ لِمستهام مدْنَـــــف

فنرى المد الصوتي في الأبيات في قوله (زاد، غرام، تلهفي، الجفا، نار، مدنف....) وهي مفردات تعبر عن حالة الشاعر العاشقة والمستاءة فالتماثل الصوتي ينسجم " في هذه المقطوعة مع دلالتها، ويضفي هذا التماثل أصواتا متساوية إيقاعيا، لصوت النداء، نداء الشاعر الواجد العاشق للذات العليا الراغب أبدا بالوصول "[2]، ولكن مما يزيد معاناته وألمه الإعراضوالصدود، مما يزيده في نفس الوقت الثبات والإصرار.

3) . الإيقاع الخارجي :

أ . وصف البحور :

[1] المرجع السابق، ص88.

[2] المرجع نفسه ،ص89.

استخدم أبو مدين شعيب في ديوانه، ستة بحور، يمكن ترتيبها كالآتي : الطويل، البسيط، الكامل، الخفيف، الرجز، المتقارب .

وقد ظهر (البحر الطويل) الذي يحمل التفعيلتين (فعولن، مفاعيلن)، في ثمانية قصائد، والتي تحتوي على، ثمانية وعشرين ومائة بيت(128)، لتصبح نسبة استعمال البحر(35,55%) إلى مجموع الأبيات التي بلغت ستين وثلاثمائة بيت (360)، وهي نسبة مرتفعة، مقارنة بباقي البحور، والبحر الطويل عند أبي مدين شعيب يبلغ أعلى نسبة، وقد نظم على البحر الطويل " أكثر من ثلث الشعر العربي، قديمه ووسيطه وحديثه "[1].

أما البحر البسيط فقد ورد عنده في ثلاث مقطوعات، وأربع قصائد، ضمت تسعا وتسعين بيتا (99)، لتصبح نسبة استخدام البحر(27,5 %)، من مجموع أبيات الديوان، وقد استخدم هذا البحر تاما، ولم يستخدم مجزوئه، والذي " لم يعد يستسيغه الشعراء، وإنما أصبحوا يميلون إلى نوع مشتق منه، هو الذي سماه أهل العروض بمخلّع البسيط "[2]، ولم يستخدم أيضا مخلّع البسيط، لقلة استخدامه، بينما جاء البحر مكتملا عنده، يتألف من تفعيلتين (مستفعلن، فاعلن).

أما بحر الكامل فهو ثاني مرتبة، من البحور الصافية، يتكون من تفعيلة واحدة، تتكرر في الشطر ثلاث مرات وهي (متفاعلن)، وقد استخدم كاملا ومجزوءا في الشعر العربي، فورد في خمس قصائد ومقطوعتين، ضمت ستة وسبعين بيت (76)، ونسبة استخدمها تقدر ب (21,11)% .

أما بحر الخفيف ،و هو بحر يتكون من تفعيلتين (فاعلاتن، مستفعلن)، ويحتل رابع مرتبة في الديوان، بقصيدتين فقط، بمجموع تسعة وعشرون بيتا(29)،و بنسبة منخفضة تقدر بـ (7,40%).

[1] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية ،ص 40،نقلا عن صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية ،ص34.
[2] ابراهيم أنيس ،موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية ،ط6، 1988،ص118.

أما المجتث، يأتي في المرتبة ما قبل الأخيرة، من حيث عدد الأبيات بقصيدة واحدة من عشرة أبيات (10)، بنسبة (3,70%).

أما المتقارب يأتي بالمرتبة الأخيرة، وهو يتكون من تفعيلة واحدة وهي (فعولن)، بقصيدة واحدة أيضا، تتكون من ثمانية أبيات (08)، بنسبة (3,70%)، الفارق بين المجتث والخفيف هو عدد الأبيات .وهي أضعف نسبة في الديوان . والجدول التالي، يبين لنا، نسب توظيف البحور المستخدمة في الديوان[1] :

البحور الشعرية	عدد المقطوعات أو القصائد	نسبتها إلى الديوان	عدد الأبيات تامة ومجزوءة	نسبتها إلى الديوان	عدد أبيات التام منه	نسبتها إلى الديوان	عدد أبيات المجزوءة	نسبتها إلى الديوان
الطويل	8	30,77	128	35,56	128	35,56	0	0
البسيط	7	26,92	99	27,50	99	27,50	0	0
الكامل	7	26,92	76	21,11	76	21,11	0	0
الخفيف	2	7,69	19	5,28	19	5,28	0	0
المجتث	1	3,85	10	2,78	10	2,78	0	0
المتقارب	1	3,85	8	2,22	8	2,22	0	0

[1] حمزة حمادة، جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، شهادة لنيل درجة ماجستير ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، تخصص أدب جزائري قديم، إشراف د أحمد موساوي، الموسم الجامعي ،2008/2007م، ص109

الجدول يوضح عدد المقطوعات والأبيات، التامة والمجزوءة ونسبتها إلى الديوان، ويمكن أن نستنتج ما يلي :

لم يخرج أبو مدين عن البحور الخليلية التي اشتهرت لدى الشاعر العربي، فتقيد بها بالرغم من بعض الأخطاء في الوزن والعروض القليلة التي وقع فيها في ديوانه.

ولم يستخدم سوى ستة بحور من بحور الشعر الستة عشر، بنسبة منخفضة تقدر بـ (37,5%)، فقد استغنى الشاعر عن عشرة بحور، فنسبة بحور الشعر التي لم توظف تقدر بـ (62,5 %)، ربما السبب راجع لإنشغاله بالتدريس عن نظم الشعر، فمجموع الأبيات لم يتجاوز عنده ستين وثلاثمائة بيت (360) وأطول قصيدة عنده هي (خمريته) التي لم تزد عن الخمسين بيتا .

نال بحر الطويل النصيب الأوفر في ديوانه، كما عرف هذا أيضا في الشعر العربي، فقارب استخدامه ثلث الديوان تقريبا، كما مال الشاعر إلى البحور المركبة التامة، وابتعاده عن المجزوءة . وربما يعود سبب توظيف هذه البحور دون غيرها، له علاقة بحالته ، المتمثلة في الحنين والفراق عن المحبوب، فالبحور التي استخدمها تتلاءم مع حالته وتجربته الشعرية . مع أن فكرة الربط بين الأوزان الشعرية والحالة النفسية للشاعر لاقت إعراض كثير من النقاد قدماء ومحدثين، إلا أن بعضهم من قدماء ومحدثين أيضا، يرى ضرورة ذلك الربط، (فحازم القرطاجني) مثلا يرى أنّه " من تتبع كلام الشعراء في جميع الأعاريض، وجد الكلام الواقع فيها، تختلف أنماطه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان، ووجد الافتتان في بعضها أعم من بعض ،فأعلاه درجة في ذلك الطويل، والبسيط " [1]، و(ابراهيم أنيس) يرى نفس الرأي، من ضرورة هذا الربط، فيقول " حالة الشاعر النفسية في الفرح غيرها في الحزن واليأس، ونبضات قلبه حين يتملكه

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2،ص268.

السرور سريعة يكثر عددها في الدقيقة، ولكنها بطيئة حين يستولي عليه الهم والجزع، ولا بد أن تتغير نغمة الإنشاد تبعا للحالة النفسية " [1].

و الأوزان التي استعملها أبو مدين من أكثر الأوزان التي وظفها الشعر العربي، في مقدمتها الطويل والبسيط، الكاملو الخفيف، المجتث والمتقارب. والطويل والبسيط من البحور ذات المقاطع الطويلة،

" والشاعر في حالة اليأس والجزع، يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع، يصب فيه من أشجانه ما ينفّس عنه حزنه وجزعه "[2].

قال أبو مدين من الطويل :

يا قَلْب زرتَ وما انْطَوى ذَاكَ الجوى عَجبا لِقَلْب بالنَّعيم قَـــدْ اكْتَوى
زَادَ الغَرام وزَالَ كُـــل تـصـبُّـــرٍ عَالَجْتَه قَبـــل الزّيـارة فَـانْطَـوى
و لَهيب وجـــد هيجـتْه روضَـــةٌ من أَجلِها حلَتْ من الصَّبْرِ القُوى [3]

و يقول مناجيا في قصيدة أخرى من البسيط :

يا من عَلاَ فَرأَى ما في الوجود وما تَحْتَ الثَّرى، وظَلاَم اللَّيل منْسدلُ
أَنْتَ المُغيثُ لِمن ضَاقَتْ مـــذَاهبه أَنْتَ الـدَّلِيل لِمن ضَاقَتْ به الحِيل
إِنَّـــا قَصدْنَاكَ والآمـــالُ واثـــقَةٌ الكُلُّ يدْعوكَ ملْهوفٌ ومبتهـــل
فـإِنْ عَفوتَ فَذُوا فَضْـلٍ وذُو كَرم وإِنْ سطَوءتَ فَأَنْتَ الحاكم العــدلُ [4]

و يقول في قصيدة من الكامل :

---

[1] ابراهيم أنيس،موسيقى الشعر ،ص175.

[2] محمد صابر عبيد، القصيدة العربية بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية ،منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2000، ص177.

[3] أبو مدين شعيب، الديوان، ص65.

[4] أبو مدين شعيب، الديوان، ص69.

الله قُل وذَرِ الوجـودَ وما حـوى إنْ كُنْتَ مرتَاداً بلُوغَ كَمـــال
فَـــالْكُلُّ دونَ الله إنْ حـــقّقْتَه عَدَم عَلَى التَّفْصيلِ والإجْمَـال
واعْلَم بأنّكَ والعوالِمُ كُـــلها لـولاَهُ في مَحْوٍ وفي اضْمِحلاَل
مـن لاَ وجودَ لـذَاته من ذَاته فَوجـودَهُ لَـولاَهُ عَيْنُ مُحـال[1]

و يقول في الخفيف :

جِئْتَ مستَخْفِياً وقَد عَرفُوني هَا أَنَا تَائِب تُرى يقْبلُـوني
أَنَا بالبَاب واقِفٌ لِي دَهْـــر كُلَما رمْت وصْلَهُم ابعدُوني
لـم أكُن للْوِصال أَهْـلاً ولَـكن أَنْتم بالوِصال أَطْـمعتموني
في بحَار الهوى غَرِقْتَ بوجْدي طَالَ شَوقِي لَهم وقَدْ تَركُوني
أَيُّتُها النَّفْس ساعديني ونُوحي ويح قَلْبِي ومهْجتِي هجرونِي [2]

و قال قصيدة واحدة من المجتث، نجتزئ من مطلعها الأبيات التالية :

لَـولاَكَ ما كـــانَ وُدّي ولاَ منـــازل لَـــيـــلاً
و لاَ حـــدَا قَطّ حـــادَ ولَا ســـار الرَّكْب ميـــلاً
يا حـــادي العيس مهْلاً هـــل جزْت في الحي أَمْ لاَ[3]

كما قال قصيدة واحدة من المتقارب جاء في ختامها:

صَدَدْتَ فَكُنْتَ مليح الصُّـــدُود واعْرضْتَ افْديكَ من معْرِض
فَفي حالَة السخَط لاَ في الرِضَى بيـانُ المُحبّ من المُبغِض[4]

---

[1] المصدر نفسه، ص57.

[2] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ،ط2 ،ص334

[3] أبو مدين شعيب، الديوان ،ص 61.

[4] محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب،دار الأمة العربية للطباعة والنشر ،الجزائر، ط1 ،2004،المطبعة الجديدة ،فاس،1995،ص 161

هذه بعض المقطوعات من البحور التي نظم عليها الخليل . الإسم كامل

ب) حرف الروي :

تعتبر القافية ركيزة مهمة في البيت الشعري، والروي عنصر من ستة عناصر تَشكل القافية، و" هو الوحدة الصوتية التي تتكرر في آخر كل بيت من القصيدة، وإليه تنسب القصيدة كلّها " [1]، وإليه تنسب فيقال قصيدة لامية أو سينية....

و على الرغم من أهمية القافية، إلا أنه قد اختلف العروضيون في تحديدها، وكما نعلم أن القصيدة لا تكون مقفاه إلا إذا " اشتملت على ذلك الصوت المكرر في أواخر الأبيات، وإذا تكرر وحده ولم يشترك معه غيره ،عدّت القافية حينئذ أصغر صورة ممكنة للقافية الشعرية " [2] فالروي أساسي في تكوين الإنسجام والتوازن الإيقاعيفي البَيت الشعري .

والمتطلع لقصائد أبي مدين شعيب، يلاحظ أنّه قد استعمل اثني عشرة صوتا في روي قصائده وهي كالآتي (اللام، الرء، الهاء، النّون، العين، الباء، الميم، الحاء،الطّاء، الألف، الفاء، الضاء)، ومن المعروف أن حروف الهجاء كلّها تصلح أن تقع رويا،لكن الشعراء فضّلوا أصواتا بعينها لهذا اختلفت نسبة ورود بعض أصوات الهجاء رويا، وصوت (النون) أكثر الأصوات شيوعا في روي قصائده في الديوان، حيت تكرر ثمانية وثمانين بيتا (88)، ويعتبر صوت النون من الأصوات التي " تجيء رويا بكثرة، وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار العرب " [3].

---

[1] رجاء عيد، التجديد الموسيقي في الشعر العربي (دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد لموسيقى الشعر العربي)،منشأة المعارف بالأسكندرية،(دت)،ص138.

[2] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص247.

[3] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 248.

وروي (الهاء) جاء في بيتين فقط، و(الحاء) في ثلاث عشرة بيتا، وتعدّ الحاء من الحروف " المتوسطة الشيوع"[1]، أما الأصوات الاخرى جاءت كما يلي :

"روي (الراء) في تسعة وستين بيتا (69)، (الميم) في ثلاثة وخمسين بيتا (53)، (اللام) في أربعة وثلاثين بيتا (34)، الباء في سبعة عشر بيتا (17)، و(الطاء)في سبعة عشر بيتا (17)، و(العين) في خمسة عشر بيتا (15)، و(الفاء) في ثلاثة عشر بيتا (13) ، و(الضاد)في ثمانية ابيات (8) "[2] .

من خلال ما تقدم نستخلص أنأبا مدين لم يستعمل الكثير من الأصوات مثل (الخاء، الجيم، الذال، الزاي، الظاء، الغين، الصاد، القاف، الكاف، الواو، السين،الشّين، الهمزة،الياء، التّاء، الثاء)، وهي" حروف نادرة في مجيئها رويا: الذال، الغين، الخاء، الشّين، الزاي، الظاء، الواو" [3]، وهي حروف لك يوظفها أو مدين رويا في قصائده، وهو لم يشد عن غيره من الشعراء،وعما اعتادته العرب في روي أشعارها، إلا أنه استخدم رويا، حرفين من الحروف "تشترط فيها شروط حين تقع رويا مثل: التّاء، الكاف، الهاء، الميم " [4]، ومن الحروف التي وردت بشكل لافت (الميم)، حيث وصل عدد الأبيات ثلاثة وخمسين بيتا،" يُحسن في الميم حين تقع رويا ألا تكون جزءا من ضمير،كما في الضمير الذي للمثنى والجمع "[5]، فنجد أبو مدين قد خالف هذا الشّرط، فأتت (الميم) عنده جزءا من ضمير جمع المخاطب .

يقول في قصيدة متشوقا للأحبة من الطويل :

متى يـــا عَرِيب الحـــيِ عَيْنِي تَرَاكُـم ... واسْمَع مـــن تِلْكَ الدِّيـــار نِدَاكُم
و يَجْمعنَـا الدَّهْر الـذِي حالَ بيننـــا ... ويَحْظَـــى بِكُم قَلْبِي وعَيْنِي تَرَاكُـــم

---

[1] المرجع نفسه، ص248

[2] حمزة حمادة، جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، ص 113.

[3] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص248.

[4] المرجع نفسه ، ص249.

[5] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، 253.

أَمرُّ عَلَى الأَبواب مِـن غَيْرِ حـاجةً لَعلِي أَراكُـم أَو أَرى مـن يراكُـم
سقَانِي الهوى كَاساً مِن الحبِّ صافِيـاً فَيـالَيتَه لَمَّـا سـقَـانِي سـقـاكـم[1]

التزم الشاعر طوال القصيدة التي تتألف من أربعة عشر بيتا بتلك الميم، المضافة إلى كاف الخطاب، في حين يرى العروضيون أن مجيء مثل هذه الميم " يكون في ذلك في البيت أو البيتين، أما أن تكون كل أبيات القصيدة مختتمة بمثل هذه الميم، فلا يكاد يقع شعر الشّعراء " [2]، ولعل الإلتزام بحرف الروي . وإن كان مخالفا عروضيا . فيه إصرار على عشق الذات الإلهية، لبلوغ ذلك التجلي والبسط .

و الشاعر في الأبيات السابقة، لم يخالف القاعدة العروضية مخالفة تامة " لأنّه إذا تصادف أن جاء الروي تلك الميم، التي هي جزء من الضمير وحدها، حسن أن يلتزم معها الحرف الذي قبلها " [3]، وقد طبق أبو مدين ذلك، حيث إلتزم صوت الكاف في كامل القصيدة، فيقول في الأبيات الموالية، من نفس القصيدة :

فَيـا لَيتَ قَاضِي الحـبّ يَحْكُم بيننَـا وداعِي الهوى لَمَّـا دَعـانِي دَعَاكُـم
أَنَـا عَبْدُكُم، بل عَبْدُ عَبْدِ بعبدِكُـم ومَمْلُوكُكُم، مِـن بيعِكُم وشـراكـم
كَتَبتَ لَـكُم نَفْسِي ومـا ملَكَتْ يدي وإنْ قَـلَّتْ الأَمـوالُ روحِي فَـدَاكُـم[4]

فصوت الميم من الأصوات المتوسطة مجهور، لا هو بالشديدو لا بالرخو ،إضافة إلى ورودها (الميم)، مضمومة في كامل القصيدة، والضم يستلزم مدّا طويلا، كل ذلك يتماشى مع دلالة الأبيات، ولعل ميزة التوسط لصوت الميم، جعل الشاعر معلقا، بالرغم من مجهوداته، فلا هو أُبعد، ولا هو نال مبتغاه. كما نلمح في الأبيات خضوع وانكسار .

[1] أبو مدين شعيب،الديوان ،ص64.
[2] ابراهيم أنيس ،موسيقى الشعر، ص253.
[3] المرجع نفسه، 253
[4] أبو مدين شعيب، الديوان ،64.

وفي ذلك المد، الذي يتولد عنه في عرف العروضيين، (وصلا)، والذي يؤول بالقطيعة التي ينتج عنها معاناة الشاعر، بسبب البعاد والهجران الذي استمرت معه الآلام .

ووردت الميم في الأبيات، ميم الجماعة وهي عند النّحاة لا محل لها من الإعراب، وربما مجيئها على هذه الحالة " ينسجم مع تعبير الشاعر عن الألم الذي يعانيه، فقد غرق في الهموم والحزن والعذاب "[1]

و يقول في نهاية القصيدة، معبرا عن شدّة حبه للمحبوب (الذات العليا)، والتعلق به لدرجة الفناء والموت، يقول :

ولي مقْـــلَـــةٌ بالـدَّمعِ تَجْري صبيبةً حـرامٌ علَيها النَّـوم حـتى تَـراكـم
خذُوني عِظَامـاً مُحَـمَّلاً أَيـن سرتُم وحـيثُ حـللْتم فَادْفنوني حـذَاكُم
و دوروا علَى قَبْري بـطَرف نعالُـكُم فَتحتا عِظَامي من حيثُ أُصغي نِداكُم
و قُولُوا رعـاكَ الله يا ميّتَ الهـوى وأَسكَنَكَ الـفـردوس قـرب حِماكُم[2]

كما جاء صوت (الميم) في قصيدة خرى، جزءا من بنية الكلمة، ويجوز هذا عروضيا، جاء في قصيدة طويلة تتألف من سبعة وثلاثين بيتا (37)، وتسمى (استغفارة أبي مدين)، وهي من البسيط، يقول في مطلعها :

استَغْفِر الله مُجْري الفُلْكَ في الظُلَم علَى عَباب من التّيار ملتطـم
استَغْفِر الله مـولانَـا وخـالقُنا من كُلِ تَقْصيرنَا بالشُّكْرِ للنّـعم
استَغْفِـر الله منْجـي المُستَجير به إذَا أَلَمَّ بـه ضـرٌّ مـن الأَلَم
استَغْفِر الله غَفَّار الـذُّنوب لمـن بالإنْـكسار أَتَـى والذُلّ والنَّدم[3]

[1] أماني سليمان داوود، الأسلوبية والصوفية، 49.

[2] أبو مدين شعيب،الديوان، ص64.

[3] محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ص163.

أما روي (الهاء)، فورد بأقل نسبة في الديوان، حيث جاء في بيتين اثنين فقط، من بحر الكامل، يقول معترفا فيهما:

الله ربي لاَ أُريـــدُ ســـواهَ هـــل في الوجود الحي إلاَ الله

ذَاتَ الإلـــه قَوام ذَواتنـــا هـــل كَانَ يوجدُ غَيْرَه لَـــولاَهَ[1]

وتعتبر الهاء من الحروف القليلة رويا ،وقد اشترط العروضيون شرطان أساسيان لتقبل رويا في القافية، أولها هو " أن تكون أصلا من أصول الكلمة، وجزءا من بنيتها " [2]، أما ثاني شرط ،فهو " أن يسبقها مدٌّ " [3]، ويظهر أن أبا مدين قد التزم بالشرطين العروضيين واضحا في البيتين السابقين، ففي البيت الأول جاءت (الهاء) أصلية في لفظ الجلالة (الله)، وهي جزء من بنيتها .

أما في البيت الثاني، جاءت (الهاء)، غير أصلية في لفظة (لولاه)، وهي تحقق الشرط كونها مسبوقة بمدّ، وهو الألف، الناتج عن حركة (اللّام)، وعليه فإن أبي مدين لم يشذّ عن القاعدة العروضية، فألم بالشروط التي تستساغ فيها (الهاء) حرف روي،

" وإن كان مجيء هذا النوع من القصائد، قليل الشيوع في الشعر العربي " [4]

ج) . القافية المطلقة :

عرف العروضيون القافية المطلقة، التي يكون فيها حرف الروي متحركا، وقد تنوعت حركة الروي في ديوان أبي مدين شعيب، بين (ضم وفتح وكسر)، ومن المعروف أن " القوافي المطلقة تنزع؟ إلى اشباع الحركة في آخرها سواء كانت كذلك أم لا، فيتحول فيها المقطع الأخير إلى مقطع طويل ممّا يستدعي

---

[1] أبو مدين شعيب،الديوان، ص57.

[2] ابراهيم أنيس ،موسيقى الشعر ،ص253.

[3] المرجع نفسه، ص254.

[4] المرجع نفسه، ص253.

قوة في نطقه ووضوحا في أسماعه"[1] والملاحظ أن جميع القوافي عند أبي مدين شعيب . تقريبا . من قبيل هذه القافية المطلقة، فكانت حركة الروي فيها متنوعة " ولعل هذا الوضوح في الأسماع والقوة في النطق، يجعل كلمة القافية منبورة نبرا دلاليا، يهدف إلى إظهار هذه الكلمة في البيت لتعلّق غرض بها"[2]، مما يدل على وضوح تجربة الشاعر الصوفية، وربما في اشباع حركة الروي، إظهار لإستمرار مأساته، والتي أصبحت تتأرجح بين بعدين، الحضور والغياب .

. الروي المفتوح :

أخذ الروي المفتوح النسبة الأكبر في القوافي والتي جاء رويها مفتوحا، وبلغ عدد القصائد التي جاءت على هذا الشكل ثمانية (8)، وعلى الرغم من قلّة عدد القصائد، إلا أن عدد الأبيات جاء مرتفعا نسبيا، مقارنة مع مجموع الأبيات البالغ ستين وثلاثمائة، حيث بلغ ستة وأربعين ومائة بيت، ما يقارب نصف أبياته، بنسبة (40,55%) من مجموع الأبيات .

وهذه النسبة تظهر كما أسلفنا الذكر وضوح تجربة الشاعر ،كشفه لما كابده من آلام الحب للذات الإلهية، انطلاقا من أن الفتح يتميز " عند النطق به بانعدام أنواع الإعتراضات، أو العقبات من طريق الهواء، وينشأ عن انعدام الإعتراضات، أن ينعدم وجود أي احتكاك يصاحب النطق " [3]، لأن أصوات اللّين (المد)، وهي التي يشبع بها حرف الروي فتكون (وصلا) في القافية، وهي من الأصوات الأكثر وضوحا في السمع " ولعل الفتح ينسجم مع الوضوح الكشف " [4]، فيبوح الشاعر بما يعانيه من آلام الحب، ومن أشواق القرب للذات الإلهية، يقول في إحدى قصائده التي تحمل الروي المفتوح:

يا خَليلي خَلّياني ووجـــدي ... أَنَـــا أَولى بنار وجدي صليا
إنَّ لِي في الغَرام دمعاً مطيعاً ... وفُـــؤَاداً صبا وصبراً عصيا

[1] محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ،2006، ص120.
[2] المرجع نفسه ،ص 120.
[3] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية ،ص72، نقلا عن سعد مصلوح، دراسة السمع والكلام ،ص213.
[4] المرجع السابق، ص72.

أَنَا من عَاذِلي وصبْري وقَلْبِي حـــائر، أَيُّهم أَشَـــدُّ عَيِيـــا
أَنـــا شَيْخ الـغرام من يتَّبعني أَهْده في الهوى صراطاً سويـــا
أَنَا ميّتَ الهوى ويوم أَراهـــم ذَلِكَ اليـــوم، يـوم ابعثُ حيـا [1]

و قال أيضا :

لَمَّا عَنْكَ غِبنَا ذَاكَ العـام فَإِنَّنَـا نَزلْنَا عَلَى بَحْرٍ وساحِلُه معنَـا
و شَمْس عَلَى المَعْنى تُوافِق افُقَنا فَمغْرِبُهـا فِينَـا ومشْرِقُهـا منّـا
و مسَّتْ يدَانَا جـوهَر منْه رُكّبتْ نُفُوس لَنَا لَمَّا صفَتْ فَتجوهرنَـا
عَرفْنَا بِهَا كُل الوجود ولَم نَـزلْ إِلَى أَنْ بِهَا كُلَّ المَعارِف انْكَرنَـا [2]

. الروي المكسور :

القصائد ذات الروي المكسور تحتل، المرتبة الثانية، حيث وصل عددها ثمانية قصائد أيضا، مثلما تحمل قصائد الروي المفتوح، لكنها تختلف من حيث عدد الأبيات، حيث تبلغ مع الروي المكسور إلى المائة بيت، بنسبة تقدر بـ(27,77%)، أي حوالي ثلث الديوان، وربما ذلك يشير إلى خصوصية التجربة التي يمثلها في شعره، ومن أمثلة الروي المكسور قوله :

تَمَلَكْتم عَقْلِـي وطـــرفي ومسمـعي وروحي وأَحشَائِـي وكُلِّـي بأَجْمَعِـي
و تيـــهْتموني في بـــديعِ جَمَالِكُم ولَم أَدْرِ في بَحْرِ الهـوى أَين موضَعِي
و أَوصـــيتموني لاَ أَبـــوح بسـرِكُـم فَبـاح بِمَا أَخْفَي تـــفيُّض أَدْمـعِـي [3]

تتكون القصيدة من إحدى عشرة بيتا، جاء رويها مكسورا، مما زاد القصيدة إيقاعا مميزا انسجم في إيقاعها من جميع الأبيات،والتي تكرر في بعض أبياتها حركة الكسر، مثل قوله (طرفي، عقلي،

[1] أبو مدين شعيب،الديوان، ص62.
[2] المصدر نفسه، ص 63.
[3] أبو مدين شعيب،الديوان، ص60.

مسمعي....)،والصوت المكسور لعله يدل على الحزن والإنكسار،وخاصة أنه يتطلب مدا (ياء الإشباع)، نلمس من خلال معاناته وإستمرار حرقته، وقصيدته في الحب الإلهي نحا أبو مدين فيها " مناحي الشعراء الغزليين، الذين يعبرون عن مقدار حبهم، وشوقهم إلى محبوبهم بمقدار تيهانهم، وفناء أجسادهم، بإصفرارها ونحولها وسقمها، وكذلك على صدق العاطفة وفيضها، كدليل أيضا على أن العلاقة بين المحب ومحبوبه، علاقة انفصال وهجران وتمنّع المحبوب عن لقاء محبه " [1]، فالشاعر تسيطر عليه حالة الحزن والهم، والتي سببها فيض حبه للذات الإلهية، ورغبته للوصال . كما يقول في قصيدة من ثمانية أبيات من بحر المتقارب، نجتزئ منها الأبيات الاتية :

أَتـاني زَمـاني بِمَـا ارتَضي ... فَبِـالله يـا دَهْـر لاَ تَنْقَضِـي

أَيا لَيْلَةَ الـوصْلِ عَـودي لَنَـا ... لأَنَّ الحَـبيب عَـلَينَـا رضي

سقَاني بِكَـأْسِ الهـوى شُربـةً ... فَشَاهَدْتَ في الكَأْسِ نُوراً بيضي

و نَحْن عَلَى العَهْدِ نَرعَى الوداد ... وعَـهـدُ المُحبينْ لاَ ينْقَضِـي

صَدَدْتَ فَكُنْتَ مَليح الصُـدُود ... وأَعْرضْتَ أَفْدِيـكَ من معْرِضِ [2]

فلا يزال الشاعر يتقلب في وجده وحزنه، ومن خلال الأبيات يبدو فرحاً من مشاهدة محبوبه، والمشاهدة في الأحوال، هي " شهود تجليات أنوار الجمال، وخلوص الحب للجميل " [3].

. الروي المضموم :

نجد القوافي ذات الروي المضموم تحتل المرتبة الثالثة، مع أن عددها أكثر من ذات الروي المفتوح ،أو المكسور، حيث بلغ مجموعها عشر قصائد (10)، إلا أن عدد الأبيات لو يتعدى الأربعة والتسعين

[1] مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤياو التشكيل)،ص27.

[2] محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ،ص161.

[3] عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتقديم وتعليق ،د عبد العال شاهين، دار المنار ،1993، ص347.

بيتا (94)، ونسبتها بالنسبة لمجموع القصائد (26,11 %) ، ومن القصائد ذات الروي المضموم، القصيدة الغوثية من البحر البسيط، يقول فيها :

يا من يغيثُ الورى من بعد ما قَنطُوا إرحم عَبيداً أَكُفَّ الفَقْرِ قَدْ بسطُوا
واستَنْزلُوا جودَكَ المَعهــودَ فَاستهم ريّا يريهم رضَى لَم يثْنه سخَــطُ
وعامــلِ الكُلَّ بالفَضْلِ الذي أَلْفَوا يا عادلاً لاَ يرى في حكْمه شَطَطُ [1]

وفي مقطوعة أخرى من البسيط يقول :

يا من عَلاَ فَرأَى ما في القُلُوب وما تَحْتَ الثَّرى، وظَلاَم اللَّيلِ منْسدلُ
أَنْتَ المُغيثُ لِمــن ضَاقَتْ مذَاهبه أَنْتَ الدَّلِيل لِمن ضَاقَتْ به الحلل
إنّا قــصدْنَــاكَ والآمــالُ واثــقَةٌ والكُلُّ يدْعوكَ ملْــهوفٌ ومبتهــل
فــإنْ غَفَرتَ فَذُوا فَضْلٍ وذُو كَــرم وإنْ سطَوتَ فَأَنْتَ الحاكــم العادلُ[2]

و في قصيدة أخرى تتألف من ثلاثة عشر بيتا، وهي من بحر الكامل، نجتزئ منها الأبيات الآتية والتي يقول في مطلعها :

يا صاحِ لَيس علَى المَحِبّ جناح إنْ لاَح من أُفُقِ الوصال صباح
لاَذَنْب لِلْعشَــاق إنْ غَلَب الهوى كِتْمانُه، فَضَح الغَــرام فَبــاحوا
سَمحوا بأَنْفُسهم وما بَخلُوا بهــا لَمَّــا دروا أَنَّ السَّماح ربــاح
لَم يــطْربوا إلا بذكْــــرِ حبيبهم ولَهم بطــول زمــانهم أَفْــراح

فالأبيات السابقة توضح انكسار وخضوع الشاعر، فجاء روي الأبيات مضموما " يبدو الشاعر فيها متظاهرا بالقوة محاولا التماسك ومجاهدة النفس، على المواجهة والجلد، فيظهر شيئا من العزة والأنفة،

[1] أبو مدين شعيب،الديوان، ص69.
[2] المصدر نفسه، ص69.

ويبطن تواضعا وعشقاً للذات العليا "[1]، فالأبيات جاءت بعد الغياب، فالشاعر في حال فقد وحاجة وحنين، لذلك نلاحظ في الأبيات السابقة، دعوته للمغفرة والإستغاثة، وطلبه للوصال، وفي كل ذلك تظاهرا بالتصبر والجلد، والصوت المضموم يجسد ذلك " الفخر والإعتزازوالشموخ والتّعالي"[2] وهذا ما تظهره الأبيات، مع ما يبدو فيها من خضوع وانكسار .

ومما يجدر إليه الإشارة في هذا الفصل، هو أن لغة الخطاب الصوفي بالرغم من قصديتها وازدواجيتها (إشارة وعبارة)، تتميز بخصائص جمالية خاصة، كما أن التركيز على كمية الرمز المستخدمة في القصائد، "ينأى باللغة الصوفية من مجرد الإحتماء بالحرف من تلك الضغوط النّفسية والإجتماعية، فيجعل منها عنصرا من تجربة أنطروبولوجية تقوم على عنصرين مهمين جماليوتراجيدي "[3].

وجمالية اللغة الصوفية تتمثل في رصد الكنايات والإستعارات والرموز المستعملة في الخطاب الصوفي، كما أن اللغة الصوفية تتحلى إيقاعيا بكل جماليات الإيقاع العربي الداخلي والخارجي، حيث لم يشذّ فيها أبو مدين شعيب عما اعتادته القريحة، ولا العروض العربيين من مميزات وخصائص .

---

[1] أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية ،ص71.

[2] عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات، ص242

[3] حمزة حمادة ،جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب ،رسالة ماجستير،ص 120

الفصل الثالث :
تجليات الحكمة في شعر أبي مدين شعيب

أولا : مدلول الحكمة

ثانيا: مقتضيات الحكمة:

ثالثا : مصادر الحكمة في شعر أبي مدين

رابعا: تجلي الحكمة في قصائده

تعددت مدلولات الحكمة، من خلال ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ، وحتى عند بعض العلماء والفلاسفة الذين توغلوا في الحديث عن الحكمة وتعمقوا فيها ، وهذا دليل على شرف المسمى.

أولا :مدلول الحكمة :

أ . مدلول الحكمة اللغوي :

قال ابن منظور: "قيل:الحكيم، ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم"[1].

وقال الجوهري : الحكم : الحكمة من العلم . وصاحب الحكمة : المتقن للأمور

وقد حكُم . بضم الكاف، أي صار حكيما، قال النمر بن تولب :

وابغض بغيضك بغضا رويدا إذا أنت حاولت أن تحكما[2]

وقال الأصمعي : "أي إذا حاولت أن تكون حكيما .والمحكّم بفتح الكاف . هو الشيخ المجرب، المنسوب إلى الحكمة"[3].الصحاح مادة (حكم 5 /190)/

وقال في تاج العروس : والحكمة . بالكسر . العدل في القضاء كالحكم، والحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه ، والعمل بمقتضاها، لهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال هي هيئة القوة العقلية العلمية .

وقيل : الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعمل .

---

[1] ابن منظور،لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط1، 1997، مادة (حكم) 15 /30 ،(كتاب الحمة)، ناصر بن سليمان، ص12 .

[2] أبو هلال العسكري،جمهرة الأمثال، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،عبد المجيد قطامش،دار الفكر،ط2 ،1988، ج2،ص184.

[3] ناصر سليمان ،كتاب الحكمة ، دار الوطن للنشر، الرياض،ط1 ، 1412هـ،ص12.

فالحكمة من الله : معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام .

والحكمة من الإنسان : معرفته، وفعل الخيرات .

وأحكمه إحكاما : "أتقنه، ومنه قولهم للرجل إذا كان حكيما : قد أحكمته التجارب . وأحكمه : منعه من الفساد"[1].تاج العروس مادة (حكم) 8 /353

وفي "المصباح المنير وزان قصبة للدابة، سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه . ومنه اشتقاق الحكمة، لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل"[2].المصباح المنير 1 /200

. ذكر اللغويون في مادة حكم أن الحكم أصله المنع، ومنه سميت اللجام حكمة الدابة .

ويقال : حكمت الدابة وأحكمتها، وحكمت السفينة، وأحكمته : أخذت على يده، وسميت الحكمة بهذا كما ذكرنا لانها تمنع من الجهل ومنه قول الشاعر جرير :

ابنِي حنيفَةَ أحكِموا سفَهاءَكُم إنِّي أخافُ علَيكُم أَنْ أَغْضَبا [3].

"أي ردوهم، وكُفوهم، وامنعوهم من التعرض لي"[4].

وقيل للحاكم بين الناس حاكم لأنه يمنع الظالم من الظلم ."والحكمة :العدل"[5] (952/2)

والحكيم :" العالم ذو الحكمة، وهو المتقن للأمور"[6] . فيقال "لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم"[7].

---

[1] ناصر سليمان ،كتاب الحكمة ،ص13

[2] المرجع نفسه ،ص13 .

[3]جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت ، 1986،ص 47

[4]الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن تح : صفوان عدنان داوودي ،دار القلم،دمشقالقرآن ، ص،126 .

[5]ابن منظور، لسان العرب ، تح: عبد الله علي الكبير، الناشر:دار المعارف، القاهرة.

[6] ينظر لسان العرب،2 /951 .

[7]أبو بكر الرازي ،مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت1986 ،ص148 .

و الحكيم من أسماء الله تعالى (هو الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأنّ أفعاله سديدة ،وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم)[1].

قال النابغة :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرتْ إلى حمام شــراعٍ وارد الثـــمد[2]

وحكي أن معنى هذا البيت "كن حكيما كفتاة الحي، أي إذا قلت فأصب ،كما أصابت هذه المرأة، إذ نظرت إلى الحمام فأحصتها ولم تخطئ عددها"[3].

والمحكم : "الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب"[4].

العلاقة بين الحكم والحكمة : "الحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة فإن الحكم يقضي بشيء على شيء، فيقول : وهو كذا، وليس بكذا "[5] . والمحكم : المجرب المنسوب إلى الحكمة .

قال طرفة : "ليت المحكم والموعوظ صوتكما"[6]، "أراد به الشيخ المنسوب إلى الحكمة"[7]

---

[1] أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الأسماء والصفات ،تح:محمد حب الدين أبو زيد،مكتبة التوعية البشرية،ج1 ،22

[2] النابغة الذبياني،الديوان، شرح وتقديم:عباس عبد الستار،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، ط3 ،1996 ،ص26.وقد ورد في الديوان بلفظ : احكم كحكم فتاة الحي إذا نظرت إلى حمام سراع وارد الثمد .

[3] ابن منظور، لسان العرب، 2 /951 . 952

[4] المرجع نفسه، 2 /952

[5] الراغب الأصفهاني، معجم ،مفردات ألفاظ القرآن ،126 . 127

[6] طرفة بن العبد، الديوان، شرح : الأديب يوسف الأعلم الشنتمري، تح: درية الخطيب، لطفي الصقّال، المؤسسة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2000 ،ص156 ،وعجز بيت طرفة : تحت التراب إذا ما الباطل انكشفا .

[7] أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر،مؤسسة الرسالة ، ط2، 1986،بيروت. 1 /246

مما سبق تبين أن للحكمة معان عدة نذكر منها :

1 . الحد من الفساد والظلم والجهل

2 . العدل والمساواة

3 . احقاق الحق ومنع الباطل

4 . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

5 . الإعتبار من التجارب السابقة .

6 . وضع الأمور في نصابها وعلى أحسن وجه .

هذه أهم المعاني اللغوية التي وردت في الحكمة"وأصلها وكلها تدور حول المنع، لأنّها تمنع صاحبها من الوقوع فيما يذم فيه، أو ما قد يندم عليه، وتمنعه من اختيار المفضول دون الفاضل، أو المهم قبل الأهم"[1].

ب . مدلول الحكمة في القرآن الكريم :

ورد لفظ الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة، في تسع عشرة آية، في اثني عشر سورة . وقد ورد لعدة معان، وتفصيل ذلك كما يلي : اختلف المفسرون في تفسير الآيات الواردة بلفظ الحكمة، فنجد مقاتل . كما ذكر الرازي . يقول : تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه :

أحدها : مواعظ القرآن، قال تعالى . في سورة البقرة الآية : 231 :﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم﴾ ومثلها في آلعمران.

[1] ناصر سليمان ،كتاب الحكمة، ،ص13 .

وثانيها : الحكمة بمعنى الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى :﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾مريم الآية:12 .

وفي سورة لقمان، الآية :12﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾. يعني الفهم والعلم.وفي الأنعام ،الآية: 89 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾.

وثالثها : الحكمة بمعنى النبوة، ففي النساء الآية: 54﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾وفي سورة ص الآية: 20 ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ وفي البقرة الآية:251 ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

ورابعها : القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، ففي النحل الآية: 125 ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾. وفي البقرة الآية : ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

[1] ناصر بن سليمان العمر، كتاب الحكمة، ص20 .

ويقول الفيروزآبادي :

وردت الحكمة في القرآن على ستة أوجه :

الأول : بمعنى النبوة والرسالة ،﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ آل عمران الآية : 48 . ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ** ﴾ سورة ص ،الآية: 20 .

﴿**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾البقرة ،الآية : 251، أي النبوة .

الثاني : بمعنى القرآن والتفسير والتأويل، وإصابة القول فيه : ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ البقرة، الآية : 269 .

الثالث بمعنى فهم الدقائق والفقه في الدين، ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ مريم ،الآية :12 .

الرابع :بمعنى الوعظ والتذكير،﴿**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾النساء، الآية : 54 . أي المواعظ الحسنة،﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** ﴾ الأنعام ،الآية: 89 .

الخامس:آيات القرآن وأوامره ونواهيه،﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ النحل ،الآية : 125 .

السادس :بمعنى حجة العقل على وفق أحكام الشريعة، ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** ﴾ لقمان،الآية : 12.

"أي قولا يوافق العقل والشرع"[1].

وقال ابن كثير : قال علي بن طلحة عن ابن عباس : "يعني المعرفة بالقرآن ،ناسخة ومنسوخة، ومحكمة ومتشابهة، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله"[2].

وقال أيضا : روي عن عباس مرفوعا : الحكمة : القرآن، يعني تفسيره .

وليث بن أبي سليم عن مجاهد : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾البقرة، الآية: 269 .ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وقال ابراهيم النخعي : الحكمة : الفهم، وقال أبو مالك : الحكمة : السنة .

وقال زيد بن أسلم : الحكمة : العقل .

وقال مالك : وأنه ليقع في قلبي أن الحكمة (هو) الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله .

وقال السدي : الحكمة : النبوة .

وهذه الأقوال ذكرها ابن كثير ثم عقّب قائلا : والصحيح أن الحكمة .كما قال الجمهور . "لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص (لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول)، ولكن لاتّباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء في بعض الاحاديث"[3] .

وقال عبد الرحمن السعدي مفسرا الحكمة : الحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب، في الأقوال والأفعال . ثم قال : وجميع الأمور لا تصلح إلا

---

[1] ناصر بن سليمان ،الحكمة، ص 15، مأخوذ من بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 2 /490 والحكمة في الدعوة إلى الله ،ص18 .

[2] المرجع نفسه، ص 16، نقلا من تفسير ابن كثير 322/1 .

[3] المرجع نفسه، ص 17 ،نقلا عن تفسير ابن كثير 1 /322 .

بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والأحجام في موضع الأحجام .

وقال القاسمي في تفسير الحكمة : قال كثيرون، الحكمة : "إتقان العلم والعمل، وبعبارة أخرى معرفة الحق والعمل به "[1].وقال الرازي : والمراد بالحكمة : "إما العلم، وإما فعل الصواب"[2].

وقال رشيدرضا مفسر:"الحكمة التمييز بين ما يقع في النفس من الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني"[3].قال الألوسي :وفي (البحر) إن فيها تسعة وعشرين قولا لأهل العلم، قريب بعضها من بعض .

ج . مدلولها كما وردت في السنة :

السنة هي المفسرة للقرآن ،وهي المصدر الثاني للتشريع ،لذا سنذكر بعض الأحاديث التي وردت عن الحكمة :

و سنقتصر هنا على الأحاديث الصحيحة ،و بعض من الأحاديث الضعيفة والمشتهر منها :

1)الأحاديث الصحيحةّ :

1 . عن ابن عباس . رضي الله عنهما . قال : ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى صدره وقال:"اللهم علمه الحكمة " [4]رواه البخاري.

قال البخاري: الحكمة الإصابة في غير النبوة .

قال ابن حجر واختلفت المراد بالحكمة هنا .

---

[1] ناصر بن سليمان،كتاب الحكمة ،ص 17 منقول عن تفسير القاسمي 1 /245 .

[2] المرجع نفسه ،ص17 ،منقول من تفسير الرازي 7 /67 .

[3] المرجع نفسه، ص 18 ،منقول عن المنار 75/3 .

[4] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري ، دار بن كثير،2018،بيروت،(3756)

وقيل الإصابة في القول .

وقيل : الفهم عن الله .

وقيل : ما يشهد العقل بصحته .

وقيل : نور يفرق به بين الإلهام والوسواس .

وقيل : سرعة الجواب بالصواب ."ومنهم من فسر الحكمة هنا بالقرآن"[1](فتح الباري 100/7)

2 ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو ذر حدث أن " فَرِج عن سَقْف بيتي وأبا بمكة نزل جبريل ففرج صدري ثم فسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه " رواه البخاري [2].

3 ـ وعن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا حسد إلا في اثنين ،رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها"[3] رواه البخاري.

4. وعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم ،قال :"إن من الشعر حكمة" [4](فتح الباري 10 /540) حديث صحيح.

قال ابن حجر : "إن من الشعر حكمة ،أي: قولاً صادقاً مطابقاً للحق . وقيل : أصل الحكمة : المنع، فالمعنى : أن من الشعر كلاما نافعا يمنع من السفه "[5].

---

[1] سعيد بن علي القحطاني، ، الحكمة في الدعوة إلى الله ،مكتبة الملك فهد الوطنية ،الرياض، ط4، 1424هـ ،ص 23

[2] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (349)، ومسلم (163)

[3] المصدر نفسه،(73)، مسلم (816)

[4] سعيد بن علي القحطاني،الحكمة في الدعوة إلى الله ،ص24 .

[5] البخاري (6145)

5 . وعن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال : سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول : " أتاكم أهل اليمن، هو أرق أفئدة، وألين قلوبا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية " حديث صحيح [1].

قال ابن الصلاح :إنّ المراد بالحكمة : "العلم المشتمل على المعرفة بالله"[2].

ومعاني الحكمة في هذه الأحاديث قريبة من معان الحكمة في كتاب الله .

ومن الأحاديث الضعيفة المشتهرة نذكر ما يلي :

1 . " إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق، فاقتربوا منه، فإنّه يلقن الحكمة " رواه ابو هريرة، وروي عن أبي خلاد، وهو ضعيف"[3].

2 . الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها هو أحق بها ".

وفي لفظ : " حيث وجدها جذبها ". وهو مروي عن ابي هريرة وعلي، وهو ضعيف جدا [4].

3 . " ومن أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه ". روي عن أبي أيوب، وهو ضعيف [5]

4 . " الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء " روي عن أنس، وهو موضوع [6].

5 . قلب ليس فيه حكمة كبيت خرب " . روي عن ابن عمر، وهو ضعيف [7].

---

[1] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (4388)، ومسلم (52)

[2] أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،فتح الباري،تح:عبد العزيز بن باز،المكتبة السلفية،الرياض، 532/6 ،و الحكمة في الدعوة إلى الله،ص24 .

[3] محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير للألباني،المكتب الإسلامي،بيروت،1988، حديث (508)

[4] المصدر نفسه، حديث (4302)

[5] المصدر نفسه، حديث (5369)

[6] المصدر نفسه، حديث (3659)

[7] المصدر نفسه، حديث (4107)

6 . " رأس الحكمة مخافة الله " روي عن ابن مسعود، وهو ضعيف [1].

7 . " الرفق رأس الحكمة " . روي عن جرير، وهو ضعيف [2].

8 . الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في العزلة، وواحد في الصمت " رواه أبو هريرة، وهو حديث ضعيف جدا [3].

9 . " الحكمة تزيد الشريف شرفا، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك " روي عن أنس، وهو ضعيف [4].

10 . " أنا دار الحكمة، وعلي بابها " روي عن علي، وهو موضوع [5].

د . مدلولها عند بعض العلماء :

. عند الفلاسفة :

عبر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها : (التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية) . "يريدون بذلك أنها تعني تجنب الخطأ والزلل على قدر المستطاع وفعل الصواب"[6].

. عرفها المعتزلة بأنها : (قوة الفهم ووضع الدلائل) "واعتقدوا أن الحكمة لا تقوم بنفسها، وإنما ينتفع بها المرء بأن يتدبر ويتفكر، فيعرف حاله ،وما عليه، فعند ذلك يقدم أو يحجم"[7].

---

[1] الالباني، ضعيف الجامع الصغير للألباني حديث، (3066)

[2] المصدر نفسه، حديث (3159)

[3] المصدر نفسه، حديث، (2787)

[4] المصدر نفسه، حديث (2786)

[5] المصدر نفسه، حديث (1313)

[6] محمد الرازي فخر الدين، تفسير الفخر الرازي،دار الفكر للطباعة والنشر،لبنان،بيروت،ط1981،1،ج1،(20 /77)

[7] المصدر نفسه ، 74/7 . 75

. وعرفها بعضهم بأنها : "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم"[1].

. وعرفها الراغب الأصفهاني (ت503هـ)بقوله : (الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل).

ثم زاد قائلا : فالحكمة من الله تعالى : "معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات ،وفعل الخيرات"[2].

. وعرفها الغزالي (ت505هـ) بقوله : "حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الإختبارية "[3].

. وقال الغزالي عن الحكمة :أما الحكمة إفراطها عند الإستعمال في الأغراض الفاسدة يسمى خبثا،وتفريطها يسمى بلها .

و الوسط هو الذي يختص بإسم الحكمة .و "المحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان"[4].

. وعرفها أبو بكر بن العربي المالكي (ت543 هـ)بأنها: "العمل بمقتضى العمل"[5].

---

[1] ابن منظور، لسان العرب ،2 /951 .

[2] الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن تحقيق : صفوان عدنان داوودي،دار القلم،دمشق ،ط4، ص 126 .

[3] أبو حامد الغزالي،إحياء علوم الدين ،دار ابن حزم، بيروت،لبنان،ط1 ، 2005، 54/3

[4] ينظر المصدر السابق 54/3 .

[5] أبو بكر بن العربي، أحكام القرآن لابن العربي : ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط3، 2003. 1214/3

. وعرفها الإمام الفخر الرازي (ت606هـ) بقوله : الحكمة عبارة عن توفيق العلم بالعمل، فكل من أوتي الحكمة، وإن اردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى، فنقول :"حصول العمل على وفق المعلومات"[1].

وعرفها في موضع آخر بأنها : الإصابة في القول والعمل . ثم قال : "ولا يسمى حكيما إلا من اجتمع له أمران، يريد القول والعمل معا"[2].وعرفها في موضع آخر بأنها : (فعل الصواب)

ورأى أن الحكمة لا يمكن أن تخرج من شيئين :

1 . أن يعرف الحق لذاته، وهذا يرجع إلى العلم والإدراك المطلق.

2 . وإن يعرف الخير لأجل العمل به، "وهذا يرجع إلى فعل العدل والصواب"[3] . وعرفها في موضع آخر فقال : الحكمة : "إما معرفة حقائق الأشياء، أو الإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة"[4].

8 . وعرفها القرطبي (ت671 هـ) بقوله : "هي الصواب في المعتقدات والفقه في الدين والعقل"[5].

9 . وحدها البيضاوي (ت791هـ) بأنها : معرفة الحق لذاته ، والخير للعمل به . ثم نقل تعريف العلماء لها إذ قال : " الحكمة في عرف العلماء ،استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ،واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها"[6].

---

[1] محمد الرازي، تفسير الفخر الرازي : 25 /146

[2] محمد الرازي، تفسير الفخر الرازي : 4 /73 .

[3] المصدر نفسه، 4 /73

[4] المصدر نفسه 74/7

[5] شمس الدين القرطبي،الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)،تح:هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب،الرياض،2003، 14 / 59 .

[6] ناصر الدين أبي سعيد البيضاوي،أنوار التنزيل وأسرار التأويل(تفسير البيضاوي)،تح:محمد صبحي بن حلاق،محمود أحمد الأطرش،دار الرشيد،بيروت،ط1 ، 2000 ، 571/1 .

وهذان التعريفان للحكمة متقاربان إذ جعلا للحكمة ركنين أساسيين هما :الأول . اكتساب العلم النافع، الثاني . اختيار الأفعال الخيرة .

ويتجلى مما سبق عرضه : أن الحكمة لا تخرج عن ركني العلم النافع، والعمل الفاضل، مع اتخاذ جانب الوسطية، والتزام الخلق الرفيع، والعدل في الأمور كلها وانتفاع المرء، من تجربة أو خلق أو وسطية

"وقد يكون العالم عاملا ذا خلق جم، ولكن ليست له تجربة فيما يقدم عليه لذا لا بد له أن يجتهد في إصابة الحق وأن يستشير ذوي الخبرة والمران،لأن خطأه ليس كخطأ غيره"[1]. وعليه يمكن تعريف الحكمة بأنها : "إتيان الأمور حسب ما يستلزمه العلم، والخلق والعدل، والتجربة ،و الوسطية"[2].

إذن فهي تقوم على الأمور الآتية: "العلم النافع ،الخلق القويم، العدل المجانب للظلم، الانتفاع بالتجارب السابقة وأخذ العبر منها ،اتخاذ جانب الوسطية بلا إفراط ولا تفريط"[3]

ثانيا: مقتضيات الحكمة:

أ- الحكمة والعقل:

يقول المولى عز وجل في كتابه المحكم: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة ،الآية 269

وفي قوله : **"وما يذّكر إلا أولو الألباب"** جمع لب ، ولب الشيء هو جوهره وباطنه ، و جوهر الإنسان هو عقله ،صاحب العقل الرجيح والرصين. فالحكمة لا يؤتاها إلا عاقل ولا تجتمع مع

[1] د. قوام الدين عبد الستار محمد الهيتي، آيات الحكمة دراسة تحليلية وموضوعية ،ص142 / الموقع الإلكتروني www.iasj.net

[2] المرجع نفسه ، ص 142 .

[3] المرجع نفسه، ص143

الحمق والجهل. والعلماء وازنوا بين الحكمة و العقل، فلا حكيم إلا ويجب أن يكون عاقلا ، لكن يمكن أن يكون عاقلا دون أن يؤت الحكمة. فالحكمة تقتضي العقل.

يقول الحارث المحاسبي " لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل التوفيق"[1].

وفي قوله تعالى ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ (هود:88) أي فضل الله في توفيق عبده في كل قول وعمل وسداده في أمره .

يقول صاحب تهذيب الأخلاق: " ولولا هذا الجوهر الكريم (العقل) الذي هو مسيطر على النفس ومشرف عليها، لكان الإنسان كسائر الحيوانات غير الناطقة في ظهور قوى النفس منه مرسلة من غير رقبة، ومهملة بغير رعية. ولكنها بهذا الجوهر النفيس في جهاد للنفس عظيم " . ويضيف أن الإنسان دائما في جهاد النفس بقوى عقله، لأنه محتاج إلى ردعها به، وإلى ضبطها ومنعها من شهواتها حتى لا تصيب منها إلا بمقدار ما يطلقه العقل ويحده لها"[2]

وفي القول إشارة إلى أن عقل الإنسان هو سلطان لنفسه التي تقوده إلى الأفعال خيرا كانت أم شرا، فهو الآمر الناهي لتلك الأفعال. فإن كان عقلا راجحا أتى الشيء في موضعه ، وأنزل الأشياء منازلها بالقسط و العدل (الحلم في موضع الحلم، الصمت في موضعه، الكلام في محله وهكذا...)

فالحكمة تقتضي العقل ، والعاقل قريب من معنى الحكيم، غير أن كما سبق وأن ذكرنا العاقل أعم والحكيم أخص ،فكل حكيم عاقل ،وليس بالضروري العكس.

---

[1] أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي،تاريخ بغداد،مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة 463هـ،دار الكتب العلمية، بيروت، ص213

[2]ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق،القاهرة ،مكتبة الثقافة الدينية،2001،ص219.

ب- الحكمة وكمال الإنسان :

إن معنى الإنسانية يقتضي جهد وإجتهاد، فلا يكون الإنسان إنسانا بالفطرة فقط ، وإنما بالمجاهدة أيضا لكي يبلغ كماله. يقول الراغب الأصفهاني " إنما الإنسان الحق "أفق" وأن منقلبه بين أمرين: ملاك وبهيمة، شبه بالبهيمة بما فيه من الشهوات البدنية، من الأكل والشرب والنكاح، وشبه بالملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة و العدالة والجود، صار واسطة بين جوهرين : وضيع ورفيع"[1].

وعليه فإن من شأن الإنسان أن يرتقي إلى درجة الملائكية بقوة العلم والنطق والفهم، وأن ينزل منزلة البهيمية بقوة الأكل والنكاح . فمن كانت همته إلى تربية الفكر بالعلم والعمل ، فجدير أن يسمى ملكا ربانيا، ومن كان همه في قوته الشهوانية باتباع الملذات من أكل وشرب كان بصفة البهائم والأنعام.

فكل من له غريزة من العقل ونصيب من الإنسانية فيه حركة من الفضائل والمحاسن التي يقتضيها العقل وتوجبها الإنسانية التي تتحلى بكمال الصفات وجمال الأخلاق. ولن يتصف بالكمال إلا إذا علت ملائكيته على بهيميته، و روحانيته على شهوته.

لكي يتصف الإنسان بالكمال يجب أن يكون جامعا لمحاسن الأخلاق من محبة وسخاء وكرم وشجاعة وحلم وبصيرة...، فإذا اجتمعت فيه كل هته المحاسن من الأخلاق صار أشبه بالملائكة، وبالتالي تتحقق له الحكمة. ولا يمكن أن يسمى الرجل حكيما إلا إذا اكتملت انسانيته المعبرة عن حسن فضائله وأخلاقه ،لأن الحكمة هي الكمال ما يقابلها كل تلك المهالك والمفاسد والمعايب من حمق وجهل وغش وغضب وهي معاني ذميمة.

وكل ما هو مدعاة للحكمة تميز به الشيخ أبو مدين الغوث من عقل راجح أهله منذ صغره بهداية من الله وفطنته للرحيل وترك أهله لطلب العلم الديني واللدني ، وكذلك رحلاته التي شهدها في صحبته لمشايخه الكبار والذين أخذ منهم العلم الظاهري وكذا الباطني. وبما تميز به من أخلاق فاضلة والتي

[1] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسن بن محمد، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء المنصورة، ط3 ،ص987.

اكتسبها بالجهد والمجاهدات التي شهدها طوال عمره ارتقت به إلى صفة الرجل الكامل والحكيم ،فتقلّد بذلك رتبة القطب التي هي أعلى مراتب القوم والسادة الصوفية.

ثالثا : مصادر الحكمة في شعر أبي مدين :

1) المصادر الأصيلة :

أ . موهبته واستعداداته النفسية :

–إن المصدر الأول في تدفق الحكمة وجريانها على لسان أبي مدين شعيب كونه يتمتع بموهبة فطرية ككل عالم رباني لما يصبو إليه منذ طفولته وتوقه وتوجهه القلبي لمعرفة الله، كما كان ذو فطرة سليمة وقلب مرهف، وسريرة نقية توجهه وتدله على الشيخ المناسب الذي يأخذ بيده لتحقيق هدفه المنشود ومبتغاه المرجو إلى طريق الحق والتقرب من الله طوال سيره عبر المحطات التي عرفها،كل هذا أهله لفهم الحياة ومعرفة خباياها واكتساب الحكمة التي أصبحت تجري على لسانه وظهرت في قصائده وأعماله.

والموهبة باعتبارها استعداداً فطريا تجعل صاحبها يملك قدرات عقلية استثنائية في حاجة إلى تنمية وتطوير .

فموهبة أبو مدين أسباب تنميتها وتطويرها . أولا: من خلال نفسيته التواقة ورغبته الملحة لمعرفة الحق.

ثانيا : طلبه العلم وتفقهه على يد جملة من المشايخ الكبار أمثال ابن حرزهم، أبو يعزى، عبد القادر الجيلاني الذي أطلعه على الكثير من أسراره وحلاه بملابس أنواره .

فقد تثقف أبو مدين من مصادر أصيلة كأحسن ما يكون المثقف، فكان يصاحب في دراسته القمم من الشيوخ والعلماء النوابغ ذوي الفضل والورع،إذ "عرفوا بصفاء عقيدتهم وصدق حالهم وصلاح سيرهم، فسار أبو مدين على نهجهم واقتفى أثرهم، ونهل من علومهم واقتبس من أنوارهم "[1].

[1] محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ،دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط1 ،2004، ج1 ،ص31 .

–والمصدر الثاني يتمثل في ارتحاله إلى المشرق وأداء مناسك الحج والعمرة ولقائه بالعالم الجليل "عبد القادر الجيلاني" فأخذ الكثير من العلوم الدينية من حديث وتفسير ....بالإضافة إلى علوم ومعارف أخرى ثقافية وإجتماعية وسياسية .

وبعد هذه الرحلة الطويلة والتي دامت عقدين من الزمن، رجع إلى ديار المغرب العربي استقر ببجاية التي تعرف بمدينة العلم والعلماء فهناك وجد ضالته وسطع نجمه . ولما سطع نجمه خاف على نفسه من الدنيا فابتعد عن المدن والقرى للعبادة والانقطاع لله والتفكير في عظمته ليحفظ نفسه من الكبر والعجب ويخضعها لله كل هذا يبرز مدى حكمته وتواضعه لله في جهاد نفسه وحفظها بالتذكير والعمل.

من خلال ما تقدم نقول أن اتصالاته وتنقلاته الكثيرة والمتنوعة التي لم تتحدث المصادر عنها كلها ،ومشواره الطويل في طلب العلم والتعلم كلها أهلته ليكون حكيما، فحكمته لم تبن من عدم .بالإضافة إلى موهبته التي لعبت جزءا أساسيا في تكونها .

ب . الأحداث والظروف التي عاشها وأثرها على تكوين فكره :

–المصدر الثالث : الإنسان عمومايستقي تجاربه من حيث هو كائن حي يرغب ويحس ويدرك وينفعل ويعبر ويفعل وهو في كل ذلك يتأثر بالأحداث التي يعيشها فيصوغ منها جادة تفكيره ويستخرج منها عبرا ومواعظ تقيه من الإنحراف عن حادة الطريق .

. الحركة الصوفية في عهد الموحدين : عرف العالم الإسلامي في القرن الثاني الهجري حركة روحية فكرية رائدة ،ونمطا من السلوك الذوقي الروحي، لم يعهده المسلمون من أيام النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وقد طرح هذا التوجه رؤية جديدة للدين، مبني على فهم خاص للإنسان والوجود والعلاقة بين الخالق ومخلوقاته، عرف في بداياته الأولى بالزهد وبعد تطوره واكتمال ملامحه وخصائصه سمي بالتصوف، وقد قدر لهذا الفكر أن يزدهر في القرنين السادس والسابع وصولا إلى القرن الثامن للهجرة، وينتشر في مختلف ربوع العالم الإسلامي، في ظل التنوع الثقافي والحضاري الذي أفرزه توسع الدولة الإسلامية إقليميا.

"وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، واستتباب الحكم فيها للمسلمين بعد سنوات من الحملات والمعارك الضارية ضد المرتدين من السكان الأصليين، تعاقبت على هذه البلاد دويلات كثيرة أولاها الدولة الرستمية في الجزائر، ثم تلتها الدولة الحمادية، ودولة بني زيري، ثم دولة المرابطين فالموحدين .... وكانت هذه الدويلات تستقل جغرافيا بمنطقة معينة لكن كثيرا ما كانت تتناحر فيما بينها بسبب الحدود الإقليمية"[1].

"وقد استمر المرابطون (448 ـ 541 هـ) في دعم الدور الديني والجهادي الذي تقوم عليه الرباطات، وعلى رأسها رباط " عين الفطر"، وأحاطوه بعناية كبيرة، فكان لرؤسائه كلمة نافذة عند حكام المرابطون، وخصوصا عند " علي بن يوسف بن تاشفين " إذ كان هذا الأخير يبعث برسائل إلى الشيخ " أبي يعقوب بن أبي عبد الله أمغار " وهو من أعمدة رباط " عين الفطر " (تيطْنفْطَر بمنطقة دكالة جنوبي مدينة جديدة حاليا)، ويسأله فيها صالح الدعاء . لكنه لم يسلك هذا السلوك نفسه مع بعض رجال التصوف، أمثال أبي العباس بن العريف، والإمام الغزالي وغيرهما، ذلك أن الصوفية دخلوا في شقاق مع طبقة الفقهاء، وامتحنوا بسبب الضجة التي قامت حول كتاب إحياء علوم الدين للغزالي "[2].

ويمثل القرن السادس الهجري الإنطلاقة الحقيقية للتصوف الطرقي وانتشاره كما ذكرنا سابقا، "إذ تسربت أفكاره من المشرق إلى المغرب، فظهرت الطريقة القادرية المنسوبة لـ "عبد القادر الجيلاني " (ت561 هـ)، كما برزت الطريقة الرفاعية نسبة لـ"أبي العباس أحمد بن أبي الحسين الرفاعي " (ت 540هـ)، وظهرت بعد ذلك الشاذلية نسبة لمؤسسها الشيخ "أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار" (ت 656هـ)، المعروف بالشاذلي نسبة إلى "شاذلة" في تونس"[3].

---

[1] محمد كمال شبانة، الدويلات الإسلامية في المغرب ،دار العالم العربي، القاهرة ،ط1 ،2008 ،ص112 ـ 113

[2] نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط1 ،2008 ، ص51.

[3] صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تح : أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى ،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000، ج1 .2، ص141 .

وعموما فقد تجاذبت المغرب الإسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين تيارات فكرية ومذهبية متعددة، حمل رايتها قادة الدول خاصة في عهد المرابطين والموحدين .

"أما في عهد الموحدين (524 ـ 668هـ)، فقد زودنا "عبد الواحد الماكشي " في "المعجب "، بأخبار كثيرة عن محنة بعض المتصوفة مثل " أحمد بن الحسن قسي "، حيث ذكر أن المتصوف الذي كان ينحو في تصوفه منحى عرفانيا، سيق إلى "عبد المؤمن الموحدي " لكنه بعد أن عفا عنه غدر به أصحابه وقتلوه، كما تحدث نفس المصدر عن الخليفة "يعقوب المنصور " وعن زهده وتقشفه في لباسهومأكله، خصوصا في سنة (583هـ)، حيث انتشر في أيامه الصالحون والعابدون وأهل الحديث، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، وقامت لهم سوق وكان يستدعي الصالحين من البلاد، ويسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته "[1].

عاصر الشيخ أبو مدين شعيب هاتين الدولتين، وقضى ما يفوق الأربعين عاما تحت ظل الدولة الموحدية، التي توحدت معها بلاد المغرب الإسلامي والأندلس وبعض جزر البحر المتوسط، لتمتد حدودها من مصر الفاطمية إلى المحيط، ومن أعماق الصحراء إلى شمال الأندلس، وعاصرالشيخ من ملوكهم ثلاثة، " عبد المؤمن بن علي "، و"يوسف بن عبد المؤمن "،و"المنصور بن يوسف " ومثل عهدهم العصر الذهبي للمغرب كله [2].

من خلال ما تقدم يتضح أن أبا مدين قد تأثر بالظروف التي أحاطت به والأحداث التي شهدتها الدولة الموحدية من استقرار ولا استقرار فكونت عنده تلك الأفكار التي كانت ضد طغيان الجانب المادي على الروحي فكانت حكمته وليدة لهذه الظروف والأحداث انضجت فكره وبلورت رؤيته نحو الإنسان والحياة وانعكس ذلك على إنتاجه الأدبي .

[1] عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح وعناية، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 ،2006 ،ص126.

[2] محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ،ص10 .

ج . انتشار الأدب الصوفي في عصره :

و يؤكد المؤرخون أن الدولة الموحدية عرفت اهتماما واسعا بالعلوم والآداب، وقد شجعت الفلسفة على عكس المرابطين الذين ناصبوا أهلها العداء، وقد أحاط الأمراء الموحدون أنفسهم بالفلاسفة والشعراء، ممن ذاعت شهرتهم بالآفاق، وانتشرت في عهدهم المجالس العلمية انتشارا واسعا، خصوصا أن الأمراء أنفسهم كانوا يديرون تلك المجالس، ويجلبون إليها العلماء من كل حدب وصوب .

"كما تميز عصرهم بالتحرر الفكري، فوقف الفقهاء عاجزين أمام كتاب مثل " الفتوحات المكية " لـ "ابن عربي"، لا يحركون ساكنا رغم حكمهم بإحراق كتاب " الإحياء" في العصر الذي سبقه، مع عظم الفرق بين محتويات الكتابين مما لا تقره المذاهب الفقهية بجملتها وبما يتعارض ظاهريا مع العقيدة الإسلامية في كثير من الأحيان"[1].

وعليه فقد ازدهرت الحياة الثقافية بما فيها الأدب خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وتقدمت الحركة الشعرية الصوفية تقدما كبيرا يعكسه الكم الكبير للشخصيات الصوفية المثبتة من كتب التاريخ والتراجم، على غرار عنوان الدراية " للغبريني" و"البستان " لـ "ابن مريم "، والتشوف لـ "ابن الزيات التادلي.

ويضم النتاج الشعري الصوفي في هذه الفترة دواوين وقصائد ومقطوعات مختلفة الأنماط، كالمطولات والمعشرات والعشرينيات والوتريات والتخميسات والتربيعات والموشحات ...

عاش أبو مدين في هذا الجو المشحون الزاخر بالعلم، والمشجع على المنافسة والإجتهاد، والتحرر الفكري، ووجد فيه المناخ الخصب للتعلم والتعليم والدعوة والتأليف، فمارس دعوته وتجربته بدون أية

[1] عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ،1961، ص191.

عوائق، فترك بصمته وخلّد اسمه في سجل التصوف الإسلامي، والتي تشهد على نبوغ الرجل وحكمته ورزانته .

كما أنهذا التنوع والغنى الأدبي والفكري قد نمّى فيه روح الحكمة ونور البصيرة وتجلى ذلك في أعماله الأدبية شعرا كان أم نثرا .

2) المصادر الأجنبية :

. الفكر الفلسفي وأثره على العقلية العربية :(الصوفية) :

شهد هذا العهد ظهور متصوفة كبار، بسبب الحرية الواسعة التي منحتها إياهم الدولة، "فاستقى بعض الصوفية آراءهم من الفلسفة واخلطوها بالجانب التعبدي، وبلغ اشتهار المغرب الإسلامي بهذا النوع من الدراسات، أن كان يلجأ إلى علمائه في حل المشكلات الفلسفية العويصة، كالمسائل التي وجهها علماء الروم إلى علماء سبتة ليجيبوا عنها، والتي انتدب للإجابة عنها، الفيلسوف والصوفي الشهير "عبد الحق بن سبعين "، الذي ضمن هذه الإجابات في كتاب سماه : المسائل الصقلية "[1].

لقد اشتهر في هذا العصر كثير من شعراء الزهد والتصوف، نظرا لإقبال الناس على التمسك الشديد بالدين وعزوفهم عن الدنيا، وشعرهم " نابع من ممارسة التصوف بقسميه السني والفلسفي، ونعني بالأول التصوف الذي سار متقيدا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والإهتمام بالتعبد والزهد، ويمثل هذا الإتجاه أبو مدين وأبو زكريا الزواوي وغيرهم في العصر الموحدي، وكانت منابع دراستهم : قوت القلوب لابن طالب المكي، ورسالة القشيري، وإحياء علوم الدين للغزالي"[2]. "أما التصوف الفلسفي، فيمثله ابن عربي الذي مر ببجاية في نهاية القرن السادس الهجري"[3]، وأبو الحسن الحرالي التجيبي. كما يمثله ابن

---

[1] عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف ،مصر، 1971 ،ص362 .

[2] أحمد بن أحمد أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح : رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،ط2، 1984، ص 45 . 46.

[3] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية ،ط4، 2004 ،ج1 ،ص335.

سبعين عفيف الدين التلمساني، "وقد عاصر فترة حكم الموحدينكثير من الصوفية، من أبناء المغرب ومن الوافدين عليه من الأندلس والمشرق، منهم من مر بحواضر المغرب كبجاية وتلمسان، للتعلم أو التعليم ومنهم من طاب له المقام فاستقر بها بقية حياته، نذكر منهم " أبا القاسم عبد الرحمن بن يوسف البجائي ، وابن طفيل الذي نحا في التصوف منحى عقليا، وأبا الفضل عبد المؤمن بن عمر، وعبد السلام بن مشيش، وأبا العباس بن أحمد بن محمد الشريسي السلوي، وأبا الحسن الششتري وابن سبعين المرسي"[1]...وغيرهم .

"هؤلاء المتصوفة لم يكونوا يكتفون بالعبادة والسلوك الأخلاقي، وإنما كانوا يدرسون نظريات المعرفة والوصول إلى الحقيقة الإلهية وحقيقة الأشياء، وحينما كانت عقولهم تعجز عن إدراك الحقيقة الإلهية بالمقاييس العقلية، كانوا يستعيضون عنها بالمجاهدات النفسية، والرياضات الروحية للوصول إلى ذلك الكشف"[2].

إن احتمالية أخذ حكمته من المصادر الأجنبية والفلسفات الأخرى من(يونانية وأفلاطونية وفارسية وهندية..) ضئيل جدا، كونه رجل دين متشبع بالثقافة العربية الإسلامية فطبيعي أن مصادره أصيلة، أخذها من استعداده النفسي بالدرجة الأولى لتلقي العلوم الشرعية على كبار علماء الدين والفقهاء، وصقلها على أهل التصوف الذين اهتموا بالجانب الباطني وهو علم الأخلاق والسلوك إضافة إلى الأحداث والظروف التي شهدها ساهمت في بناء تفكيره وانشغاله بالجانب الروحي . فمن الممكن أنه قد اطلع على الفلسفات الأخرى لأنه عاش في عصر العلماء والنوابغ من ثقافات وفلسفات أخرى .. لكن هذا لا يعني أنه قد أخذ عنهم الحكمة المتجسدة في كتاباته، فمنابع حكمته كانت من موهبته واستعداده الفطري ونقلية من الكتاب والسنة، أما العقليةفتأثره بها لم يكن واضح .

رابعا: تجلي الحكمة في قصائده :

[1] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5 ،ص311 .

[2] أحمد بن أحمد أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية ،ص 46 .

إن الأدب الصوفي يهدف للتربية والنصح والتوجيه والإرشاد، عبر مبادئ أخلاقية وصفات ربانية يتحلى بها المرء وتجلى ذلك بوضوح في أشعارهم التي طغت عليها الحكمة .

. الحكمة في الشعر :

"في الأدب العربي تراث حافل من الحكم وأدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه، لما تمتاز به من صدق النظرة، وكان العرب في الجاهلية لا يعدّون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة، وأدب الجاهلية حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائليها من سادة القبائلوأشرافها، وهذا الباب من أكرم أبواب الأدب العربي، ومن أجلّه . كان العرب في تلك العهود يغالون بالشّعر وينشؤون أبناءهم على مدارسه، وكانوا يسمون هذا الباب من الشّعر بالأدب؛ لأنّ حفظ آثاره والتمثل بها يؤدبان النّفس ويهذبان الخلق"[1].

وقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النّضج العقلي، فقد أفادوا من خبرة الماضين وأخبار الملوك وقصص الأمم البائدة والملاحظ في الحكمة أنّها تلخص تجربة الشاعر ونظرته إلى الحياة والنّاس وقد جاءت بعامتها في أسلوب واضح سهل بعيد عن الغريب والتكلف، وقد تغلب على الحكمة مسحة من الحزن والعاطفة التي يشيع فيها الألم والحسرة ؛ وذلك لإرتباط الحكمة بالرثاء من ناحية، والتفكير بمصير الناس، والموت والفناء من ناحية أخرى، ويتضح فيها أثر السن وخبرة الأيام، ففيها تجارب ذاتية، وفي بعضها وعظ وإرشاد ونصح وهداية [2].

"ومنبع هذه الحكمة تجارب الدّهر وحوادثه والنّظرة الصحيحة الواقعية إلى الأشياء، " فالحكمة تلك العبارة التّجريدية التي تصيب المعنر الصحيح وتعبر عن تجربة الحياة أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها

[1] فخري أبو السعود، "في الأدب المقارن "، مجلة الرسالة، العدد 207 ،1937 م.

[2] يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت ،ط5 ،1986،ص416 .

عادة الموعظة والنصيحة، والحكمة لهذا المعنى لا تصدر إلا من أولئك الذين تمتّعوا بقسط موفور من الذكاء، ونفاذ البصيرة، وفصاحة العبارة وبلاغتها "[1].

فعرفت الجاهلية كثيرا من الحكماء، ذاعت حكمتهم فاشتهروا في عصورهم وبعدها بأصالة الرأي وبعد النظر، ودقة التفكير والنظر الصائب والفهم الصحيح للحياة وأحداثها وتجاربها، فتجري على ألسنتهم الحكمة البليغة الرائعة، وكان العرب يلجؤون إلى هؤلاء الحكماء في الخصومات والمفاخرات والمنافرات والمشاكل التي تواجههها، بل كان في كل قبيلة حكيم تستضيء برأيه في جميع شؤون حياتها ."ومن أشهرهم"[2]قس بن ساعدة (ت600 م)، وقصي بن كلاب (400 ـ 480م)، ولقمان بن عاد، وأكثم بن صيفي (ت630م) من الناثرين، وعبيد بن الأبرص (ت 598م) ، وعدي بن زيد العبادي (ت587م)، وأمية بن أبي الصلت(ت626م)، وأوس بن حجر (530 ـ 620 م)، وحاتم الطائي (ت605م) من الشعراءوغيرهم .

كان في العصر الجاهلي حكماء يفكّرون ويتدبرون في أمور الدّنيا، ووصلوا نتيجة تأملاتهم وتجاربهم إلى حكم رفيعة عالية، مثلما ثبت لنا أن الومضات الحكمية في الشعراء لا تصنعها الأعمار الطويلة فقط، بل أيضا تصنعها الظروف النفسية للشعراء .

ولقد كان من أثر الإسلام في العقلية العربية أنه ما كادت تنزل آيات القرآن الكريم التي تقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[3]،حتى أخذ المسلمون ينظرون إلى العلم وآثاره نظرة جديدة، وكان للقرآن الكريم وأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثر محمود في الدعوة إلى التأويل في الكون واحترام العقل، مما

[1] السيد جعفر الحسيني، تاريخ الأدب العربي، دار الإعتصام ،ط1 ،1995،ص151 .

[2] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7 ، 1988م، 1/365.366 .

[3] سورة العلق ،96

أدى إلى إقبال المسلمين على تدارس القرآن، وعلى جمع الحديث، وعلى الأخذ من ثقافة الأمم المفتوحة ،فبدأوا يضعون الأسس لكثير من العلوم التي انتشرت وازدهرت في عهد الإسلام والخلفاء المسلمين .

و الحكمة عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أعز ما يطلب، وقد حثّ عليها، قائلا : (الحكمة ضالةالمؤمن وإذا وجدها فهو أحق بها)[1]. ولا شك أنّ العرب المسلمين الذين آمنوا بإدراكهم لمنزلة الحكمة في القرآن الكريم والحديث الشريف قد جنح بهم تفكيرهم إلى إجهاد عقولهم لإثبات ذاتهم بالتفكير الجاد والحكمة البليغة . وهكذا ما مضى وقت من الزمن على ظهور الإسلام حتى أخذ العقل الإسلامي ينضج ويتشبع بالتعاليم الجديدة عقيدة وفكرا وحكمة، فظهر حكماء عرفوا برجاحة العقل وأصالة التفكير وبعد النظر، وقد احتلوا مكانة رفيعة بين قومهم، وتناقل الناس حكمهم ؛ اعترافا بفضلهم ؛ وتقديرا لمكانتهم وسيادتهم، وفي الحكمة كتب ونظم كثيرة لعلماء الدين، ومن الحكمة التي مبعثها الشعور الديني أشعار أبي العتاهية (ت826م) وابن عبد القدوس (ت783م) والإمام الشافعي (ت204هـ)...

و الموضوعات التي طرقتها الحكمة في الأدب العربي كثيرة، فقد تحدثت عن شتى نواحي الحياة، من غرور الدنيا وتقلبها،والحذر منها والتسليم بزوالها، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال، إلى نذرة الصديق الصدوق....

لقد اهتم أبو مدين شعيب من خلال قصائده التي جلّها كانت تتحدث عن الحب الإلهي بتسديد خطأ الإنسان وخطاه نحو السعادة الأبدية بما أودعه في شعره من حكمة وما استخلصه من تجربة شعورية نافعة وجهها ببث تلك المحبة تارة وبالشكوى والتذلل تارة أخرى ،كلها تصب في توجه واحد وهو النصح والإرشاد والتوجيه والوعظ لسالك طريق التصوف بهدف الوصول إلى الحقيقة والقرب من الحضرة الإلهية.

[1] القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، مسند الشهاب ،تح : حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985، 65/1 . رحاب عكاوي، لآلئ الحكم، دار الفكر العربي، بيروت ،ط1 ،2003 م،ص9.

أ . قصيدة: آداب الطريق: (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا):

هذه القصيدة كلها نصائح وتوجيهات لسالك الطريق والحث على الإقتداء والعمل بها لبلوغ المقصد والوصول إلى المراد .

. نص القصيدة :

ما لـذَةُ الـعيـشِ إلاَ صـحبـةُ الفُـقَرا هـم السلاطِين والسَّـادَاتَ والأُمـرا

فَـاصـحبـهم وتـأَدَّب في مَجَالسهـم وخَـلِ حظَّكَ مهْمـا خَـلَـفُـوكَ ورا

واستَغْنِم الوقْتَ واحضر دائِماً معـهم واعْلَم بأَنَّ الرِضَى يَخُصُّ من حـضَرا

ولاَزِم الصَّمتَ إلاَ إنْ سئِلْتَ فَـقـل لاَ عِلْـم عِنْدي وكُن بالجهلِ مستترا

و لاَ تـر العيب إلاَ فِيـكَ معتقِداً عَيـبـاً بـدَا بيِّناً لَكِـنَّه اسـتَـترَا

وحـطَّ رأْسـكَ واستَغْفِر بـلاَ سبب وقُـم علَى قـدَمِ الإنْصاف مـعتذِرا

وإنْ بـدَا مِنْكَ عَيب فَاعْتَرِفْ وأَقِـم وجهاً عِيـذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جـرا

وقُـلْعبـيدُكُم أَولَى بـصفْحِكـم فَسـامِحُوا وخُذُوا بالرِفْقِ يـا فُقَرا

هـم بالتَّـفَضُلِ أَولَى وهو شِيـمتهم فَـلاَ تَخَـفْ دَرَكـاً مِنْهم ولاَ ضَـررا

وبالتَّفَتِي عَـلَى الإخْوان جـدْ أَبـداً حِساً ومعْنى وغُضَّ الطَرفَ إنْ عثَـرا

وراقِـب الشَّيخَ في أَحـواله فَعسى يـرى عَـلَيكَ مِن اسيحسـانه أَثَـرا

وقَـدِّم الجِـدَّ واهْضَ عِنْدَ خِدْمته عَـساهُ يرضَى وحاذِر أَنْ تَكُن ضَجِرا

فَفِي رِضَاه رِضَى البـاري وطَاعته يرضَى عَـلَيْكَ وكُـن مِـن تَركِها حـذِرا

واعْـلَم بأَنَّ طـرِيقَ القَومِ دارِسـةٌ وحالَ مـن يدَّعِيها اليوم كَـيفَ تَـرى

مـتَى أَراهُـم وأَنَّى لِي برؤْيتِهـم أَو تَسمـعالأُذُنُ مِنِي عَنْهـم خَـبرا

مـن لِي وأَنَّى لمثْـلِي أَنْ يزاحِمَهم عَـلَى مـوارِد لَم أَلْـف بِهـا كَـدَرا

أُحـبهم وأُدارِيـهم وأُوثِـرهـم بِمُهْجتِي وخُـصوصاً مِـنْهم نَـفَـرا

قَومٌ كِرام السَّجايا حيثما جلَسوا يبقَى المكانُ عَلَى آثارِهم عَطِرا
يهدي التَّصوُّفُ من أَخْلاقِهم طَرفا حسن التآلُف منْهم راقَني نَظرا
هم أَهْل ودّي وأَحبابي الذين هم مِمَّن يَجُرُّ ذُيولَ العِزِّ مفْتَخِرا
لاَ زالَ شَمْلي بهم في الله مُجْتَمِعا وذَنْبنا فيه مغْفُورا مغْتَفرا
ثُمَّ الصلاَةُ عَلَى المُخْتارِ سيّدنا مُحَمَّد خَيْرِ من أَوفَى ومن نَذَرا

تحليل القصيدة : مجموع الحكم المستخرجة من القصيدة :

من بين القصائد المشهورة والتي عرف بها القطب أبو مدين شعيب، فتغنى بها معظم المنشدين وسالكي الطريق ، والمريدينوالذاكرين .وهي قصيدة تفيض بالنصح والتبصير بأهل الطريق والمبتدئين في خوض هذا العلم، وهي جملة من النصائح التي يقدمها لطالب هذا العلم الذي يعنى بالأخلاق وتزكية النفس . ونلاحظ أن حكمة أبو مدين مبنية على ما عاشه من تجربة شعورية والتي عاشها بجميع مراحلها وأحوالها للقرب من الله بالإضافة إلى ثقافته الواسعة والتي تشمل الثقافة الإسلامية والعصر الذي عاشه من ازدهار حضاري والذي شهده عهد الموحدين .

1. لقد بدأ قصيدته باستثناء، أن لا يطيب العيش ولا يحلى إلا بقربك من الفقراء وهم أهل الطريق فيقول:

ما لَذَةُ العيشِ إلاَ صحبةُ الفُقَرا هَم السَّلاَطِين والسَّادَاتَ والأُمرا

الحكمة المستقاة من البيت :

. الصحبة وأثرها على المصاحب : (الصديق من صدقك لا من صدّقك) . والصحبة مع الخلق مفتاح لما وراءها، فأما صحبة الغافلين والعامة من المشتغلين بما لا يعني ولا يغني فهي مفسدة للقلب وأصل الخروج عن سبيل الرشاد، وأما صحبة أهل الذكر والإنابة والقلوب الحاضرة مع الله وخصوصا منهم من عرف نفسه وهذّبها وتهيأ لتهذيب غيره فصحبتهم غنيمة ومنّة ومفتاح ..."تعلمك الصحبة

للملائكة الكرام الذين يكتبون ما يصدر منك من الأقوال والأفعال، ويتعاقبون عليك بالليل والنهار، فلا تستطيع أن تحسن صحبة هؤلاء الملائكة إلا بمجالسة هؤلاء الأكياس من الناس . إن صحبتهم بالروح وهو : الأدب، وصحبتك لهم بالروح هي التي تهيئك لصحبة الملائكة ...تهيئك لصحبة المصطفى بمجالسة سنته والتخلق بأخلاقه ،كثرة الصلاة والسلام عليه، وولع القلب به، والتحقق بمحبته ومحبة الله الذي هو أقرب إليك وأعلم بك، وأمرك كله عائد إليه ومبتدأٌ منه جل جلاله . فتحسن صحبته بتحقيق حقائق التوحيد والقيام بالتفريد، وحسن الحمد والشكر ،ودوام الحضور في حضرته والمسارعة إلى مرضاته ...و ما أعظم وأعلى تلك الصحبة"[1] .

(هم السلاطين والسادات والأمرا)"هم سلاطين الحضرة الإلهية، وهم السادات، ومن لم يبلغ شأوهم ويحصل منزلتهم إن ساد في عالم الخلق فقد ساد أولئك في الملأ الأعلى، وعند الله عز وجل علت مرتبتهم . وإن تأمر هؤلاء على الناس فقد تأمر أهل الله على نفوسهم وعلى الشياطين، وليس للشيطان عليهم سلطان، فمن أحق بالسيادة ؟ من كان مقهوراًومنجراً وراء أهوائه وشهواته وعبدا للمخلوقين لا يقوم حاله إلا بهم، فهم بذلك مساكين وليسوا أمراء وقد قال أهل الملك العظيم : (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)"[2].فهؤلاء حقا هم السلاطين والسادات والأمرا .

ولا بد من الإشارة إلى أن التصوف له دوره الجهادي إلى جانب دوره الإصلاحي، فيدعو إلى التحرر من الإستبداد والدعوة للحرية، إضافة إلى جهاد النفس ،هناك جهاد في الميدان(ضد المستعمر و الظلم) يحارب الأنظمة الإستبدادية و الفاسدة، كذلك يدعو إلى الحرية والتحرر،بما يقتضيه الشرع.

فنلاحظ أن أبيات الشيخ أبو مدين الغوث أفضل ما يصور إحساس الصوفي بالعزة والكرامةوالحرية والتحرر من قيود السلطة الجائرة، والقصيدة تنعت السادة الصوفية ب (الفقراء، والسلاطين، والسادة.)

[1] عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ، مسالك أهل الفطن من معاني قصيدة ما لذة العيش لأبي مدين ، اصدارات دار المصطفى، ط1، 2012 ،ص 15 .

[2] نسبها كثيرون لسيدنا ابراهيم بن أدهم، منهم ابن الجوزي في صفة الصفوة،دار ادار الكتاب العربي،بيروت، (335/2)،.

فيقول كما أشرنا:

مَا لَذَةُ العَيْشِ إلاَ صُحْبَةُ الفُقَرَا هُمُ السَّلاَطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالأُمَرَا

فتارة ينعتهم بالفقراء وتارة بالسلاطينوالأمراء، وهذا التقابل دليل على تحررهم من أي انقياد للسلطة خصوصا الظالمة المستبدة.

" ورأينا في التاريخ الإسلامي كيف قام علماء التصوف بأدوار كبيرة في الدفاع عن الأوطان ومحاربة الإحتلال ، مثلما فعل العز بن عبد السلام مع الظاهر بيبرس ، وأبو الحسن الشاذلي في مواجهة الفرنسيين، وأبو مدين شعيب الذي حضر هو وتلاميذه إلى القدس لمناصرة "صلاح الدين الأيوبي" في معركة (حطين)، كان صلاح الدين نفسه يرى في الزوايا الصوفية منارات للهداية والطاقة الروحية للأمة وهي الحالة التي سار عليها خلفاؤهم ، مثل (عمر المختار) ، (عبد القادر الجزائري) وكثير من الحركات الصوفية التي حملت السلاح دفاعا عن الأوطان".[1]

2 ـ أما البيت الثاني فهو يرى أن الصحبة مفتاح الدخول لميادين القرب مع ترك الحظوظ وذلك بالتواضع والأدب لأهل الله فيقول:

فَاصْحبهُم وتَأَدَّبْ فِي مَجَالسِهِم وخَلِ حظَّكَ مهْما قَدَّموكَ ورا

الحكمة المستقاة من البيت :

فبصحبتهم تكشف لك الحقائق، فـ (المرء على دين خليله)[2]وإذا لم يكن لك خليل لن تكون لك فرصة الدخول إلى ميادين القرب . فاصحبهم كما يقول أبو مدين . مع وجوب الأدب في الصحبة : (وتأدب في مجالسهم) لتحظى بالأخذ من طباعهم وصفاتهم وأحوالهم فيحصل بذلك المجانسة بينك

[1] محمد أبو رمان، أسرار الطريق الصوفي، مؤسسة فريدريش ايبرت، مكتب الأردن، ط2، 2020، ص325.

[2] أخرجه الحاكم النيسابوري،المستدرك في الصحيحين عن أبي هريرة، تح:مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002، (189/4)برقم 7320.

و بينهم . (وخل حظك مهما قدموك ورا) ما تحبه نفسك مهما قدموك اتركه، واقصد وجه الله في خدمتهم وفي الإمتثال لأوامرهم والتخلق بأخلاقهم من آداب .

. والحظوظ خلها وراءك . "لا تأت بشيء منها أمامك فيصير إمامك فيقطع ائتمامك تظن أنّك تأتم به وقد اتخذت قبلك أئمة آخرين تمشي وراءهم، يؤمونك وهم ممن لا يحق لهم أن يؤموا"[1]. وكمال الصحبة بترك الحظوظ ولو كانت من المقامات، ولو كان أهل الطريق مبتغاهم ومرادهم الأول بلوغ المقامات فلا تكون الصحبة كاملة إلا بتخليهم عن حظوظهم من هذه المقامات . وبإخلاصهم لله عز وجل . فيمكن أن يحجب ويشغل بهذا الحظ عن عظيم الحظ وهو المولى عز وجل .

3. في البيت الثالث يشير الشيخ إلى اغتنام الوقت في أخذ رضى الشيوخ وأهل الطريق والإنتفاع من علمهم . فيقول :

واستغنيم الوقْتَ واحضر دائماً معهم واعْلَم بأَنَّ الرِضَا يَخْتص من حضَرا

الحكمة المستقاة من البيت :

اغتنام شيوخ التربية وملازمتهم لأخذ رضاهم: ومن كلام بعض أهل الحكمة (يظن بالمرء ما يظن بقرينه). ويقول ابن عباس : ذللت طالبا، فعززت مطلوبا، وممن يحكى عن وصايا لقمان لإبنه : يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي الأرض بوابل السماء . فكلما سنحت لك الفرصة لازمهم وخذ واستقي من أنوارهم وعلمهم . واحضر دائما معهم : ولسر هذا الحضور وقدره عند الله تعالى، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " صلوا كما رأيتموني أصلي "[2] . أي إذا صليتم

[1] عمر بن محمد بن سالم ،مسالك أهل الفطن، ص19 .

[2] إسماعيل بن إبراهيم البخاري،صحيح البخاري، عن مالك بن الحويرث، باب رحمة الناس والبهائم ،(8/9) برقم 6008

استشعروا أن لقلوبكم رابطة بي. أي لا تنقطعوا عن الصلة بي ،فإذا كان هذا في الصلاة التي هي الحضرة العظمى فمن باب أولى بقية الأعمال " خذوا عني مناسككم "[1].

(واعلم أن الرضا يختص من حضرا) فمن غيب في غفلاته فيفوته كل من الترقي والتهذيب ما يفوتك من فوزك الأكبر وذلك لغيابك .

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبرز للصحابة أهمية الصحبة، لما ذكروا فضله بالنسبة إلى سيدنا أبي بكر قال لهم:" ليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر، أشار إلى ليلة الغار، وأنزل الله مؤكدا لسر الصحبة ﴿ إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [2].

فنصّ الله على صحبة الصدّيق لحبيبه صلى الله عليه وسلم "[3].

4 . في البيت الرابع بيين أن الصمت من صفات الخاشع المتواضع . فيقول :

ولاَزِمِ الصَّمتَ إلاَ إذَا سيِلْتَ فَقُل لاَ عِلْم عِنْدي وكُن بالجهلِ مستتراً

الحكمة المستقاة من البيت :

لا تنشغل بما لا يعنيك فالصمت للمتواضع المتذلل الخاشع، أما المعجب والمدعي لا يصمت .يقول لقمان الحكيم (إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك).وفي هذا يقول الشافعي :

وجدْتَ سكُوتِي متجــراً فَلَزِمتَــهَ إذَا لَمْ أَجِدْ رِبحاً فَلَستَ بِخَــاسِرِ

[1] أبو الحسن مسلم،صحيح مسلم بن الحجاج، عن جابر،تح:محمد فؤاد عبد الباقي،دار المغني للنشر والتوزيع،الرياض،ط1 ، 1998، باب استحباب رمي جمرة العقبة في يوم النحر راكبا ،(675)برقم 1297 .

[2] التوبة، الآية 40

[3] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص23 .

وما الصَّمتَ إلاَ في الرِجالِ متاجر وتَاجِرهَ يعلُو عَلَى كُلِ تـــاجِـــرِ[1]

في كثير من الأحوال الصمت حكتم العلم فيها واجب ."وكان بعض الأكابر من المشايخ يحضر مدارس الشيوخ ولا يتكلم حتى يوجه إليه السؤال ، فإذا وجه السؤال إليه زخر عن علم واسع، ففي هذه الحالة الكلام أولى، وفي مثل هذا الموقف قال سيدنا عمر للذي سأله فقال : الله أعلم !! قال : ما سألتك عن علم الله ؟ قل أعلم أو لا أعلم"[2].

و موقف آخر : يسألهم صلى الله عليه وسلم :" أي يوم هذا فيقولون الله ورسوله أعلم ـ فهل صاروا لا يعرفونها ـ قالوا : الله ورسوله أعلم ..فهذا موقف من مواقف الأدب، فقال عليه الصلاة والسلام : أليس البلد الحرام ؟أليس اليوم الحرام؟ قالوا :بلى"[3].

5. البيت الخامس ينصح بعدم اتباع معايب الغير حتى لا ينصرف عن السير في الطريق . فيقول :

ولاَ تَر العيب إلاَ فيكَ معتقِداً عَيباً بدَا بيِّناً لَكِنَّه استَـــتـــرا

الحكمة المستقاة من البيت :اتّهام النفس والتبصر بعيوبها وتقويمها يعد مسلك تربوي :وعلى المرء أن يشهد عيوب نفسه فهذا يغنيه عن مراقبة معايب الآخرين، "وإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه"[4]يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ستر مسلما ستره الله، ومن تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته" . وورد في رواية أخرى : " ومن تتبع الله عورته فضحه في عقر داره " . وقال صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " .وانشد الإمام الشافعي قائلا :

---

[1] محمد بن ادريس الشافعي،الديوان،تح:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الغد العربي، القاهرة،ط2، 1985،ص81

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص25 .

[3] إسماعيل بن إبراهيم البخاري، في صحيحه عن أبي بكرة، باب الخطبة أيام منى ،(176/2)برقم 1741 .

[4] أبي الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي، المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،اعتنى به :أبو محمد أشرف بن عبد المقصود،دار ابن حزم،بيروت،ط1، 1995 ،كتاب الصبر والشكر، (1579/1)برقم 3984. حديث "إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه " أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله " ورغبه في الآخرة وزاد فقهه في الدين " وإسناده ضعيف.

أُحِبُّ الصالحين ولَستَ منْهم لَعلّي أَنْ أَنَالَ بهم شَفَـــاعَةً

وأَكْـرهَ من بِضَاعَتِه المَعاصي وإِنْ كُنَّا سوِياً في البِضَاعَـــة

فمحاسبة النفس هي من الرياضات والمجاهدات الضرورية للفلاح والنجاح وهو خلق الصادقين والسائرين إلى الله ،فكل ما يثير في نفسك من تتبع معايب الغير فهو عرقلة ومعوق عن السير بل انصراف عنه .

(ولا تر العيب إلا فيكمعتقدا) فاعرض عن عيوب الآخرين والتمس لهم الأعذار . جاء في الأثر " أن المؤمن يتطلب المعاذير وأن المنافق يتتبع العيوب "[1].

فالمؤمن من يتطلب العذر ...فلهذا يقولون في إرشادهم "إذا أذاك أحد واجترأ أو اعتدى عليك فاشهد ضعفه وأنه لو سلط عليك مثل ما عليه لكنت مثله، وأنه لو كان معه قوة وعقل ما وقع في هذا، فهو مسكين واقع الآن في الأسر ..فعند شهود ضعفه تعذره وتتمنى أن يخرج من المأزق الذي وقع فيه، وهذا منهج الأنبياء ومنهج الأصفياء"[2].

قال الصحابي المقداد بن الأسود* يا رسول الله أمامي معايب كبيرة لهذا الرجل : "كفر وأشرك وقاتلني وقطع يدي، وبعد ذلك لاذ بشجرة وقال لا إله إلا الله، قال :أفأقتله ؟ قال صلى الله عليه وسلم لا تقتله، قال: قد قطع يدي قال :لا تقتله . وهذه المعايب كلها ماذا أفعل بها ؟ قال: أبعدها ...واشهد الجمال ..." فإنك إن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته، وكان بمنزلتك قبل أن تقتله" "[3]. فهكذا

---

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (177/2)، قال ابن المبارك: (المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات)

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص31 .

*هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة وبسبب محالفته الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهلية وتبنيه إياه أطلق عليه المقداد بن الأسود شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الفارس ويقال لفرسه أول فرس عدت في سبيل الله، مات المقداد بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة فحمل على رقاب الرجال حتى دفن بالمدينة بالبقيع وصلى عليه عثمان بن عفان . وذلك سنة ثلاث وثلاثين . وكان يوم مات ابن سبعين سنة أو نحوها، من كتاب الطبقات الكبرى .

[3] أأبو الحسن مسلم،صحيح مسلم، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله: لا اله إلا الله ،(95/26)

يحبط عملك كله وترجع أنت محل الكفر ويرجع هو مؤمنا بالله وعليه يجب أن تقوم ميزانك وتتأدب مع الله .

(ولا تر العيب إلا فيك معتقدا عيبا بدا بينا ..) يقول الحبيب عبد الله بن عمر الشاطري [1]

تُخْفِي القَبائِح عَن أَخِيكَ سفَاهَةً وإِذَا برزَتْ تَشَابه النَسَّاكُ
ولَكَم قَبِيحٍ كُنْتَ تُخْفِيه ولَو عَلِم الصَدِيق بِفِعْلِه لَجَفَاكَ
والرَبُّ بِعِلْمِه ولَمْ يكْشِفْه بل أَجرى بِأَلْسِنَة العِبَاد ثَنَاكَ

"فالفضل للساتر لا لمن يشكرك من الناس، لولا ستره لبدا عيبك .لكنه استتر بفائض فضل الله تعالى ولطيف صفحه سبحانه وتعالى وحجب أعين الخلق عن أن ترى عيوبك هذه"[2]

ويقول الشافعي :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيا سلِيماً مِن الأَذَى وحِفْظُكَ موفُور وعِرضُكَ صيِّنٌ
لِسانَكَ لاَ تَذْكُر بِه عَورة امرِئ فَكُلُّكَ عَوراتٌ ولِلنَّاسِ أَلْسُن
وعَيناكَ إِنْ أَبدَتْ إِلَيكَمعَايِباً فَصُنْها وقُل يا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُن[3]

فالأولى أن تنشغل بعيوبك بدل الإنشغال بعيوب غيرك، فعيوب الآخرين لا يضرك منها شيء، ولا يصل العذاب بسبب شيء منها إليك، لكن بما فيك يصل إليك العذاب . فيجب الإرتقاء بالنفس

---

[1] عبد الله بن عمر الشاطري،من قصيدة ديوان الحبيب الشاطري، ص90 مطلعها : يا راتعا في الذنب ما احراكا وبحب هذا الدار ما اغراكا.www.shamela.ws

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص38 .

[3] محمد بن ادريس الشافعي، ديوان الإمام الشافعي،اعتنى به:عبد الرحمن المصطفاوي، دار المعرفة ،بيروت ،لبنان، ط2، 2005،ص 144 . بلفظ:

إذا رميت أن تحيا سليما من الردى ودينك موفور وعـرضك صين
فلا يطقــن منك اللسان بسوءة فكلك سوءات وللناس ألـــــسن
وعيناك إن أبــدت إليك مـعـايبا لقوم فقل يا عين للناس أعــين

ليستر الله عليها، ينبغي أن لا تشهد العيب إلا فيها وأن تستر معايب الخلق وللإرتقاء بها يجب أن يكون المرء دائم الإستغفار وبخضوعها وتذللها وانكسارها تتبين لها الإساءة والذنوب والأوزار فعليها أن تسارع في التوبة .

6 . البيت السادس يشير إلى أن من صفات السالكين الإفتقار لله، فعلى المرء أن يخضع ويتذلل إلى الله ولا يكون ذلك إلا وهو ساجد بين يدي ربه مع لزومه الإستغفار بلا سبب فيقول :

وحطّ رأسكَ واستَغْفِر بلاَ سببٍ وقَم علَى قَدَمِ الإنْصاف معتذراً

الحكمة المستقاة من البيت : من مقتضيات التذلل لله . عز وجل . نزع جلباب الكبرياء والتعالي والتفاخر، والإنكسار بين يدي الله، والخضوع لأمره ونهيه، فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة . رضي الله عنهما . قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته "[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال : "ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملَك، فإذا تواضع قيل للملَكْ : ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملَكْ: ضع حكمته "[2].

(وحط رأسك واستغفر بلا سبب) لزوم الإستغفار بلا سبب فكان سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم يستغفر في اليوم سبعين مرة، فللمرء ذنوب لا يعلمها إلا الله فعلينا أن نستغفر الله مما نعلم ومما لا نعلم . فهناك ذنوب قلبية باطنية لا يعلمها إلا الله وقد أخفاها حتى على الكَتَبة، ولن تجد سواه سبحانه وتعالى يمحوها ويغفرها لك، إذا على المرء أن يكثر الإستغفار . "وطوبى لمن وجد في صحيفته استغفار كثير "[3].

---

[1] أبو الحسن مسلم ،صحيح مسلم،في كتاب البر والصلة ،(3202/4)، رقم (0262)

[2] الحافظ بن أحمد الطبراني،المعجم الكبير،تح: حمدي عبد المجيد السلفي،مكتبة ابن تيمية،القاهرة،ج1 ،(812/21)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ،رقم(835)، وصحيح الجامع الصغير،رقم (1555).

[3] الحافظ أبي عبد الله ابن ماجة،سنن ابن ماجة، تح:محمد فؤاد عبد الباقي عن عبد الله بن يسر،دار إحياء الكتب العربية،ج1 ، باب الإستغفار ،(1254/2)

"ومن لزم الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"[1].

فالتواضع ضرورة ملحة للسالك، يظهر ذلك في قوله (لا علم عندي، وكن بالجهل مستترا) فهنا إشارة إلى التواضع الذي يقتضي أحوالاً وأعمالاً، حالا بقوله :

ولاَ تَر العيب إلاَّ فيك معتقداً عيباً بدا بيّناً لكنَّه استترا

وعملا بقوله : (وحطّ رأسك واستغفر بلا سبب).

فهذه مظاهر التواضع ومحلّه القلب، مظاهره في الحال شهود العيب فيك، ومظاهره في الأعمال أن تحطّ رأسك وتكثر الإستغفار، وتنصف غيرك منك ولا تنتصف لنفسك، فهذا علامة التواضع [2].

(وقم على قدم الإنصاف معتذرا)، فكانوا يعتذرون لمن أساء إليهم، ويعتذرون لمن أحسنوا إليه، فيطلبون العفو والإعتذار وهم قد أحسنوا إليه . فما بالك إن عاملت رب العالمين بهذا السلوك فسيمحو سيئاتك ويبذلها حسنات، ويرفع لك الدرجات

يقول تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3] .وقوله ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾"[4]

7 . في البيت السابع يشير أن للمرء يد في ذلك النقص والعيب والزلل وعليك بالتوبة والإستعانة بالله فيقول :

---

[1] أخرجه ابن ماجة في مسنده عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، باب الإستغفار، (1254/2)برقم 3819 .

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص 45 .

[3] سورة يونس، الآية 26

[4] سورة الرحمن، الآية 60 .

وإنْ بدَا مِنْكَ عَيب فَاعْتَذَر وأَقِم وجهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جرى

الحكمة المستقاة من البيت : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (التائب عن الذنب كمن لا ذنب له) فليس العيب أن تخطئ وتذنب ولكن أن تصر على الذنب . وإذا رجعت وأقررت بذنبك وانكسرت وتذللت له فسيقبلك سبحانه وتعالى فهو الغفار الرحيم .

8 . البيت الثامن يبين إلى أن سالك الطريق محتاج إلى العفو والصفح، محتاج إلى الإحسان والكرم . يقول :

وقُل عَبيدُكُم أَولَى بِصفْحِكُم فَسامِحُوا وخُذُوا بالرِّفْقِ يا فُقَرا

. الحكمة المستقاة من البيت:أنه بهذه المعاملة الحسنة مع الله ومع أهل الطريق وأهل العلم من المشايخ تحظى برضى الخالق.

يقول الامام علي (من وقّر عالما فقد وقّر ربه) . وقال (من أطاع إمامه فقد أطاع ربه)

وخذ العبرة من أنّه لا يقبل توبة تائب من ذنب يتعلق بأحد من خلقه حتى يسامحه ذلك المخلوق، مع أن أصل الحق لله لا لأحد من الخلق، وهو الذي وضع الحق لهم، ولكن إذا تعلق بحق خلقه قال : "اذهب إليهم أولا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يحشر الله العباد"[1] . أو قال الناس . "عراة غرلا"[2] بهما قال : ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من قَرب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصه منه حتى اللطمة قال : قلنا : كيف ذا وإنما نأتي الله عراة غرلا بهما ؟

[1] إسماعيل بن إبراهيم البخاري، صحيح البخاري، عن عائشة رضي الله عنها بلفظ " تحشرون حفاة عراة غرلا " قالت عائشة : فقلت يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال " الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك ،باب كيف الحشر، (109/8) برقم 6527

[2] غرلا : غير مختونين .

قال : بالحسنات والسيئات قال: وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم " اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إنّ الله سريع الحساب﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1] "[2] .

واذكر ربك بما فيه من الصفات العلى والأسماء الحسنى وقل : يا تواب يا غفار يا محسن يا منعم يا متفضل يا ستار يا عفو ...ولذا لما سألت السيدة عائشة رسول الله : "أرأيت إن أدركت ليلة القدر فبم أدعو؟ قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني"[3] . يقول ابن عطاء الله في الحكم "ربما فُتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول"[4].

فلا تجد أثر الطاعة ولا خيرها ولا ثوابها، لأنها حبطت بكبر ،بالتفاف إلى الخلق... " إنما يتقبل الله من المتقين "[5].

ويقول ابن عطاء الله :"معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا"[6].

من خلال قول ابن عطاء الله السكندري ، يجب على المؤمن ألا يقف على الطاعة ولا على المعصية، أراد المولى عز وجل عند وقوع المؤمن في المعصية أن تحمله على الذل والإنكسار، فقد جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم،وجاء بقوم يذنبون،

---

[1] سورة غافر ،الآية 17 .

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص50 .

[3] أحمد بن حنبل،مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: محمد عبد القادر عطاء،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،1971،ج1، مسند الصديقة عائشة (321/42 322)

[4] إبن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية ـ شرح ابن عباد النفري الرندي ـ ،مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1 ، 1988م ص62

[5] المائدة، الآية 27

[6] ابن عطاء الله السكندري ،الحكم العطائية ،ص62 .

فيستغفرون الله فيغفر لهم"[1] فهو فالمذلة أعظم باب يدخل به العبد على الله،وهي حكمة تفطن لها العارفون وأدركوها وعملوا عليها وعلموها لمريديهم.

فالله يحب العبد إذا رجع إليه منكسرا نادماً على ما فرط في جنب الله , إن الندم على التقصير معجون بقلب المؤمن . ولا يكون التساهل بالذنوب والفرح بها إلا لقلب منافق، يقول ابن عباس "من عصى الله وهو يضحك دخل النار وهو يبكي"[2].

وذكر في الأثر :"إن المؤمن يرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فطار فذهب" [3].

وفي الحديث وصف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حال المؤمن مع معاصيه، وشبهه برجل قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، فمن وقع عليه فلا يظن أنه ناج ، فعلى المؤمن أن ينظر إلى عظمة الله، عز وجل ، وغناه عن خلقه، وفقر الخلق إليه، وأن صغائر الذنوب عند الله ليس بيسير على المؤمن، ولذا يرى كأنّه قاعد تحت جبل، من خوف ما قدّمه. بينما يرى الفاجر لذنوبه باحتقار و استخفاف ،فيرى ذنوبه بسيطة ،فكأنها ذباب مر على أنفه فأشار عليه ،فذهب الذباب ولم يؤثر فيه، ، وليس ذلك لخفة معاصيه بل لقلة إيمانه بالله .

قال الإمام الحداد :

ولَو أَنَّني أَبكي الدُّموعَ وبعدَها الـدْ ... دمَاء علَى ما فَاتَني يا معاتِبي

لَكَـانَ قَلِيلاً من كَثِيرٍ وما عـسى ... يردُّ البكَا من ذَاهِبٍ أَيِ ذَاهـبِ[4]

---

[1] أبو الحسن مسلم،صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب: سقوط الذنوب بالإستغفار والتوبة، رقم:2743، 106/4.

[2] علاء الدين علي بن حسام الدين القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالملكي الشهير بالمتقي الهندي)ت975هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال،مؤسسة الرسالة،ط4 ،1981 ،218/1 ،

[3] علاء الدين علي بن حسام الدين كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، في تفصيل الأخلاق، (699/3).

[4] ديوان الإمام الحداد، الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم ، ط2 .2001، ص60 .

يقول الحق تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

(وقل عبيدكم أولى بصفحكم فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا) "بمعنى ضعفي يقتضي من يعينني على إصلاح حالي فقاعدة الإنكسار من أجل الله إذا قامت كان الله عند صاحبها، ومن كان الله عنده وهبه وده، واتحفه سبحانه وتعالى رفده، فسهل صعبه وحقق قربه فأدخله في الأحبة، فدوام الإستغفار وشهود مولانا سبحانه وتعالى وأفضاله آناء الليل وأطراف النهار وشهود ما كان منا من االتقصير والأوزار أساس في تقويم المسار"[2]

9 ـ البيت التاسع يشير إلى أن أهل الله من شيمهم الصفح والتفضل وأنهم لا ينتصرون لأنفسهم، ولا يقابلون الإساءة إلا بالحسنة، فكل إناء بما فيه ينضح . فيقول :

هَم بالتَّفَضُّلِ أَولَى وهو شيمتهم فَلاَ تَخَفْ دَرَكاً منْهم ولاَ ضَررا

ـ الحكمة المستقاة من البيت : يقول أبو الفتح البستي : أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان ، وهذا فيه إشارة أنلهذا الإحسان تأثير كبير على قلوب الخلق فبه ستميل قلوبهم بكسب محبتهم وكأنهم عبيد بين يدي مالكها أي الشخص المحسن.

ويقول المولى عز وجل : ﴿وابتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[3]

[1] سورة الاعراف، الآية 23.

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص54 .

[3] سورة القصص، الآية 77.

وقد جاءت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الكمال، فما طلب منه الدعاء على قوم إلا أن صرف دعاءه عليهم بالدعاء لهم ،كيف لا وقد كان خلقه القرآن .

(**فلا تخف دركاً منهم ولا ضررا**) إنما يكون ذلك عند أهل الأهواء الذين لا يرحمون حالك ولو قدمت اعتذارك ينتقمون منك . أما أهل الله فلا يتكلمون إلا بأطايب الكلام ولا تجد فيهم إلا وجوه مستبشرة تدل على الخير والعفو والصفح والتسامح والكرم . فبادر بالإعتذار والتوبة بالخضوع والإنكسار.

10 . البيت العاشر ينصح الشيخ بأخذ رفيق الدرب كمعين على سلك الطريق إلى الله ومدى أهميته في بلوغ المراد . فيقول :

وبالتفتي علَى الإخْوان جدْ أَبداً حِساً ومعْنى وغُضّ الطرْفَ إنْ عثَرا

. الحكمة المستقاة من البيت : قال علي بن أبي طالب [1]:

فَلاَ تَصْحب أَخَا الجهْـلِ وإيـــــاكَ وإيـــــاهَ
فَكَم مـن جـاهـلٍ أَردَى حـــلِيماً حِـــينَ أَخَـاهَ
يقــاس المَـرء بالمَـرءِ إذَا ما المــرء مــاشَاهَ
وللْـشَّيء من الـشَّيء مقـــايـيس وأَشْبـــاهَ
وَللْقَـلْب عـلَى القَـلْب دَلِيـــل حـينَ يَلْـقَاه

وقال الشاعر عمر اليافي :

عَن المَرءِ لاَ تَسأَلْ وسل عَن قَرِينه فَـكُلُّ قَـرِينٍ بالْمُقَارن يقْتَـــدي
إذَا كُنْتَ في قَومٍ فَصاحِب خَيارهم ولاَ تَصْحب الأَردَى فَتَردَى مع الرَّدي

[1] الإمام علي بن أبي طالب، الديوان، اعتنى به :عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة، بيروت،لبنان، ط3 ، 2005 ،ص153

"للسير في الطريق لا بد لك من رفيق، ورفيقك في الطريق المريدون الآخذون عن الشيوخ الذين اتصلت بهم والذين أخذت عنهم، هؤلاء رفقاؤك في الطريق فلا بد أن ترعى حق المرافقة وأن تقوم بواجبها حتى يصح لك السير ويتحقق لك الخير"[1].

يقول المولى عز وجل : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾[2].

إذا كان كليم الله موسى يشدّ عضده بأخيه فكيف للسائرين إلى الله . فلا بد أن تعلم هذا . فإذا علمته فأقم قاعدة الفتوة، وجد بالتفتي في الحس وفي المعنى على هؤلاء الإخوان ويقصد منها في عالم الحس وما يفاض من المساعدة والإفادة، وفي عالم المعنى ما يكون من الإرشاد إلى جوهر المعاني وحقائق الوجهات من الله سبحانه وتعالى .

و مسلك الفتوة هو نهج الأنبياء والصالحين، وعلى المريدين أن يسلكوا هذا الطريق وذكر بين الكفار في قولهم عن سيدنا ابراهيم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [3] . ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [4]

اشتهر سيدنا الخليل ابراهيم أنه أبو الضيفان حتى قيل أنه لم يكن يأكل وحده قط فلا يأكل إلا مع ضيف .. "بلغ به الإرتقاء في الفتوة أنه عرض الإسلام على مجوسي وقف على بابه ليطعمه فأبى فذهب المجوسي، فأوحى الله إليه لم رددت عبدي في غذاء هذا اليوم ؟قال : يا رب عرضت عليه الإسلام فأبى، قال سبحانه وتعالى : أنا ربه وأرزقه كل يوم منذ خلقته وقد كفر بي وأنت بخلت عليه هذا... فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله، يا ربسأذهب وأبحث عنه، فخرج يبحث عنه في السوق حتى لقيه

[1] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص58 .
[2] القصص ،الآية 35 .
[3] الأنبياء، الآية 59
[4] الأنبياء، الآية 60 .

ودعاه للغذاء، فقال ألم آت إلى عندك وقد رددتني ؟ فقال ابراهيم :عاتبني فيك ربي، قال :ربك يعاتبك في وأنا كافر به ؟ قال : نعم فمدّ يده وأسلم وشهد أن لا إله إلا الله وشهد أنه رسول الله وحسن إسلامه"[1].

فواجب المريد أن يسير على نهجهم، ويهتدي بهديهم، ليتفتى أصحابه في الطريق .. يتفقدهم .. ينظر حاجاتهم .. ومتطلباتهم .. يساعدهم بما يقتضي الحال .. يعينهم على نوائب الدهر ..

(وبالتفَتِّي عَلَى الإِخْوان جدْ أَبداً حِساً ومعْنى وغُضّ الطَرفَ إنْ عَثَرا)

ومن سمات التفتي أن تتغافل عن العثرات واالزلات، فيقول :(وغض الطرف إن عثرا) فكما دلّك المولى إلى أن ترى العيب إلا فيك، فغض الطرف عن العثرة من الفتوة كما قال (وغض الطرف إن عثرا).

. "وهذا ابن مسعود رضي الله عنه قد مشى مرة إلى السوق ومعه دراهم ربطها في عذبة عمامته، وجاء يشتري .. فتحاور مع البائع وتبايع، ثم أخذ يحل العمامة فلم يجد الدراهم فقد سرقت منه، فلما شعر من حواليه بأن هناك من سرق عليه الدراهم أخذ يقول : من هذا الذي يأخذ على صاحب رسول الله ؟ فقال : لا . فسكّته . ثم قال: اللهم إن كان أخذها عن حاجة وفاقة فبارك له فيها وأنا قد طيب بها نفسي، وإن كان مستكثرا أخذها بطرا فاجعلها آخر معصية له"[2].

هذا ابن مسعود وهذه تربيته صلى الله عليه وسلم اخرجهم فتيانا تحققت فيهم صفات الفتوة ..

وهذه العابدة العارفة رابعة العدوية .. دخل سارق بيتها فبحث في البيت فلم يجد شيئا، ولما أراد الخروج نادته وقالت له : "هل ترى ذاك الماء ؟ توضأ منه وصل ركعتين في هذا الموضع ودعت ربها تعالى له بخير، فتغير حال الرجل، فقالت : كرهت أن تخرج من بيتنا بلا شيء .فخرج وهو في حال طيب"[3]

---

[1] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص60 .

[2] المرجع نفسه، ،ص62 .

[3] المرجع السابق ،ص 62 . 63.

لو كان شخص آخر فاقد لهذه الروح الأخلاقية العالية لقال هذا رجل سارق، ويقتص منه، لكن فتوة العارفة الزاهدة رابعة التي قالت له: كرهت أن تخرج من بيتي بلا شيء . ولا بد أن نعطيك مما عندنا، فلم يجد مالا لكنه وجد أخلاقاً ونوراً وقرباًمن الله، وخرج من عندها وحاله طيب .

لا بد من مراعاة أصحاب الطريق من الإخوان، ولنتصف معهم بصفة التفتي، فالشيخ فتى والمريد متفتي، حتى يصير فتى، يتكلف شؤون الفتوة ويؤدي حقها حتى تصير مترسخة فيه .

11 . البيت الحادي عشر يرى أنه على المريد أن يراقب ويطالع أحوال الشيخ الشريفة حتى يقتدي ويهتدي به ولكي يعرف سر المعاملة وليتصف بصفاتهم الحسنة فيظهر ذلك على أقواله وأفعاله . فيقول :

وراقب الشَّيخَ في أَحواله فَعسى يرى عَلَيكَ من اسيحسانه أَثَرا

. الحكمة المستقاة من البيت : كان لقمان الحكيم يوصي ابنه : (يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء)

وأوصى الحسين بن علي ابنه : (يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع احرص منك على أن تقول)

حتى قال الشاعر :

فَخَالِطْ رواةَ العِلْم واصحب خيارهم فـــصحبتهم زيـن وخُلْطَتهم غَنـم
ولاَ تـعْدُ عَيْنَـاكَ عنـهم فَـــإنهُم نُجُـومٌ إذَا ما غَـاب نَجْـم بدَا نَجْم
فَوالله لَـولاَ العِلْم ما اتَّضَح الهدَى ولاَ لاَح من غَيبِ الأُمورِ لَنَا رسـم

قال الشيخ ابن عطاء الله السكندري :"(لو صحبت قطب الزمان ـ أجل أولياء زمانك وأرفعهم شأنا وأعظمهم وأرسخهم قدما في الإرث النبوي ثم لم تتأدب وتحسن الظن لم تزدد إلا بعدا) والعياذ بالله" .[1]

قال :(وراقب الشيخ في أحواله فعسى يرى عليك من استحسانه أثرا). "فإذا لنت كذلك ترقّب أنوار النبوة في إرث الشيخ في مظهر الوراثة، ترقّب أنوار النبوة في قيامه وقعوده، وركوعه وسجوده، وأخذه وعطائه، وقبوله ورفضه، وطريقة نظره إلى الأشياء، ومعاملته مع الكائنات من أجل الله تبارك وتعالى، حينئذ اغنم الفرصة وقدّم الجدّ، فإنّه إذا اختلط العزم في الطريق بشوب التردد، وبالهزل في القول بطل السير وانقطع الخير، ولم يصل صاحبه إلى الرتب، وإنما يكون الوصول لذي عزيمة صادقة، وحبل موصول، لا يتردد ولا يتراجع، ولا يلتفت إلى الوراء، ولا يخلط الجد بهزل "[2]

12 . البيت الثاني عشر يشير إلى أنه على السالك الدوام على الجد وعدم الإلتفات للوراء والنهوض لخدمة الشيخ وبرضاه عنك دليل لرضى الله ورسوله فيقول :

وقَدِّمِ الجِدَّ وانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِه عَساهُ يرضَى وحاذِرْ أَنْ تَرى ضَجِرا

. الحكمة المستقاة من البيت عن ابن عمر . رضي الله عنهما . : أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : أي الناس احب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن اعتكف في هذا المسجد . يعني مسجد المدينة ـشهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيضه . ولو شاء أن يمضيه أمضاه . ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة . حتى يثبتها له . أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب : قضاء

[1] عمر بن محمد بن سالم ،مسالك أهل الفطن ،ص67 .

[2] المرجع نفسه، ص 69 .

الحوائج، والطبراني وغيرهما ،وحسنه الألباني .وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الناس أنفعهم للناس .

ويقول الشيخ ابن عثيمين . رحمه الله . قضاء حوائج المسلمين أهم من الإعتكاف، لأن نفعها متعد، والنفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، إلا إذا كان النفع القاصر من مهمات الإسلام وواجباته .

(وحاذر أن ترى ضجرا) مستثقلا للأوامر والإقتداء فينعكس ذلك فترى نفسك ضجرا لأوامر الله وتوجيهاته في كثير من أحوالك غير ممتثل للأمر بالرضا والصدق والتوكل ... كما ضجرت من أوامر الشيخ . فبذلك يكون غير ضياعك وانقطاعك . لذا يحتاج المريد في إرادته وعزمه وأول أمره إلى مواصلة الجد وعدم الإلتفات للوراء فالملتفت لا يصل .

يقول الإمام الحداد :

عَزمتَ شَـأَقْطَع[1] كُل أَمـرٍ أَرى ... في قَطْعه نَيل المَـقَام الكَرِيم

وارفُض الـدُّنْيا الـغرور التي ... من حبّها كَانَ الحجاب مقيم

والنَّفْس والشَّيطَـانُ اعْصيهما ... بِقُـوة الله الـعلي العظـيم

أُولـي الأَكْـوان ظَـهـراً ولاَ ... أَرى سـوى الله العزيز الحكيم[2]

ويظهر أثر الأدب مع الله في التعامل مع خلقه واضحا على أحوالنا : "جاء في الصحيحين أن امرأة من بني اسرائيل تأدبت مع الله فخدمت كلبا وسقته فغفر لها . خرجت إلى البئر وما هناك دلوٌ فنزعت خفها وملأته ماء ووضعته في فمها وصعدت..وسقت الكلب منالماء الذي في خفها فغفر الله لها"[3]فهذه

[1] اقطع

[2] ديوان الإمام الحداد المسمى (الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم)،ص480 .

[3] إسماعيل بن إبراهيم البخاري،صحيح البخاري،حديث المرأة التي سقت كلبا فغفر الله لها، ذكره في الصحيحين في البخاري (158/4)برقم 3321 وفي مسلم (43/7) برقم 2245.

المرأة تأدبت وخدمت كلبا فغفر لها فما بالك بخدمة الأنبياء والمرسلين والمقربين والصالحين والمؤمنين والأولياء .

13 . في البيت الثالث عشر يشير الى ان علامة محبتك لله محبتك لاوليائه، وعلامة محبة الله لك محبة أوليائه اياك . يقول :

فَفِي رِضَاهُ رِضَا البارِي وطَاعَته يرضَى عَلَيكَ فَكُن من تَركه حذرا

. الحكمة المستقاة من البيت يجب الإشارة إلى أنه أي مؤمن صح إيمانه وعمله فهو ولي من أولياء الله .(من عادى لي وليا آذنته بالحرب) البخاري عن أبي هريرة . ويقول المولى عز وجل ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[1]

قال علي بن الحسين رضي الله عنهما : (حق أستاذك عليك، التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الإستماع إليه والإقبال عليه، وألاّ ترفع عليه صوتك، ولا تجيب أحدا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدّث في مجلسه أحدا، وأن تدفع عنه إذا ذكره أحد عندك بسوء وأن تظهر مناقبه، ولا تجالس عدوه، ولا تعادي وليه، فإذا فعلت ذلك شهدت لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله عز وجل لا للناس)...

فإذا أحبوك أحبك الله، ومن أحب الله أحب صنعته، وبذلك تكون على شريعته ومنهاجه الذي وضعه لك في التعامل مع كائناته (ففي رضاه رضى الباري) أي: رضاه علامة عن رضوان ومحبة المولى عز وجل . فاكسب رضا المقربين والشيوخ العارفين المربين ففي ذلك رضوان الله كما أسلفنا الذكر . في الصحيح "إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبيريل ثم يأمره أن ينادي في أهل السماء يا أهل السماء أن الله قد أحب فلان ابن فلان فأحبوه فيحبونه " [2]

---

[1] سورة يونس :62.63

[2] إسماعيل بن إبراهيم البخاري،صحيح البخاري عن أبي هريرة ،(424/2) برقم3209

فيتقرب إلى الله سكان السماوات من الملائكة بمحبة فلان بن فلان ذلك البشر الذي يأكل ويشرب وينام ويمشي فوق الأرض،(إن الله أحب فلان فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض) .

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [1] قال : ودا منه ومودة في قلوب أوليائه [2] ففي رضاه رضا الباري (وطاعته) أي: وفي طاعته طاعة الباري سبحانه وتعالى .

14 . البيت الرابع عشر يرى أن طريقة القوم تحقيق مقام الإحسان وطريقتهم قائمة على الإتباع على ذلك الهدى.فيقول:

واعْلم بأَنَّ طَرِيقَ القَوم دراسةٌ وحالُ من يدَّعِيها اليوم كَيفَ تَرى

. الحكمة المستقاة من البيت: قال علي بن أبي طالب : ومن شرف العلم وفضله أنّ كل من نسب إليه فرح بذلك، وإن لم يكن من أهله، وكل من دفع عنه ونسب إلى الجهل عز عليه ونال ذلك من نفسه، وإن كان جاهلا .

ويقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [3]

---

[1] مريم، الآية 96

[2] الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت 468هـ، تفسير سورة مريم، آية 96 ، (197/3)، طبعة دار الكتب العلمية، ط1/1994م

[3] الزمر، الآية 09

وروى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ : " لا ينال العلم براحة الجسد "

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1] :

ما الفَخْر إلاَّ لأَهْــلِ العِلْم إنَّهُم عَلَى الهُدَى لِمنِ استَهْدَى أَدلاء

ووزْنُ كُلُّ امرِئ ما كَانَ يُحْسِنه والجاهِلُونَ لأَهْلِ العِلْـمِ أَعْـدَاء

ويقول علي بن أبي طالب أيضا : (كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل ضعةً أن يتبرا منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه)

(واعلم بأن طريق القوم دراسة) "وهي طريق شريفة جليلة . جاء في الحديث (أن من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر)"[2]، ما يؤتاها إلا القليل، ولا يحصلها إلا الناذر ممن سبقت لهم السابقة بالتفضيل، يقول (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أوتي حظه من اليقين ومن عزيمة الصبر، وهما المظهران لليسر وللوصول فأرباب السير صادقوا العزيمة كما في قوله :

(وقدّم الجد وانهض عند خدمته عساه يرضى وحاذر أن ترى ضجرا) "لا تعتريك مشقة ولا ملل ولا فتور ولا كسل عند اقتحامك للعزائم والشدائد"[3]

يقول المولى عز وجل لسيد الخلق محمد بن عبد الله : " فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[4]، فهي تربية لنا على الصبر وأن نبتعد عن الكسل والفتور .

ويقول السائرون إلى الطريق :

---

[1] الامام علي بن أبي طالب، الديوان، ص7.

[2] أبو حامد الغزالي ،الإحياء ، قال العراقي : لم أقف له على أصل، وروى ابن عبد البر منة حديث معاذ : ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين، انظر كتاب كشف الخفاء ومزيل الألباس لإسماعيل العجلوني (802/260/1)

[3] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص 76. 77.

[4] الأحقاق، الآية 35.

ها قَدْ عَلِمتَ ولاَ شَكَّ يُخَالِطُنِي أَنَّ الطَرِيقَةَ فِي خرقِي لِمعتادي
وتَرك مأْلُوفُ نَفْسٍ زَانَهَ خَلْق أَنْجُو بِه بيْن أَشْكَال وأَضْدَادي
وقَدْ تَحَقَّقْتَ أَنَّ الخَيْر أَجْمَعَه ضِمن اتّبَاعي لجَدّي المُصْطَفَى الهادي [1]

ويقول في بيان حقيقة الفرد من أهل هذه الطريقة العظيمة الجليلة :

ماذَا يقُولُ المُنْكِرونَ فِي من لَه قَلْب سلِيم
عَلَى جَمِيعِ المُسلمِين وقَصْدُه المَولَى الكَرِيم
ويعتَقِد فِي نَفْسِه يأَنَّه عَبْدٌ ذَمِيم
لَولاَ عِنَاية ربِّه لَكَانَ بطلاً ضلُول
الله حسبِي وكَفَى قُل ما تَشَاء يا ذَا الفُضُول[2]

هذا حال اهل الطريق .

إن طريقة القوم قائمة على الإتباع على ذلك الهدى .. على ذا المسلك الذي يقول عنه الإمام الحداد:

وأَصلْتَ من غمد السيجَّة مرهفَا من العزم ماضٍ قَدْ تَحَاشَا عَنِ الفُلِ
سأَبكِي عَلَيهِم ما حييتَ بِعبرة لَهَا مدْمع فِي الخَدّ يشْهَد بالثكْلِ
وأُحَمِّل نَفْسِي ما استَطَعْتَ عَلَى اقْتِفَاء سبِيلِهِم حتى أُوسّدَ فِي الرمْلِ[3]

[1] عبد الله بن علوي الإمام الحداد، ديوان الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع،2011 ، ص426.

[2] ديوان الإمام الحداد، الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، ص 426 .

[3] ديوان الإمام الحداد، الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، ص 398 .

(واصلت) . يصلت أي يخرج وينشر سيفا . (من غمد السجية) أي الطبيعة .. (من العزم): سيف قوي من العزم . (ماض) : حاد قاطع (قد تحاشا عن الفل) : ليس فيه فلول ولا تكسر، ولهذا قالوا : "إن الصدق سيف ما وضع على شيء إلا قدّه"[1].

(وحال من يدّعيها اليوم كيف ترى)"واعلم أن من ادعى مقاما قد وصل إليه حبس فيه ولم يتجاوزه، ومن ادّعاه قبل أن يصل إليه حرِمه ولم يكّن من الوصول إليه، فلا يصل إليه أبدا فانتبه لنفسك واترك الدعاوي"[2].

ولقد قالوا عن بعض الأكابر كسيدنا الفقيه المقدم : ارتقي المراقي العلية فكانت بدايته مثل النهاية من الأقران والأكابر العارفين ثم مرت حياته لم يدّع حالا ولا مقاما .ولا نسب إلى نفسه شيئا من الرتب عليه رضوان الله . ولما سئل ما هي طريقتك ؟ قال الفقر، الفقر لأنه فقير إلى الله ..هذه طريقته، فلم تشغله الأموال عن ذي الجلال، ولا قطعته عن كثرة الذكر، ولا عن سعة العلم ولا عن كثرة العبادة [3].

15 . البيت الخامس عشر بيين كيف أن القلب يشتاق لرؤية الصالحين ويعشق النظر إلى أنوارهم . فيقول :

متى أَراهم وأَنَّى لِي برؤْيتِهم أَو تَسمع الأُذْنُ مِني عَنْهم خَبرا

. الحكمة المستقاة من البيت : قال سيدي أبو القاسم القشيري (اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة). وقال سيدي كمال الدين الدميري الشافعي (لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر) ،وله أيضا (لكل أمة صفوة وصفوة هذه الأمة الصوفية). وقال عطاء بن أبي رباح (النظرة إلى العابد عبادة).

[1] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ،ص 82.

[2] المرجع نفسه ، ص83.

[3] المرجع نفسه، ص 87. 88.

قال الغزالي :(إن حب الله إذا قوي أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من الإيمان أن يحب الرجل رجلا لا يحبه إلا لله، من غير مال أعطاه، فذلك الإيمان ".

(متى أراهم وأنى لي برؤيتهم) "فإنه إذا لاح للعين سناهم تعشّق القلب مغناهم..فصار حاله من حالهم، وماؤه من مائهم، فيصير مثلهم..ويدخل مداخلهم ويحضى محاضرهم، ومن حضر محاضرهم لمع له من سناء معاني الخصوصية وحقائق المزية ما يطوي عنه شهود البشرية، وكل نقص ينحط عن الرتبة العلية"[1].(متى أراهم) إذا رأيتهم تحقق لك المراد وتحركت السريرة وعشقت ذلك المعنى ورضيت بكأس الهنا بقرب المولى سبحانه وتعالى ..ولهذا يقال : "جارك ومن جاورك يحيا ولو كان ميت"[2]

متى أراهم؟ ليس باليسير أمررؤيتهم، لكن على الله هين أن يريه وجهه الكريم، لأنهم أهل الله وأهل حضرته، فمن لم يرد أن يرى وجهه الكريم لم يره أوجه كل عزيز عليه، ولا أوجه التفضيل في كل منزلة لديه لأنه لا يريد النظر إليه يوم القيامة ولو أراد رؤيته لدله على أهل الكرامة والشأن لديه .(متى أراهم وأنى لي برؤيتهم) يشهد نفسه، أنى لي برؤيتهم ؟ وأنا المذنب وصاحب التقصير. (أو تسمع الأذن مني عنهم خبرا)..."فإن حقيقة أخبارهم تسمعها إلا أذن بار بهم، وإلا أذن من أريد أن يقرب من حضراتهم، ومهما نشر الثناء عنهم وذُكرت أوصافهم تصامت أسماع من لم تسبق له سابقة الفضل فكأنه لم يسمع شيئا، لا يحركه ذلك الوتر ولا يزعجه ذلك الخبر، ولا يوقفه على كريم المنظر، لأنه لم يدخل دائرة من أبصر . ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3]" [4]".﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [5]

[1] عمر بن محمد بن سالم ،مسالك أهل الفطن، ص89.

[2] من قصيدة للحبيب علي بن محمد الحبشي، الجوهر المكنون .

[3] الأعراف، الآية 198 .

[4] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص91

[5] الأنفال ،ص23.

وإنما يسمع أخبارهم أولئك الذين كانت لهم سوابق الفضل .. ويضيف الشيخ في قوله مما يثبت أدبه في البيت الموالي .

16 . في البيت السادس عشر يؤكد ويثبت أدب وتواضع الشيخ أبو مدين مع أهل الصلاح، فيقول :

منْلي وأَنَّى بمثْلي أَنْ يزاحمَهم عَلَى موارِد لَمْ أَلْفَ بِهَا كَدَرا

. الحكمة المستقاه من البيت : قال طاوس بن كيسان : (من السنة أن يوقّر العالم)[1]

قال الحسن البصري : رئي ابن عباس يأخذ بركاب أبي بن كعب، فقيل له : "أنت ابن عم رسول الله تأخذ بركاب رجلٍ من الأنصار؟ ! فقال : إنه ينبغي للحبر أن يعظّم ويشرف"[2]

يقول الإمام علي كرم الله وجهه: في الأدب مع أهل العلم وإكرام العلماء[3].

النَّاس من جهة التمَاثلِ أَكفَاء أَبوهَـــم آدَم والأُم حـــــواء
فَإِنْ يكُن لَهم في أَصلِهم نَسب يفَاخرونَ به فَـالطّين والمَـــاء
ما الفَضْل إلاَّ لأَهْلِ العِلْم إنَّـهم عَلَى الهُدَى لِمن استَهْدَى أَدلاَء
وقَدْر كُلُّ امرِئ ما كَانَ يُحْسِنه والجاهلُونَ لأَهْلِ الـــعِلْم أَعْدَاء

كما نرى الإمام عليه السلام يرفض السلوك المتعالي،فالتواضع هو السلوك الأمثل في الحياة ،كما يخبرنا عن فضل أهل العلم أنه كبير فبه يهتدي المرء ويدل غيره على طريق الهداية، وما يفعله الجهل بصاحبه فيكون عدوا لنفسه قبل أن يكون عدوا لغيره.

[1] ابن عبد البر،جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري،دار ابن حزم، الدمام،ط1 ،1994، ص519.
[2] الخطيب البغدادي ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ،ج1،مكتبة المعارف، الرياض ، ص 108.
[3] الامام علي بن أبي طالب، الديوان، ص7

(من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم) ..أنا وأصحاب الأوصاف التي مثلي أقل من أن يطلب مرافقة هؤلاء والجلوس معهم في مجالس الصفاء والوفاء .. هكذا يشهد نفسه ولعله كان يستحق أن يحتل الصدارة ولكنه يشهد على نفسه بعدم الإستحقاق تواضعا منه بل أهل الله ينسبون لأنفسهم التقصير تواضعا وتذللا منهم، وبتذللهم هذا يرفع الله من شأنهم ويعزهم يقول :

(من لي وأنى لمثلي أن يزاحمهم علىموارد لم ألف بها كدرا)

على موارد هنيئة طيبة صافية لم ألف : أي لم أجد.. لم أصادف.. لم أشاهد بها كدرا.. صافية من كل الأكدار والأغيار ..

"فما هي إلاّ صفاء وما هي إلاّ نقاء ..وما هي إلاّ هدى وما هي إلاّ علا .. وما هي إلاّ سماء .. وما هي إلاّ نور ..وما هي إلاّ عطاء موفور، وما هي إلاّ عناية وما هي إلاّ هداية وما هي إلاّ ولاية ...وما هي إلاّ شرب من أحلى شرب، لم ألف بها كدرا"[1]

وهو طول إرشاده لسالك الطريق كان قوله باطنا فيه معنى الأحوال التي كان يعايشها فيبين عن بعض مظهر حاله وما يشهده ويراه : فقال عن أولئك القوم :

متى أراهم وأنّى لي برؤيتهم أو تسمع الأذن مني عنهم خبرا

من لي وأنّى لمثلي أنْ يزاحمهم علَى موارد لـــم ألْفَ بها كَدَرا

. "وعلمنا أن نقوم على قدم الإعتراف ولو بلغنا مقام الشيخ الشريف وبعد هذا الإعتراف، أكّد على الأصل الذي يقوم عليه الإغتراف من بحور الفضائل كلها.. وهو صدق المحبة"[2]

17 . البيت السابع عشر يبين أن المحبة أصل وسر كل خير وسلم كل رقي . يقول :

[1] عمر بن محمد بن سالم ،مسالك أهل الفطن ،ص96.

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن ، ص96.97

أحبهم وأداريهم وأوثرهم بمهجتي وخصوصاً منهم نفرا.

. الحكمة المستقاة من البيت :قال عليه الصلاة والسلام :" إنّ الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي "[1].

والمعنى : أين الذين تحابوا لجلالي وعظمتي لا لغرض دنيوي أو مادي ، ثو يقول تعالى: (اليوم أظلهم في ظلي) و المراد بذلك ظل عرشه جل وعلا ، أي لا يكون في ذلك اليوم شيء يستظل به المرء إلا ظل عرش الرحمن .

وروى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل قال "حقّت محبتي للمتحابين في، وحقّت محبتي للمتزاورين في، وحقت محبتي للمتباذلين في، وحقت محبتي للمتواصلين في " [2]

"ما دخل تلك المداخل من المقامات إلا محب ولا اقترب مقترب إلا وهو محب، ولا اطّلع مطلع إلا بسر المحبة، ولا وصل واصل إلا بسر المحبة، ولا شرب شارب إلا وهو متمكن في المحبة، ولا نظر ناظر إلا وهو متمكن في المحبة، ولا نظر ناظر إلا وهو مفتوح البصيرة بنور المحبة وبسر المحبة"[3]

وتلك المداراة تثمر ببذل كل شيء في سبيل رضا المحبوب وبعدها تصير ايثارا .. فيؤثر المحبوب على كل ما سواه، فقال (أحبهم) ومحبتي واقع حالي أني أداريهم وأوثرهم بمهجتي .(أحبهم وأداريهم) : "يعني أترك حظوظي من أجلهم وأقدّم لهم روحي. وسبب بلوغ آرابي، ووسيلتي إلى ربي، وواسطتي للدخول إلى حبي، ظهر لي من بديع ما خصصهم به في حضرته من كريم نظرته ما أوجب أن أخصهم بمزيد المحبة، وأن أجعلهم عندي أعلى الأحبة، وخصوصا منهم نفرا.. أحبهم وأداريهم وأوثرهم بمهجتي، المهجة هي الروح . فحب الله لعبده أصل كل ذلك، فعلى قدر ما يحبك تعرف طرفا من محبته لك .. هذا هو

[1] أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، برقم (2566)

[2] ناصر الدين الألباني،، الترغيب والترهيب، اعتنى به: بن حسن آل سلمان ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرياض، ط1 ، 1424هـ، برقم (3019) و(3020) و(3021).

[3] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص97.

الأصل .. وما من تسبّب إلا بما شرع لك من المجاهدة وامتثال الأمر ،كثرة الذكر وحسن الفكر"[1].

"(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل بعد أداء الفرائض حتى أحبه)"[2] . في هذه المعاني نظم الشيخ علي باراس يقول فيه :

من لي بأني أُنادم سادةً شربوا	من خالص الودّ كأساً في الوجود سرا
من لي وأنّى لأمثالي إذا قربوا	منهم بنيل المُنى والعزّ والظفرا
أُحبُّهم حبَّ مرتاحٍ فما نسبوا	لجانب كُنْتَ منهم فيه مؤتمرا
قوم يدارون بالإحسان كم جلبوا	به إلى الله من بدوٍ ومن حضرا[3]

18 . البيت الثامن عشر يشيد بأخلاقهم وصفاتهم الكريمة التي تفوح طيبا حيثما حلّوا . فيقول :

قَومٌ كرام السَّجايا حيثما جلَسوا يبقَى المَكَانُ علَى آثَارِهم عَطِرا

. الحكمة المستقاه من البيت : قال الحسن البصري :(حقيقة حسن الخلق بذل المعروف، وكف الأذى وطلاقة الوجه)وقال بعض البلغاء (الحسن الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة) .

وقال الجنيد (أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل علمه وعمله، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق)

(قوم كرام السجايا حيثما جلسوا) أينما جلسوا يتطيب المكان بهم، لأن كلامهم طيب وحق، يعبق حيثما جلسوا وحيثما حلّوا.

---

[1] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص 101.100

[2] أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب التواضع ،(6502/192/4)

[3] عمر بن محمد بن سالم ، مسالك أهل الفطن، ص 102، نقلا عن : الروضة الخضرا والدرة الزهرا، شرح للشيخ علي باراس على منظومة أبي مدين ،ص108.

في ذلك يقول الحبيب علي الحبشي [1]

أُحِبُّ طَيْبَةَ ومن هم وسطَ طَيْبةَ يُحلون وأَعْشَقُ اتّباعَ لِي سادَتِي فيها يسيرونَ

أحب الأرض التي يمشي عليها سادتي وأحبة قلبي، وفي حديث المعراج أمثلة : يقول جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،صل هنا عندالشجرة .. صلّفي الطور حيث كلّم الله موسى .. صلّهنا ببيت لحم حيث ولد عيسى ..

(قوم كرام السجايا حيثما جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا) . (كرام السجايا) : أي إصبحت طباعهم، أخلاقهم كريمة، حسنة، طيبة . ففي أي مكان حلوا يبقى المكان على آثارهم عطرا ،تتعطر بهم المنازل وتتنور بهم الديار والمحافل، لأنهم ورثة الذي قيل في وصفه : "فمن نشر طيبه تعطّرت الطرق والمنازل وبعرف ذكره تطيبت المجالس والمحافل، فهو جامع الصفات الكمالية ومظهر صفات الكمال من أمته المحمدية، والمنفرد في خَلْقه وخُلُقه بأشرف خصوصية"[2]

19 . البيت التاسع عشر يبين كيف أن أخلاق السادة المتصوفة تبهرك وتروقك . يقول :

يهْدي التَّصوفُ من أَخْلاقِهم طُرفاً حسن التآلُف منْهم راقَنِي نَـظَرا

[1] هو العلامة الداعي إلى الله الحبيب المحبوب علي بن محمد بن حسين الحبشي، من مواليد قرية قسم شرقي تريم عام 1269هـ تربى بأبيه مفتي مكة: له رحلات لطلب العلم إلى تريم ومكة، من شيوخه السيد أحمد زيني دحلان والإمام أبو بكر بن عبد الله العطاس وغيرهم.. تخرج على يديه العديد من الطلبة، له مولد سمط الدرر، وديوان الشعر بعنوان الجوهر المكنون، توفي بسيئون سنة 1333هـ.

[2] علي بن محمد الحبشي ،من مولد سمط الدرر في أخبار مولد خير البشر، ط6،2010،

. الحكمة المستقاه من البيت : التصوف كما قال أئمة التصوف [1] (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف) ومرادهم أشرف الأخلاق وأكملها، وأتمها وهذا ما اتّصف به المصطفى صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]

نَبِيٌّ عَظِيم خُلُقُهُ الخُلقُ الذي لَهُ عَظّم الرحْمَن في سيد الكُتَبِ[3]

فالأخلاق العظيمة تفرقت فيمن أحبهم الله، وتمام هذه الأخلاق اتّصف بها سيد الخلق محمد بن عبد الله وقرب الخلق منه على قدر اتصافهم بأخلاقه، وقربهم منه فيها .(يهدي التّصوف من أخلاقهم طرفا) إذا جالستهم على المحبة من أجل الله تنصهرصفاتهم فيك وتظهر محاسنهم فترقيك وتعلّي شأنك .. هذا فضل الله يؤتيه من يشاء . (يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا) : من محاسنهم وقيمهم، طرفا: محامد.

وفضائل الأخلاق .. يهديها إليك ولمن خصهم، إذا حالك يصير إلى ما هو أشرف وأطيب، ولا تزال كذلك كلما أحسنت مجالستهم، حسن بذر أخلاقهم وشمائلهم فيك .

فإن أحسنت مجالستهم وعرفت ما لهم من خصوصيات صرفت نظرك عن المعايب والإلتفات لشهود البشريات وهو الحجاب الذي حجبت به القلوب المنكرة بما جاء به الأنبياء والرسل . قال تعالى : " فقالوا انؤمن لبشر مثلنا ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[4]،وقوله : ما هذا الا بشر مثلكم ياكل ممّا

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين(52/3)

[2] القلم، الآية04.

[3] ديوان الإمام الحداد ،الديوان الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم ،ص67.

[4] المؤمنون، الآية 47.

تاكلون منه ويشرب ممّا تشربون ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[1]

و بذلك قال القائل وهو يصف خير البشر :

مُحَمَّدٌ بشَر لاَ كَـالْبشَرِ بل هو كَالياقُوت بيْن البشَرِ

(حسن التآلف منهم راقني نظرا) قوم مألوفون، لأنهم رحيمون على العباد لأجل الله عز وجل، وهم يريدون أن يتصيدوا الخلائق فاتبعوا بذلك حبيب الخالق، المخاطب بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]

وهم شديدوا الحرص على نفع العباد وتقريبهم من الله وانقاذهم من الفساد، ولا يرون لأنفسهم حظاً. فمن رآهم على هذا الحال لا يطلبون شيءا من حظوظ الدنيا، كيف لا تتحرك فطرتك السليمة ويتضح لك أنهم أهل المراتب العظيمة ،وكيف لا تحبهم وتألفهم، وبذلك يوصلونه إلى معرفة ربهم بالقرب منه . وكلما زادت ألفته ومحبته لهم مكنهم المولى من إصلاحهم بترك الأخلاق الذميمة والتحلي بالصفات الحميدة . (يهدي التصوف من أخلاقهم طُرفاًحسن التآلف منهم راقني نظرا) رأيت منظرا حسنا من قوم قدموا الحق والخلق على حقوق أنفسهم، فراقني هذا المنظر اللطيف العجيب وهو منظر يروق لأصحاب السريرة السليمة، الفكرة الصافية. جعل العلامة صلى الله عليه وسلم " المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف"[3]. سيدنا ابراهيم الخليل لما قام بالنصح بعد أن كسر آلهتهم القوه في النار فأتاه جبريل قائلا : ألك حاجة ؟ فقال الخليل: يا جبريل أما إليك فلا .قال : إذا فحاجتك إلى

[1] المؤمنون، الآية 33.

[2] آل عمران ،الآية 109.

[3] محمد بن سلامة القضاعي ،مسند الشهاب،تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط1 ، 1985، عن جابر بن عبد الله (108/1)، والبيهقي في شعب الإيمان (115/10)

الله فاسأله .قال : " يا جبريل علمه بحالي يغني عن سؤالي، أنا في حال بيني وبينه، فقد كملت ثقتي به وحضوري معه فلا أحتاج سؤالا في موقفي هذا " . قال تعالى " قلنا يا نار كوني بردا وسلاما غلى ابراهيم "[1].

فلما كانوا كذلك راق النظر لمن صفى الفكر منهم عندما ينظرهم، وفي الحديث "من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه أحبه "[2].فكل من جالسهوخالطه أحبه واتبعه .

20. البيت العشرين يشير إلى أن هؤلاء القوم الذين هم أولياء الله يجب موالاتهم ومعاداة أعداء الله حتى الفناء . فيقول :

هَم أَهْل وِدّي وأَحبابِي الذين هَم مِمَّن يَجُرُّ ذُيول العزِ مفْتَخِراً

. الحكمة المستقاة من البيت : يقول ابن الفارض:

أنت القتيل بكـــل مـــن أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

يقول الامام الحداد :

مَحَبَّتَهم دِينِي وفُرصتِي وســـنَّتِي وعَروتِي الوثْقَى وأَفْضَل ما عِنْدي[3]

ولهذا لم يفرح الصحابة بشيء بعد الإسلام كفرحهم بحديث المحبة "أنت مع من أحببت "[4] وهو أفضل ما عندهم وعبروا عنه بقولهم : ما فرحنا بعد الإسلام بشيء فرحنا بهذا الحديث "المرء مع من أحب"[5] (أنت مع من أحببت) لأدبهم مع الله .. فمحبتهم لله كان أكثر من أنفسهم وأبنائهم وأموالهم.

---

[1] سورة الأنبياء، الآية69.

[2] محمد بن عيسى الترمذي،سنن الترمذي،دار التأصيل، بيروت،ط1، 2014، كتاب المناقب ،(599/5)برقم3638.

[3] ديوان الإمام الحداد، الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم ،ص156.

[4] إسماعيل بن إبراهيم البخاري، صحيح البخاري،باب علامة حب الله عز وجل ،(6171/123/4).

[5] أبو الحسن مسلم ، صحيح مسلم، باب المرء مع من أحب (2640/1419)

ولذلك حتى الشعراء في القرون الأولى أدركوا مما يعطى من أطياف الإيمان على الناس من قلوب أهل حق اليقين فأخذ الفرزدق يصف علي بن الحسين وهو إمام من أئمة أهل هذه الصفات والحضرة يقول

من معشرٍ حبّهم دين وبغضهم كُفر وقُربهم ملْجأ ومعتصم

إنْ عدّ أهْل التُّقى كانُوا أئمتهم أو قيل من خير أهْلِ الأرضِ قيل هم[1]

إذاً فالحقائق انتشرت حتى مع شعراء القوم في تلك العصور الأولى "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[2]

فكانت هذه الحقائق معروفة لهم يتداولون الكلام فيها ويعرفون أن من عرفه الحق وأحبه أحبه البيت والحرم والأرض والسماء ولهذا لما سأل أهل الشام هشام بن عبد الملك من هذا ؟ فقال : لا أدري، فأجاب الفرزق :

هذا الذي تعرفُ البطْحاء وطْأَته والبيتَ يعرفُه والحلُّ والحرم

هذَا ابن خيْر عباد الله كُلّهم هذَا التَّقيُّ النَّقيُّ الطَّاهر العلَم

هذَا ابن فَاطمة إنْ كُنْتَ جاهلُه بجَدّه أنْبياء الله قد خُتموا

إذَا رأَتْه قُريشٌ قالَ قائلُها إلَى مكَارم هذَا ينْتهي الكَرم

ينمي إلى ذروة العزّ التي قَصرتْ عن نيلها عرب الإسلَام والعجم

ما قالَ لاَ قَطُّ إلاَ في تَشَهُّده لولاَ التّشهّدُ كانَتْ لاَؤُه نَعم

يكَادُ يُمْسكُه عرفَانُ راحتِه ركْن الحطيم إذَا ما جاء يستلم

يغْضي حياء ويغْضى من مهابته فما يكَلَّم إلاّ حين يبتسم

---

[1] أبو فراس الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرح وتقديم الأستاذ علي فاعور، دار الكتيب العلمية،بيروت ،لبنان، ط1، 1987، ، ص512

[2] إسماعيل بن إبراهيم البخاري ،صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، باب من لا يفي بالنذر ،(6695/228/4)

و هكذا أخذ يصفه ثم يقول :

ولَيس قَولُكَ من هــذَا بِضَائِــرِه الــعرب تَعرِفُ من أَنْكَرتْ والعجم[1]

فسجنه الأمير. فعلم بهذا سيدنا على زين العابدين وبعث إليه بعشرين ألفا.. فقال إنما مدحتهم لله ولرسوله، قال زين العابدين وإنّا أهل بيت إذا أخرجنا شيئا لا نعود فيه، قال تعالى في وصف الرعيل الأول من أصحاب سيدنا محمد ومن تبعهم بإحسان ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[2]. (هم أهل ودّي وأحبابي الذين هم ممّن يجر ذيول العز مفتخرا) هم أهل العز، وليس العز لأصحاب المال ولا للمفتخرين بما يؤول إلى الزوال . فلم أعتقد العزة حيث الذل حتى لا يذلني فأعززت من أعزالله ليعزني.. ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[3]

21 . البيت الواحد والعشرون يوضح أن شمله معهم خالصا لوجه الله الكريم وأن ذنبهم مغفور في كل ما صدر منهم من تقصير في حقوق الصحبة . فيقول :

لاَزَالَ شَمْلي بهم في الله مُجْتَمِعاً وذَنْبنَا مغْــفُوراً ومغْتَفرا

[1] الفرزدق ،ديوان الفرزدق، شرح وتقديم الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ،1407هـ. 1987م، ، ص512.

[2] الفتح ،الآية 29.

[3] المنافقون، الآية 08.

. الحكمة المستقاة من البيت : ورد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث هن حق : لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى الله عبدا فيوليه غيره، ولا يحب رجل قوما إلا حشر معهم "[1]

ومن الأحاديث المشهورة في هذا المعنى حديث أنس رضي الله عنه، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال: متى الساعة ؟ قال: وماذا أعددت لها ؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت مع من أحببت .قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت، قال أنس: "فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم "[2]

. وفي الدعاء : "اللهم إني أسالك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك "[3] فهنا إشارة :أولا إلى حب الله وخب من يحبه من خلقه،وبعدها يأتي العمل،(حب عمل يقربني إلى حبك)، قال الإمام ابن علوي الحداد :

أنْتَم أَنْتَم أَحِبَّةَقَلْبِي	ومرادي من الوجود وحسبي
وإذَا ما وجدْتُكُم طَاب عَيشي	وتَوَلَّى هَمي وغَمي وكَربي
ويرق لِي الزَّمانُ ويَحيا	كُل ميّت مني ويسهل صعبي
وإذَا ما ذَكَرتُكُم سُرّ سِري	واستَرَاحَتْ روحي يأنْسِ وقُرب
انتم مرادي لا أبالي بعدما	ترضوا علي بمن أَحب ومن شنا [4]

[1] ناصر الدين الألباني،الترغيب والترهيب، (3/96)، رواه الطبراني "المعجم الصغير" (6/293)، وفي "المعجم الصغير" (2/114)، قال المنذري: إسناده جيد.

[2] إسماعيل بن إبراهيم البخاري،صحيح البخاري (3688)، ومسلم (2639)

[3] إسماعيل بن إبراهيم البخاري،صحيح البخاري،حديث صحيح على شرط البخاري عن ثوبان، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، المستدرك على الصحيحين، دار الحرمين، ط1. ، 1997. (1932/708/1)

[4] الإمام الحداد، ديوان الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، ص 528.

(لا زال شملي بهم في الله مجتمعا) فهو اجتماع لله ومن أجل الله صاف بعيد عن الخلاف ..وقد قالوا في جموع يجتمعونها في شعب النبي هود :

ما بهَا قَطّ من واشٍ ولاَ من حـــسود	بل إخوانُ صِدْق طَهّروا عَن جحود
قَدْ صفُوا واصْطَفَوا لَما وفَوا بالعهُود	مـن أهيل الـولاَء من كُل برٍ ودُود
في ماني صفـا ورد وَصـــــافي ورود	تَحْتَ سترِ اللّيالي والورى في رقُود
كَم رقُوا من مـراقي عَالِيات الصُّعود	في مثـاني قـيام أَو مثْنى سـجود[1]

(وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا) كل ما قصرنا فيه من حقوق الصحبة والمجالسة لهم ،كل ما صدر منا من التقصير يدخل ما بين العفو فلا يكتب، وما بين الغفر فيعفى ويسامح فيه بعد الكتابة، "ذنبنا فيه مغفور من البداية مستور تحت اسم العفو فلا يكتب أبدا ومغتفرا بعد أن يثبت ويكتب تأتي المسامحة والصفح فيستر .. فلا يبقى في صحيفة العبد الذي تكرم الله عليه بالعفو والمغفرة إلا حسناته، فتكون سيئاته قد تجلى الحق تعالى على الحفظة فنسوها، وعلى الصحف فمحيت منها، وعلى الأرض فنسيتها، وعلى الأعضاء فنسيتها، فبقيت عنده هو فقط .. فإذا خاطب عبده هذا قال : عبدي أتذكر يوم كذا فعلت كذا ..ولم تعد مكتوبة في الصحيفة .. ولكن الله لا ينسى"[2].. ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[3] يقول: "ربي ألم تعف عني ؟ ألم تغفر لي ؟ فيخاف ويظن أنه هلك .. قال: بلى سترتها عليك في الدنيا وأنا اليوم أغفرها لك، فلم يدر بها أحد"[4].

---

[1] الأبيات منقصيدة للإمام عبد الرحمن بلفقيه تذييلا على قصيدة الإمام الحداد التي مطلعها : يا وجيه إنها هبت رياح السعود وأومض البرق في الداجي من أقصى النجود

الإمام الحداد، ديوان الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، ص 196.

[2] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص128.

[3] طه، الآية 52.

[4] عمر بن محمد بن سالم، مسالك أهل الفطن، ص 128.

ولما قالت السيدة عائشة أرأيت إن أدركت ليلة القدر فبم أدعو ؟ قال قولي : "اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني "[1] وإذا عفى عن ماضيك أفلحت وبدّلت الصحيفة غير الصحيفة . (وذنبنا فيه مغفور مغتفرا) فهو خير الغافرين يغفر ما تقدم من الذنب وما تأخر فهو عفو رحيم .

22 . البيت الثاني والعشرون يختم كلامه ويصلي على الحبيب المصطفى وأن يجزيه ربنا خيرا لأنهم أدركوا هذه المعاني من رشف علمه وبحره . يقول :

ثُمَّ الصلاَةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سيِّدنَا مُحَمَّد خَيْر من وفى ومن نَذَرا

. الحكمة المستقاة من البيت : هي الإشارة إلى فضله لديه، والثناء عليه ،و تأييده، لينصر الله دينه هذا على جميع الأديان.

يقول المولى عز وجل :﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

ويقول الحق سبحانه :﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[3]

. ويقول الشيخ إن القوم الذين ذكرناهم من الواصلين من أهل الحضرات وجدوا كل هذا باتباعهم للنبي المختار، فباتباعه أدركوا وعرفوا هذه المعاني . (ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد خير من وفى..).

---

[1] أمحمد بن عيسى الترمذي،سنن الترمذي تح :أحمد محمد شاكر، عن عائشة رضي الله عنها، كتاب الدعوات (3513/534/5)، ، وقال حديث حسن صحيح.

[2] الصف، الآية 08.

[3] الأحزاب، الآية 56.

قال المولى عز وجل يمدح الخليل ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[1] فهو سيد أهل الوفاء صلى الله عليه وسلم . قالت السيدة عائشة "إنه كان ليذبح الشاة فيقسمها في صويحبات خديجة"[2]

ويذكر في السيرة أنه لما جاء في فتح مكة "قالوا أين ننصب خيمتك يا رسول الله ؟ أين تنزل ؟ قال هل ترك لنا عقيل من دار"[3]انصبوا لي خيمة أمام قبر خديجة .. أي وفاء هذا فهو خير من أوفى بحقوق الحق والخلق، صلى الله عليه وسلم .(محمد خير من وفّى ونذرا) قال تعالى " يوفون بالنذر ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[4]

ب . قصيدة (أنت بما قد سقيت شارب) :

وهو عبارة عن موشح .كلها مجموعة منحكم ومواعظ، جاءت لتنبيه الغافلين،وإرشاد السائرين ،و توجيه المريدين .

. نص القصيدة :

أَنْتَ بِمَا قَدْ سقَيتَ شَارِب من رحيقٍ كَانَ أَو كَدَر
سهّمكَ فِي الغَيْرِ فِيكَ صائب ما لَكَ عَن نَصْله مفَر
ثِمَار مـا قَدْ غَـرستَ تَجْنِي وهَـذه عَادَةُ الـــزمان

---

[1] النجم، الآية 37.

[2]إسماعيل بن إبراهيم البخاري،صحيح البخاري، عن عائشة رضي الله عنها، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها ،(3818/47/3).

[3] ...إن عقيلا باع دار رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي دار خديجة، أي التي يقال لها مولد فاطمة رضي الله تعالى عنها، ينظر : علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية ،دار المعرفة، بيروت،1990،(86/1)

[4] الإنسان، الآية 07.

خَذْ الحديثَ الصَّحيح عَـــنِّي كَـما يدين الفَتى يدَانُ

من باتَ منْهُ الورى في أَمـنِ باتَ من الدَّهرِ في أَمـان

الدَّهر بَحر لَهُ عَجائب وهو خطيب لمن نَظَر

فَاطْرح الغَيّر عَنْكَ وجانب وخُذ عَلَى نفْسِكَ الحذَر

يا ذَا الذي ظَنَّ أَنْ يصيب بسهمه وهَـــو لايصاب

أَبعدْتَ عَن نَفْسِكَ القَريب وأَخْطَأْتَ في موضعِ الصواب

إنْ قُلْتَ قَـولاً فَكُن لَبيب وكُـلُّ قـول لَـهُ جـواب

مـا ضَاعَ حق ولَه طَالب لَو جاوز الشَّمس والـقَمر

مـن ذَكَر النَّاس يالمَعائب يـذْكَر فيـه بمَـا ذَكَـر

يـا باليا وهَـو لاَ يبـالي وهَـــو في ميدَانه يَجَولُ

يا ساكناً وهَـو في ارتحـال وكُل ما قَدْ حـوى يـزولُ

تَسرِقُ من عَمرِكَ اللَّيالي كَسرقَـة الرَّاح لِلْعقـول

بالْقَوم قَدْ سارتْ الرِّكَائب ولاَ تَجهزْتَ يوماً لِلسَّفـر

ولَستَ تَخْشَى ولاَ تُراقب من يوم تُبلَى فيه الـعبر

. تحليل القصيدة : الحكم المستخرجة من القصيدة

تعد هذه القصيدة لأبي مدين شعيب وهي موشح وتحمل مجموع من النصائح والحكم وذلك بتنبيه وتحذير الغافلين عن غدر الزمان وما يخبؤه لفاعل الخير أو الشر وما سيجنيه من عمله هذا خيرا كان أم شرا .

قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ " البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والدّيان لا ينام، فكن كما شئت، كما تدين تُدان"[1]

قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2]

. في البيت الأول والثاني والثالث والرابع : يبين أن المرء يحصد ويجني ما حصده إن كان شرا أو كان خيرا، فالجزاء من جنس العمل، فما زرعته من شر أو ما قد فعلته من شر ستصاب به وتشرب منه لا محال وثمار ذلك الشر ستجنيه وهذه سنة كونية وعدالة إلهية "كما تدين تدان "، فيقول :

أَنْتَ بِمَا قَدْ سقَيتَ شَـــارِب ... مِن رحِيقٍ كَانَ أَو كـدَر

سهْمكَ فِي الغَيْرِ فِيكَ صائب ... ما لَكَ عــن نَصْله مفَر

ثِمَار مـا قَدْ غَـــرستَ تَجْنِي ... وهَـذه عَادَةُ الـــزَّمان

خُـــذ الحديثَ الصحِيح عَنِي ... كَـما يدين الفَتى يـدَانُ

. الحكمة المستقاة من الأبيات: "افعل ما شئت، كما تدين تدان "، (افعل ما شئت)أي لك الخيار بأن تكون على الحال الذي تريد .. أي أن تكون من أهل البر أو أهل الشر .. فافعل ما شئت من الصالحات أو من السيئات . فالنتيجة واحدة وهي (كما تدين تدان) : يعني : كما تفعل يفعل بك، وكما تجازي تُجازى، ويقال : (دنته بما صنع) أي : جازيته ..

[1] احمد بن حنبل ،الزهد، تح: يحي بن محمد سوس، دار بن رجب، برقم(773) واسناده صحيح .

[2] غافر، الآية 17.

وهذه حكمة بليغة، أتت الشواهد من الكتاب والسنة مما يدل على صدقها، جعلها الله عبرة للناس، فهي سنة كونية، ف (الجزاء من الجنس العمل).

. البيت الخامس يشير أنه من احترم هذه السنة الكونية والتزم بقوانينها ولم يفعل إلا الخير، ورضي بما قسمه الله له ولم يتعدى على حقوق الخلق، ورضي بقضائه وقدره بات في أمان من الدهر .

يقول الشافعي :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاء
و لا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلداً وشيمتك السماحة والوفاء
وإن كثرت عيوبك في البرايا وسرك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب يغطيه كما قيل السخاء
ولا تر للأعادي قط ذلاً فإن شماتة الأعدا بلاء[1]

وفي هذا يقول أبو مدين شعيب :

من بات منه الورى في أمن بات من الدهر في أمان

. الحكمة المستقاة من البيت . كلما تأملنا في نصوص الوحي، وحوادث الزمان، وفي سنن الله الكونية، نرى أنها لا تخرج عن هذه القاعدة (الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان)،وهذا من عدل الله وحكمته . جل شأنه . فمن عاقبك بنفس الذنب لم يظلم، ولو يتجاوز . يقول خالد بن زهير الهذلي :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها[2]

[1] محمد بن ادريش الشافعي،االديوان، تح :د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الغد العربي، ، القاهرة .،ط2، 1985م ،ص46

[2] محمد بن محمد حسن شراب، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية"لأربعة آلاف شاهد شعري ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،ط1، 2007،،ص 461.

كما أنها لا تختص بالجانب السيء، والعمل الطالح ـ فقط ـ بل هي تشتمل الجانب الحسن والعمل الصالح، ولذلك قال تعالى :" هل جزاء الاحسان الا الاحسان "...وأدلة هذه القاعدة وشواهدها كثيرة في الكتاب والسنة، بل عليها مدار العمل ومناط الجزاء عموماً .

وعن مالك بن دينار قال : مكتوب في التوراة "كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد"[1]

ـ البيت السادس : يوضح أن الدنيا بحر وأسرار لا تنقضي عجائبها، ولا يعلم المرء ما يخبؤه له القدر لذا يجب أن يكون مستعدا في السراء والضراء ويرضى بقضائه سبحانه، ومن خلال هذه التجارب والخبرات سيكتسب حكمة من هذه التجارب ونظرة صائبة للأمور والمسائل ..فيقول :

الـدَّهر بَحـــر لَـه عَـجـائب وهـو خَـطيب لِمـن نَـظَـر

ـ الحكمة المستقاة من البيت : يقال :(الدنيا كالماء المالح كلما ازددت منه شربا ازددت عطشا) ويقول الحسن البصري : (الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل وإن اللبيب بمثلها لا يخدع) ويقول ابن القيم:(من لاح له كمال الآخرة هان عليه فراق الدنيا)

ويقول الشافعي :

إنَّ لله عـبـاداً فـطنـا تَركُوا الدُّنْيا وخَافُوا الفِتَنَا
نَـظَرُوا فِيها فَلَمَّا عَلِمـوا أنهـا لَيستْ لِحَي وطَنَـا
جعلُوهَـا لُجَّةً واتخَـذُوا صَالِح الأَعْمال فِيها سفُنَا

ـ البيت السابع والثامن والتاسع : ينصح ويحذر بعدم الخوض في أمور أنت في غنى عنها، فتظن نفسك أنك مصيب وأنت مخطئ. فأكبر خذلان أن ترتكب الخطأ، وأنت تظن أنك على صواب، أن تكون مبعدٌ عن الحق، وتظن أنك على الحق.

[1] رواه الخطيب البغدادي في "اقتضاء العلم العمل " (98).

أبعدت عن نفسك الصواب فأخطات في موضع الصواب الذي كان عليك أن تصيب فيه .

فيقول :

فـاطْرح الـــغَيّر عَنْكَ وجانب وخُــذْ علَى نَفْسِـــكَ الحذَر

يا ذَا الذي ظَنَّ أَنْ يصيـــب بسهمه وهَـــــو لايصاب

أَبعدْتَ عَن نَفْسِكَ القَرِيـــب وأَخْطَأْتَ فِي موضِـــعِ الصَّواب

. الحكمة المستقاة من الأبيات : يقول الحق سبحانه :﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾"[1] .

كان يسعى هؤلاء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذا يعني أن سعيهم كان عشوائي ،غير ممتثلين بآيات الله الكونية من أوامر ونواهي .

يقول الخليل بن أحمد: الرجال أربعة [2]

رجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذاك غافل فنبهوه

ورجل يدري ويدري أنه يدري، فذاك عاقل فاعرفوه

ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذاك جاهل فعلّموه

و رجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذاك مائق[3] فاحذروه.

---

[1] الكهف، الآية، 103 . 104.

[2] أبو بكر القاضي المالكي، المجالسة وجواهر العلم،تح: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم،ط1، 1998، (2/97)،رواه الفسوي (2/83)، وجامع بيان العلم وفضله (2/48)لابن عبد البر.

[3] المائق : قال أبو بكر الأنباري:فيه ثلاثة أقوال: المائق السيء الخلق،وقيل الأحمق،وقيل : السريع البكاء،القليل الحزم والثبات ، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس ، تح: حاتم صالح الضامن،دار الشؤون الثقافية العامة،العراق،بغداد، ط2، 1987،(1/121)

البيت العاشر والحادي عشر : يرى أنه على المرء أن يكون لبيبا وذو إدراك وفهم للأمور، وأن لكل مسألة جواب، وأن الحق حق ،وإن حاول أن يطمس صورته، وأن يخفي صوته، فإنه سيأتي يوم يقول فيه من كان على الباطل، في قوله :﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾[1] . وفي قوله:﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[2] . فيقول الشيخ أبا مدين :

إنْ قُلْتَ قَــولاً فَكُن لَبيب وكُـلُّ قَــول لَــهَ جـواب

ما ضَـاعَ حقٌّ ولَـهَ طَالِب لَـو جاوزَ الشَّـمس والـقَمر

. الحكمة المستقاة من البيتين : ورد في الرسالة القشيرية : لأبي القاسم القشيري . رحمه الله . أنه سمع الأستاذ أبا علي الدقاق يقول :

(من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس)، فيجب اتباع الحق ولو قل السالكين وتجنب الباطل ولو كثر الهالكون.

. البيت الثاني عشر ينصح بالإعراض عن عيوب الناس، فالإهتمام بعيوب الناس أمر مذموم وقد يصرفه ذلك عن الإهتمام بعيوبه والإهتمام بإصلاحها كما قيل : " من نظر في عيوب الناس ،عمى عن عيوب نفسه"[3]. فيقول :

مــن ذَكَــر النَّــاس بــالمَعائِب يــذْكَــر فــيــه بِمَــا ذَكَــر

الحكمة المستقاة من البيت: (الإعراض عن عيوب الخلق). روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : " يا معشر من أسلم

[1] يوسف ،الآية51

[2] يونس، الآية 32.

[3] أبو بكر أحمد بن حسن البيهقي،الزهد الكبير،تح: عامر أحمد حيدر، دار الجنان، بيروت،لبنان،ط1، 1987،(1/195)

بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله " [1]

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما الغيبة يا رسول الله ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره قال: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله ؟ قال : إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ".

و يقول الشافعي :

إذَا رمت أَنْ تَحْيا سليماً من الـــردَى ودينَكَ مـوفُور وعِرضَكَ صـــيِّنْ

لِـســانُكَ لاَ تَذْكُـــر به عَورةً امرئ فَكُلُّكَ عَوراتٌ وللنَّـاسِ أَلْســـن

و عَينَـــاكَ إنْأَبْـــدَتْ إلَيكَ معـــايبا فَدَعْها وقُل يـا عَينَ للنَّاسِ أَعْـيَن

و عَاشِر بِمَعروف وسامح من اعْتَدَى ودَافِع ولَكِـــن بالتِي هي أَحسـن[2]

. البيت الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر : في هذه الأبيات يذكر الغافلين بالموت، والموت خير واعظ . فيقول :

يـا بانِياً وهُـــو لاَ يبـالِي وهُـــو فِي ميدَانه يَجُولُ

يا ساكِناً وهُو فِي ارتِحَال وكُلُّ ما قَدْ حوى يـــزولُ

تَسرِقُ من عُمرِكَ اللَّيـالِي كَسرِقَـــة الرِّيح للْعقُـول

[1] أبو داود سليمان بن الأشعث،صحيح سنن أبي داود،تح:محمد ناصر الدين الألباني،مكتبة المعارف،الرياض، ط1،،1998، (4880) ، " صحيح الترمذي" (2032)

[2] الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ،ص39

. الحكمة المستقاة من الأبيات: يقول أبو العتاهية :"كم من عزيز أذلّ الموت مصرعه كانت على رأسه الرايات تخفق " . ويقول الفاروق عمر بن الخطاب (كفى بالموت واعظاً)كتب العبارة على خاتمه ليذكر نفسه بالموت.

جاء في التاريخ أن هارون الرشيد الخليفة العباسي الذي تحدّى الغمام والسحب أن تمطر في ارضه،بنى قصرا مشيدا في بغداد وقال للشعراء : ادخلوا علي (ليمدحوه)

فدخلوا جميعا ثم دخل أبو العتاهية الزاهد فقال لهارون في قصيدة :

عِشْ ما بدَا لَكَ سالِماً في ظِلِّ شَاهِقَةِ القُصورِ

قال هارون وقد ارتاح وانبسط وهش وبش : هيه، يعني : زد . قال:

يُجْرى عَلَيْكَ بِمَا أَرَدْتَ مع الغَدَوِّ مع البُكُورِ

قال: هيه . قال :

فَإِذَا النُّـفُوسِ تَغَرغَرَتْ بِزفِيرِ حشْرجَـةِ الصُّدُور

فَهُنَاكَ تَعلَـم مـوقِناً ما كُنْتَ إلاَّ في غـرور

فهوى يبكي حتى أغمي عليه [1]

و يذكرنا الله بالموت كثيرا في القرآن في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]

[1] عائض بن عبد الله القرني، وجاءت سكرة الموت بالحق، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ،ط1 ، 2000 ،بيروت ، لبنان، ص12

[2] البقرة، الآية281 .

يقول ابن عباس رضي الله عنه: أنها آخر آية نزلت على حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، بمعنى اتقوا الله يوم لا ينفع مال ولا بنون واجعلوا بينكم وبينه وقاية من عقابه، وذلك بطاعته واتباع أوامره،والإبتعاد عن نواهيه.

وقال عز وجل :﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (61) وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (62) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [1]

بمعنى أن الله فوق عباده يرقبهم ويحميهم ويتولى أمورهم ويطلع على أحوالهم كلها، ويرسل عليهم ملائكة يحفظونهم ، لكن إذا أتى أمر الله فهؤلاء الملائكة يتخلون عنه ،وتأتي رسل أخرى تتولى قبض روحه بأمر من الله وهو ملك الموت.

. البيت السادس عشر والسابع عشر بيين في ان الموت قد سبق واخذ اقواما من قبل وكانت تلهيهم الاماني فلم تكن تخشى الله ولم تعدّ العدّة والزاد لذلك ،وينهى عن التعلق بالدنيا لان مآلها الى زوال والمرء في ارتحال . فيقول :

بالقوم قد سارتْ الركائب ولاَ تَجَهَّزتْ يوماً لِلسَّفر

ولَستَ تَخْشَى ولاَ تُراقب من يوم تُبلَى فيه العبر

. الحكمة المستقاة من البيتين: يقول الحسن البصري: "رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة، حتى ردوها إلى من إئتمنهم عليها، ثم راحوا خفافا غير مثقلين، ولقد أدركت أقواما كانت الدنيا تتعرض لأحدهم، وإنه لمجهود، فيتركها مخافة الساعة "

[1] الأنعام، الآية 61ـ62 .

. وعند الترمذي بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم قال: "أكثروا من ذكر هادم اللذات"،وفي رواية: "فما ذكر في قليل إلا كثّره، ولا في كثير إلا قلّله " هاذم اللذات هو الموت، ومفرق الجماعات، آخذ البنين والبنات،الذي أتى بالبلايا والبليات فصرعهم في الحفر المظلمات.وفي هذا تقول الأبيات[1]:

أَتَيت القُبــور فَنَـادَيتهَا أَين المُعـظّـم والمُحتَقَر

تَفَـانُوا جَمِيعاً فَــمـا مُخْبر وماتُوا جَمِيعاً ومات الخَبَر

فَيا سائلي عَن أُنَاسٍ مضَوا أَما لَكَ فِيمــا مضَى معتَبر

تَــروح وتَغْدُو بنَاتَ الثرى فَتَمحوا مَحَاسِن تِلْكَ الصُّور

هذا باختصار ما كان ينصح به الشيخ العارف بالله سيدي أبي مدين شعيب من خلال الأبيات التي كان ينبه بها الغافلين عن اتباع طريق الحق، ويرشد السائرين لبلوغ المراتب العلية، ويوجه المريدين لنيل مقاصدهم من الحضرة الإلهية .

فتبلوت فكرة هذه القصائد على شكل حكم نابعة من جملة الخبرات والتجارب الحياتية التي شهدها شيخنا منذ طفولته حتى بلوغه مرحلة التعليم على يد مشايخ عظام ،زرعوا فيه روح العزيمة والهمة العالية لتظهر بعد ذلك شخصيتة وموهبته التي ما فتأ أن نشرها بين تلامذته ومريديه ،الذين تأثروا بسلوكه وأخلاقه التي تركت بصمته بعد ذلك لتخلق جملة من محبيه ومتتبعي طريقته وظهر ذلك بترديد قصائده في مختلف الزوايا والأقطار .

[1] عائض بن عبد الله القرني، وجاءت سكرة الموت بالحق ،ص8.

الخاتمة

الخاتمة:

اشتملت القصيدة الصوفية في معانيها ومضمونها على الحكمة التي أكسبتها المزيد من الرقي والسمو بالسلوك البشري إلى التربية الأخلاقية والأدب المحمدي . وتعبيره عن ذلك المكنون في نظمه للشعر، محلقا في تلك المقامات والحضرات الشهودية، مصورا مراتبه ومعارجه في تلك القصائد التي تعبر عن الحب الإلهي والقرب من الحضرة الإلهية.

ومن خلال هذه الرحلة البحثية مع أهل العرفان والذوق، وبخاصة الشيخ أبي مدين شعيب وإنتاجه الروحي الشعري، والذي يحمل في طياته الكثير من الحكم والعبر والنصائح والتوجيهات للمريد وسالك الطريق قصد التربية والتهذيب مما أثر ذلك في أرواح العشاق والمحبين الفانين في الذات الإلهية حيث تأثروا بهذا الرجل العارف القطب وظهر ذلك جليا في همة تلامذته، وانجذبوا إليه مقتفين آثار عوالم القدس ومحاربة النفسومبتغاهم بلوغ مقام رضا المحبوب والفوز بالقرب تدنياً وتدلياً، وليس الخبر كالعيان، فكانت السعادة الروحية منالهم والتربية الأخلاقية ركيزتهم ويظهر ذلك من خلال الحكم التي يحملها أدبهم، فنالوا بذلك بالتمكين ...

وما يمكن أن نستخلصه من نتائج في هذا البحث ما يلي :

ـ يختص التصوف بجانب من جوانب الحياة الروحية في الإسلام، ويعتبر تجربة وسلوك قبل أن يكون مذهبا وفكرا، باعتباره تعميقا لمعاني العقيدة، واستنباطا لظواهر الشريعة، وتأملا لأحوال الإنسان في الدنيا .

ـ نشأ التصوف الإسلامي وترعرع في أكناف الإسلام، واستمد أصوله من منبعه الصافي وتعاليمه وتوجيهاته وأخلاقه، فقد اتسمت نشأته الأولى بالزهد والتقشف، ولم يطلق اسم الصوفية إلا في القرن الثالث الهجري . وعليه فالقرآن والسنة هما المنبعان الأساسيان له .

ـ يمكننا التمييز بين التصوف الشرعي (الأصيل) والبدعي (الدخيل) بالإلزامات والتعاليم الأدبية والمعرفية، مثل : تصوف المحاسبي والجنيد ...، هذا التصوف الذي كان تعمقا في تحصيل المعارف المختلفة، والإنضباط الأدبي والأخلاقي بخصال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم .

ـ يهدف التصوف إلى طهارة القلب والتوبة إلى الله عز وجل، ومحبة مخلوقاته .

ـ نشأة التصوف كانت جراء تأثير عوامل عديدة ترجع إلى ظروف بيئية وإجتماعية وسياسية وإقتصادية ساعدت على نشوئه وتطوره .

ـ لا بد من عبور محطات تتكون من مراحل هي المقامات والأحوال يجب أن يجتازها سالك الطريق كالتوبة والرضا، والمحاسبة، والإنابة ...، وهي كلها فضائل، وأحوال نفسية وأخلاقية، تأتي نتيجة لمجاهدة النفس والسيطرة على شهواتها ورغباتها، يترقى فيها المريد وسالك الطريق بالمجاهدات والرياضات، بالتزامه بتوجيهات الشيخ المرشد للوصول والقرب من الله ونيل رضاه ومحبته .

ـ كان أبو مدين شعيب ولياً صالحاً وقطباً عارفاً وشيخاً وفقيهاً، فجعل القرآن الكريم والسنة النبوية المنهاج الذي يسير عليه والذي أنار دربه منذ بداية حياته حتى وصوله إلى درجة القطب بصدقه وإخلاصه، وهي أعلى مراتب القوم . كما كان رجل دعوة وارشاد، هدفه إصلاح الخلق وإخراجهم من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم .

ـ كان رجل كرامات، خصه الله بها لإقناع المعاندين والمرتدين والمنكرين لوحدانية الله .

ـ كان مذهبه التوحيد .

ـ إن الشاعر بنزعته الصوفية، تجاوز الأبعاد المادية،قصد البحث عن مجال روحاني يهدأ ذاته القلقة.

ـ انقسم التصوف ـ كما أشرنا ـ إلى تصوف سني وهو الذي اعتمده شيخنا وهو قائم على أساس عقيدة أهل السنة والجماعة، وتصوف فلسفي الذي تتجسد فيه الرمزية، ويهدف أصحابه أمثال : ابن

الفارض، ابن عربي، جلال الدين الرومي... إلى أخذ موقف من الكون وتحديد صلته بخالقه، ويقوم على أساس الذوق، ويحتاج إلى جهد لفك شفرات رموزه، وفهم أبعاده .

ـ ظهرت الحكمة جليا على لسان أبي مدين والتي نظمها في بعض قصائده فأصبحت منهج يسير عليه المريد.

ـ يعتبر الشيخ أبا مدين شعيب مدرسة روحية من خلال رصدنا لأهم محطات حياته ومسيرته العلمية والروحية، وقد خلّف تراثاً صوفياً يتمثل في أشعاره وحكمه .

ـ تعد قصائد أبي مدين شعيب من أفضل ما صور في موضوع الحب الإلهي، وقد جاءت الصورة الشعرية في أعلى درجاتها من العذوبة، كما جاءت العبارات والألفاظ جزلة قوية متآلفة، كما كان للأفعال حضور قوي لما لها من حكة وتجدد وطاقة تصويرية، بالإضافة للروابط قصد حصول الإنسجام والترابط بين معاني القصيدة .

ـ آثاره العلمية الفكرية من أرقى ما عرفه الأدب الصوفي مع أن الإهتمام بها كان قليلاً .

ـ حَمّل بعض قصائده للحكمة والتي هي عبارة عن درر نفيسة تستعمل لتربية النشئ، وتوجيه طالب هذا العلم إلى بلوغ غايته، وقد تولدت تلك الحكمة من خلال فطرته واكتسابه للعلوم الشرعية والذوقية على مشايخه الكبار .

ـ إن العلاقة بين الشعر واالتصوف عميقة جدا، لأن الشعر في حقيقته يتجاوز الواقع في المكاشفة عن كل ما هو غامض، فالشاعر حين يجسد رؤيته بما يكتشفه في ذاته من انفعالات واضطرابات، فهو أثناء هذه اللحظة، كذلك الصوفي في تأمله وتفكيره الروحاني، إذ أن كلاهما ينسلخ من أي شيء كائن ليتفرد إلى الجوهر الإنساني وهكذا يتم استحضار الإلهام لإبداع أجمل القصائد .

ـ إن الشعر الصوفي عبارة عن نصوص متميزة بمصطلحاتها الخاصة التي تهدف للوصول إلى أعلى درجات الذوبان في عالم الروح .

ـ الشعر الصوفي شعر يعبر عن مواجيد وتجليات تتعلق بالذات الإلهية .

ـ جمالية العبارة الشعرية تنبع من عذب الألفاظ والكلمات التي يختارها الشاعر في تصوير الحالة النفسية والتأثير الشعوري الذي مر به .

ـ إن مجمل أشعار أبي مدين شعيب تعكس تجربته الصوفية وما يختلج في نفسه من حب وجمال وقيم أخلاقية يكنها للخالق .

ـ لم يهتم الشاعر بالأساليب البلاغية من بيان وبديع إلا ما جاء في البعض منها بصورة عفوية لأنه اهتم بالمعنى وإيصال أفكاره بأسلوب بسيط دون تكلف .

ـ نظم أبو مدين قصائده على عدّة بحور، أما القصيدة الأولى التي درسناها (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا) كانت على البحر البسيط، أتت فيها مصطلحات صوفية عديدة أهمها (الفقير، الشيخ) ومعناها في المفهوم الصوفي ذلك الذي سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك، يرشد المريد، يقر الدين والشريعة في قلوب المريدين، عالما بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، أخذ طريقه على شيخ محقق، تسلسلت متابعته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ...، كما اشتملت القصيدة على جملة من الحكم تتضمن : أوامر ـ نواه ـ أوصاف .

ـ فمن الوصايا الأمرية التي يجب الأخذ بها، دوام الصحبة والأدب، وحضور المجالس، ملازمة الصمت، وإطراقه الرأس، ودوام الاستغفار، ومراقبة الشيخ في أحواله، مع تقديم الخدمة له من غير تذمر أو ملل ـ وما نهى عنه الشاعر : التخلي عن المجالس، والإكثار من الحديث، والخوض في العيوب.

ـ ومن أوصاف الفقراء : أنهم سلاطين ، وسادات وأمراء، كرام السجايا، طيبوا الرائحة، لا يؤذون غيرهم، تطمئن إليهم النفوس، تسكن بهم القلوب، تستنير بهم العقول، وتهذب بهم الأخلاق .

فطوبى لمن قربهم وعاشرهم ونهل من بحور علومهم .

أما القصيدة الثانية : والتي هي عبارة عن (موشح) تتميز بالثقل، لما فيه من التركيز، وغلبت عليه الأسماء، والأوصاف. فجاء موجزاً بليغاً (أنت، سهمك، الدهر ،ثم، خذ....) كما تتبلور الفكرة لتظهر لنا ما فيها من حكم وأمثال . أما فكرة الموشح الأساسية، تظهر من خلال جملة التنبيهات للغافلين والخارجين عن طريق الحق، وارشاد السائرين وتوجيههم إلى بلوغ منازل الإيمان الصحيح .

إن خلاصة القول أن الولي الصالح " أبو مدين شعيب " هو النبراس المضيء والمنهج السليم لكل مسلم يريد التقيد بأحكام الله في حياته والفوز برضى الله ومحبته، وذلك من خلال الحكمة التي تضمنتها قصائده .

قائمة المصادر والمراجع

مكتبة البحث

القرآن الكريم برواية ورش

أ : المصادر:

.**أبو جعفر الترمذي**، سنن الجامع الكبير، دار التأصيل،، القاهرة، ط1، 2014.

. **أبو حامد الغزالي،احياء علوم الدين**، ج1،ج2،ج3، ،دار الكتب العلمية ،بيروت،ط1 1986م.

. **أبو الحسين مسلم** ،صحيح مسلم ،تح: محمد فؤاد عبد الباقي،المغني للنشر والتوزيع،الرياض،ط1، 1998.

.**أبو بكر البيهقي**،الزهد الكبير،تح:عامر أحمد حيدر،مؤسسة الثقافة ،بيروت،ط1996،3

.**أبو بكر البيهقي** ،الأسماء والصفات، حققه: محمد محب الدين أبو زيد، دار الشهداء، مكتبة التوعية الإسلامية،2017.

. **أبو عبد الله ابن ماجة**، سنن ابن ماجة،ج1، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء الكتب العربية.

1. **أبو الفتح عثمان بن جني،سر صناعة الإعراب**،ج1، تح : حسين هنداوي ، ،دار القلم، دمشق ،ط1،.1985.

. **أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ**، البيان والتبيين، تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1988.

. **أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي**، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، ط1997،2.

. **أبو بكر القاضي المالكي**، المجالسة وجواهر العلم، تح: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم،ط1 ، 1998.

. **أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري**، الزاهر في معاني كلمات الناس، تح: حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط2، 1987.

أبو بكر أحمد بن حسن البيهقي ، الزهد الكبير، تح: عامر أحمد حيدر، دار الجنان، بيروت ، لبنان، ط1، 1987.

. **أبو داود سليمان بن الأشعث**، صحيح سنن أبي داود، تح: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1998.

. **أحمد بن حنبل**، الزهد، حققه: محمد جلال شرف، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

. **أحمد بن حنبل** ،مسند الإمام أحمد بن حنبل،ج1، تح: محمد عبد القادر عطاء،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،1971.

.**أحمد بن علي بن حجر العسقلاني**،فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري،ج1،تح:عبد العزيز بن باز،المكتبة السلفية،الرياض،.

. **أحمد بابا التنبكتي**،نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1،،1989.

. **ابن عطاء الله السكندري**،الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفري الرندي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، 1988.

. **ابن عطاء الله السكندري**،عنوان التوفيق في أدب الطريق، تحقيق خالد زهري، دار الكتب العلمية ، لبنان،ط1 ،2004

. **ابن عبد البر**، جامع بيان العلم وفضله،ج1، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1 ، 1994.

. **ابن مريم**، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق عبد الرحمن الطالب، ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ط1، 1986.

.**أبي سعيد البيضاوي**،التفسير، حققه و ضبط نصه: محمد صبحي بن حسن بن حلاق، محمود أحمد الأطرش، دار الرشيد ، بيروت،ط1، 2000.

. **ابن كثير** ،تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد محمد، محمد السيد رشاد، حسن عباس قطب، محمد فضل العجماوي، علي أحمد عبد الباقي، المجلد السابع، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000.

. **ابن كثير**،البداية والنهاية،اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان،2004. . تقي الدين أحمد ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، تحقيق: علي بن عبد العزيز الشبل، المجلد السادس، ، الرياض، ط1، 1416هـ.

. **ابن عبد البر**،جامع بيان العلم، ج1،تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، ، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1، 1994،.

. **ابن العربي**،أحكام القرآن،تحقيق: علي محمد البجاوي،دار الكتب العلمية، مصر،ط3 ،2003.

.**ابن عربي**،روح القدس في محاسبة النفس، تح عزة حصرية ، مطبعة العلم للجميع، دمشق، 1970.

. **ابن عربي**،محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج2،دار اليقظة العربية، دمشق ،1970.

. **ابن ماجة** ،سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، 2006.

. **ابن حبان**، صحيح ابن حبان، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

. **أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي**، المعجم الصغير للطبراني، دار الكتب العلمية، لبنان،1983

. **الحاكم النيسابوري**،المستدرك على الصحيحين،تح:مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتبالعلمية،ط2، 2002.

.**الحافظ بن الطبراني**، المعجم الكبير، ج1، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، 2007،

.**الحافظ بن أحمد الطبراني**، المعجم الصغير، تحقيق: أبو محمود شكور محمود الحاج،ط1 ،1985.

. **الخطيب البغدادي**، اقتضاء العلم والعمل، المحقق : محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط5، 1984م.

. **الخطيب البغدادي** ،الجامع الأخلاق الراوي، ج1، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، 1983.

. **السراج الطوسي**، اللّمع، حققه وقدم له وخرج أحاديثه عبد الحليم محمود، وعبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، 1960.

. **الشافعي**، **الديوان**، تحقيق د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الغد العربي، القاهرة، ط2،1985.

. **الفخر الرازي**، التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

. **القرطبي**،الجامع لأحكام القرآن، ج1، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي،، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط1، 2006.

. **القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي**، مسند الشهاب القضاعي، تح : حمدي عبد المجيد السلفي، ، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط1، 1985 .

. **القشيري**، عبد الكريم بن هوزان،الرسالة القشيرية في علم التصوف، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1421هـ ـ 2001.

. **تقي الدين أحمد ابن تيمية**،رسالة الصوفية والفقراء، تقديم: محمد جميل غازي، دار المدني للطباعة والنشر، القاهرة، 2015.

. **شمس الدين القرطبي**، الجامع لأحكام الفرآن،تح: هشام سمير البخاري،دار عالم الكتب، الرياض،2003.

. **عبد الرحمن ابن خلدون**، مقدمة ابن خلدون، المحقق عبد الله بن الدرويش، ، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004.

عبد الرحمن ابن خلدون ،شفاء السائل لتهذيب المسائل، نشر الأب أغناطيوس عبده، المطبعة الكاثوليكية ،بيروت، د ت.

. **عبد القادر الجيلاني**،الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف،ج2،، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر ط3، 1956.

. **محمد بن اسماعيل البخاري**،صحيح البخاري، دار ابن كثير، لبنان، 2018.

. **محمد ناصر الدين الألباني**،ضعيف الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، المكتب الإسلامي، لبنان، 2006.

. **محمد ناصر الدين الألباني**، الترغيب والترهيب، تح:عبد القوي المنذري، بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1412هـ.

. **محمد بن عيسى الترمذي**، سنن الترمذي،تح: مركز العلوم، دار التأصيل،بيروت، ط1، 2014.

. **محمد بن سلامة القضاعي**، مسند الشهاب، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط1، 1985.

. **محي الدين ابن عربي**، رسائل ابن عربي، اصطلاح الصوفية، دار إحياء التراث العربي، بيروت،دت.

ب – المراجع:

.**أبو هلال العسكري**، جمهرة الأمثال،ج2 ،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار الفكر ،ط2، 1998.

.**أحمد بن عبد القادر باعشن** ،البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد، تحقيق المزيدي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1،،2005.

. **الراغب الأصفهاني**، معجم مفردات القرآن الكريم ،المحقق:صفوان عدنان داوودي،دار القلم، الدار الشامية ،ط4، 2009.

. **الفضل زين الدين بن الحسين العراقي**، المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، تح: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود ،دار ابن حزم،بيروت،ط1، 1995.

. **السيد جعفر الحسني**، تاريخ الأدب العربي،دار الإعتصام،ط1 ، 1995،

. **ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني**، أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

. **ابن يوسف الشطنوفي**، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني ،، دار القلم العربي، ط1ـ، 2003.

.**أبو العباس الغبريني**،عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ،لبنان، ط2، 1979م.

.**ابراهيم محمد منصور**، (الشعر والتصوف) الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ،1995.

. **أبو مدين شعيب** ، السعادة الأبدية، جمعه عبد الحميد حميدو والتلمساني، طبع بالمطبعة الجديدة ،فاس، 1935.

. **أبو العباس أحمد الغبريني**،عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1981،2.

. **أدونيس** ،زمن الشعردار العودة، بيروت، ط2، 1978.

. **أبو محمد القاسم السجلماسي**، المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980.

. **أبو الوفاء التفتازاني**، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3 1979.

.**أبو بكر الدينوري المالكي**،جواهر العلم، ،دار ابن حزم، بيروت ط1، 1998.

. **أبو بكر إسحاق الكلاباذي**،التعرف بمذهب أهل التصوف، ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ط2، 1994.

. **أدونيس**، زمن الشعر، ، دار العودة، بيروت، ط2، 1978.

. **إحسان إلهي ظهير**،التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط1، 1986.

. **ابن الجوزي**، تلبيس ابليس، دار القلم، بيروت، 1403هـ.

. **الإمام الحداد**، الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم، ط2 ،2001.

. **ابتسام أحمد حمدان** ،الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، دار القلم العربي، سوريا، ط1، 1998.

. **ابن سيده، المخصص**، السفر الثالث، مادة (وقع)، دار الفكر، بيروت، 1978.

. **ابراهيم أنيس**،الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1999.

. **ابراهيم أنيس**،موسيقى الشعر، ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، 1988.

. **أماني سليمان داود**، الأسلوبية والصوفية، دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج ، دارمجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 2002.

. **أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري**، تفسير سورة مريم ،آية 96، ،طبعة دار الكتب العلمية،ط 3 ،1994.

. **اسماعيل العجلوني**،كتاب كشف الخفاء ومزيل الألباس ، مكتبة القدس،دط، 1351هـ.

. **أحمد بن احمد أبو العباس الغبريني**،عنوان الدراية . فيض عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح : رابح بونار ، ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1984.

. **الطاهر علاوي**،العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، ، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2004.

. **بوزياني الدراجي**، أدباء وشعراء من تلمسان، ج2،دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر،2011.

. **التادلي**،التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق : أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997.

. **جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي**، صفة الصفوة،تح: خال طرطوسي، دار الكتاب العربي، بيروت ،لبنان،1212.هـ

. **جودة نصر عاطف**،الرمز الشعري عند الصوفية ، دار الأندلس، الإسكندرية ط1، ،1983.

. **حسان عبد الكريم**، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى القرن الثالث، دط، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1954. .

. **حسن ناظم**، البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002 .

. **حسن مرزوق**، الإسلام الطرقي ومستويات التأصيل، الدوحة، قطر، 2012

. **حسن السندوب**، أبو العباس المرسي ومسجده الجامع بالإسكندرية، طبعة القاهرة، 1944.

. **حسين فارسي**،أبو مدين شعيب، حياته وأدبه، دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران،2005.

. **حازم القرطاجني** ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح : محمد الحبيب بن الخوجة، ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986.

. **خالد بالقاسم**،الكتابة والتصوف عند ابن عربي، ، دار توبقال للنشر، ط1، 2004.

. **خالد الحسينان**، أكثر من 1000 دعوة في اليوم والليلة، ، مصر الدار العالمية للنشر والتوزيع، ط3 ، 2004.

. **رابح بونار**، المغرب العربي تاريخه وثقافته ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط3، 2000.

. **رجاء عيد**، التجديد الموسيقي في الشعر العربي (دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد لموسيقى الشعر العربي)، منشأة المعارف بالإسكندرية، دت.

. **زيدان يوسف**،شعراء الصوفية المجهولون ،دار النشر ،دار الجيل، ط2، 1996.

. **زكي مبارك**،التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،القاهرة ،2012.

. **سيد أحمد سقال** ،سيدي أبو مدين شعيب، نبذة عن حياته ومقتطفات من ديوانه وقصائد في ثنائه ومدحه، نشر ابن خلدون ،تلمسان، عاصمة الثقافة الإسلامية ،2011.

. **سعيد بوسقطة**، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، منشورات بونة للبحوث والدراسات، ط2، 2008.

سعيد بن علي القحطاني،الحكمة في الدعوة إلى الله،مكتبة الملك فهد الوطنية،الرياض،ط4، 1424هـ.

. **سامية مصطفى خشاب**،علم الإجتماع الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1985.

.**شهاب الدين أحمد بن يحي**،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،ج5،تح:إبراهيم صالح،إصدارات المجمع الثقافي، أبو ظبي.

. **شاوش الحاج محمد بن رمضان**، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ،1995.

. **صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي**،الوافي بالوفيات، ج1 ، تح : أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، ،دار إحياء التراث العربي، ط1 ، 2000.

. **صلاح عبد الصبور** ،حياتي في الشعر، دار إقرأ، بيروت، لبنان، 1981.

.**صلاح مؤيد العقبي**،الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، لبنان، بيروت، 2002.

. **عائض بن عبد الله القرني**، وجاءت سكرة الموت بالحق، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

.**علي الخطيب**،اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي ، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ.

. **علي بن محمد بن حسين الحبشي**،سمط الدرر في أخبار مولد خير البشر، ، دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2002،1.

. **عز الدين اسماعيل** ،الأسس الجمالية في النقد العربي،دار الفكر العربي، ط1974،2.

. **عبد الرزاق الكاشاني**،معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق:عبد العال شاهين، دار المنار، 1993.

عبد الحق الإشبيلي، العاقبة في ذكر الموت،تح: خضر محمد خضر،مكتبة دار الأقصى، الكويت،ط1 ، 1986.

. **عبد الملك مرتاض**،السبع المعلقات، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2015.

. **عبد الواحد بن علي المراكشي**،المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح وعناية: صلاح الدين الهواري، ، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 ،2006.

. **عبد الحفيظ فرغلي، علي القرني**، التصوف والحياة العصرية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ،1984.

. **عبد الله كنون**،النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961.

. **عبد الله علي علام**،الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف ،مصر ،1971.

. **علاء الدين علي بن حسام الدين القادري الشاذلي**،كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مؤسسة الرسالة، ط1981،1.

. **علي بن برهان الدين الحلبي**، السيرة الحلبية، ، دار المعرفة، بيروت، 1990

. **عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ**، مسالك أهل الفطن من معاني قصيدة ما لذة العيش لأبي مدين، ، اصدارات دار المصطفى،ط2012،1.

. **عمر فروخ**، تاريخ الأدب العربي،ج5، دار العلم للملايين،بيروت ،لبنان، ط1، 1982.

. **عمر فروخ**، التصوف في الإسلام، ، دار الكتاب العربي ،بيروت، لبنان دط،1961.

. **عاطف جودة نصر**،الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، ط1،1978.

. **عبد الحليم محمود** ،شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، حياته ومعراجه الى الله، المكتبة العصرية ،صيدا، بيروت، د ت.

. **عبد الحميد حميدو**،السعادة الأبدية لأبي مدين فخر الديار التلمسانية، المطبعة الجديدة، فاس، 1935.

. **فايز ترحيني**،الإسلام والشعر ،،دار الفكر اللبناني ،بيروت، ط1، 1990.

. **كمال بشير**،**علم الأصوات**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000.

. **لسان الدين بن الخطيب**، روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق: عبد القادر أحمد عطاعبد الستار، دار الفكر العربي.

. **مبارك بن محمد الميلي**،تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1 ،مكتبة النهضة الجزائرية، ط4 ،2004.

. **محمد عبد المنعم خفاجي**،الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة.

. **محمد بن محمد حسن شراب** ،شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية لأربعة آلاف شاهد شعري، ج1 ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1. 2007،.

. **محمد الحفناوي**، تعريف الخلف برجال السلف، ، بيروت،ط1، 1982.

. **محمد أبو اليسر عابدي** ،حكايات الصوفية ، دار النشائر ،دمشق،ط1،،1993.

. **محمد علي أبو ريان**، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت، ط2،دت

. **منصف عبد الحق**،الكتابة والتجربة الصوفية، نموذج محي الدين بن عربي، منشورات عكاظ، الرباط، 1988.

. **محمد صابر عبيد**،القصيدة العربية بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية ،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.

. **محمد العياشي**،نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية، تونس، 1976.

. **محمد صابر عبيد**، القصيدة العربية بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.

. **محمد حماسة عبد اللطيف**،الجملة في الشعر العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.

. **محمد الطاهر علاوي** ،(العالم الرباني) سيدي أبو مدين شعيب، ، دار الأمة العربية للطباعة والنشر، الجزائر،ط2004،1.

. **محمد كمال شبانة**، الدويلات الإسلامية في المغرب، ، دار العالم العربي، القاهرة، 2008.

. **محمد كمال جعفر**،التصوف طريقا وتجربة ومذهبا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1980.

. **محمد كمال جعفر** ،الأساس المشترك الإتجاهات، ملتقى الفكر الإسلامي، الجزائر، 1987.

. **محمد عبد الفتاح سيد احمد**، التصوف بين الغزالي وابن تيمية، ، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1 ،2000.

. **محمد الطمار**،تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط ، 2006.

. **محمد مرتاض** ،من أعلام تلمسان مقاربة تاريخية فنية، دار الغرب للنشر والتوزيع.

. **محمد عبد المنعم خفاجي**،الأدب في التراث الصوفي، دار غريب، القاهرة، 2016.

. **محمود محمود الغراب**،شرح رسالة روح القدس في محاسبة النفس، من كلام الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، مطبعة خضر، ، دمشق، ط2، 1994.

. **مختار حبار**،شعر أبي مدين التلمساني، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002.

. **مقداد بالجن**،فلسفة الحياة الروحية، (منابعها ومشاربها ونشأتها ونشأة التصوف والطرق الصوفية)، ، دار الشروق، ط1، 1985.

. **ناصر بن سليمان**،الحكمة، ، دار الوطن للنشر، الرياض، ط1 ،1412هـ.

. **نور الهدى الكتاني**، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط1، 2008.

. **نور سلمان**،معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، رسالة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، الدائرة العربية بالجامعة الأمريكية ، بيروت، 1954.

. **يحي الجبوري**،الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1986،5.

. **يحي بوعزيز**، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ،دار الغرب للنشر والتوزيع،ط2، 2003

. **الزمزمي بن محمد بن الصديق** ،الإنتصار لطريقة الصوفية الأخيار، دم، دط، دت.

. **السيد جعفر الحسيني**، تاريخ الأدب العربي، دار الإعتصام،مصر، 1414هـ.

. **الفاضل بن عاشور**، أعلام الفكر الإصلاحي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس، ط1

. **المغني**، حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، أبي الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي، ،دار الحزم، بيروت، ط1 ،2005.

. **المقري**،نفح الطيب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1369هـ.

. **النوبختي** ،فرق الشيعة، ، منشورات الرضا، بيروت، لبنان. ط1،2012.

. **النبهاني**، جامع كرامات الأولياء، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر ،،بيروت،1993

ج – الدواوين:

. **أبو مدين شعيب** ،الديوان، إعداد وترتيب د. عبد القادر سعود، د.سليمان القرشي، كتاب ناشرون، بيروت،لبنان.

. **أبو الحسن الششتري**، الديوان، تح: علي سامي النشار،، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1.

. **الإمام الشافعي،الديوان**، تحقيق: د.محمد عبد المنعم خفاجي، ،دار الغد العربي، القاهرة، ط2،1985.

. **الإمام علي بن أبي طالب**، الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة، بيروت،لبنان،ط3، 2005.

. **أبو فراس الفرزدق**،الديوان ،شرح وتقديم .علي فاعور ،، دار الكتب العلمية، ط1، 1987.

. **ابن الفارض عمر بن علي**،ديوان ابن الفارض، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة المصرية، بيروت، 2008.

. **جرير بن عطية الخطفي**،ديوان جرير،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1986.

. **طرفة بن العبد**، الأعلم الشنتمري، ديوان طرفة بن العبد البكري، تح:درية الخطيب،لطفي الصقال،المؤسسة العربية،بيروت،لبنان،ط2، 2000.

. **محمد بن ادريس الشافعي**، الديوان،تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي،دار الغد العربي،القاهرة،ط2، 1985.

. **العربي بن مصطفى التشوار**، ديوان أبي مدين شعيب، المنن الربانية الوهبية في المآثر الغوثية الشعيبية ، مطبعة الترقي، دمشق،ط1، 1938.

. **النابغة الذبياني**، الديوان، شرح وتقديم عبد الساتر، (ماجستير في اللغة العربية وآدابها) ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 1996م.

د- المعاجم:

. **ابن منظور**، لسان العرب ،مادة (وقع)، ،ج6، دار صادر، بيروت، ط1، 1997 .

. **أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي**، معجم اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، سوريا، 1979.

. **الزمخشري**، أساس البلاغة ،دط، دار الفكر ،بيروت،2004.

. **مجمع اللغة العربية**، المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم،القاهرة، دط ، 1994.

- **الدوريات:**

. **أحمد الطريق أحمد** ،الخطاب وخطاب الحقيقة، مبحث في لغة الإشارة الصوفية، مجلة فكر ونقد، عدد40،يونيو ، دار النشر المغربية، سبريس، الدار البيضاء2001.

. **توفيق الطويل**،خصائص التصوف الإسلامي، العدد :87، مارس، منشورات وزارة الثقافة، الكويت، 1985.

. **حسين جمعة** ،جمالية التصوف مفهوما ولغة، مجلة الموقف الأدبي، عدد 364، اتحاد الكتاب الغرب، دمشق.

. **حميدي خميسي**،اللغة الصوفية، مجلة اللغة والأدب، عدد 10،ديسمبر معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر،1996

. **فخري ابو السعود**،في الأدب المقارن، مجلة الرسالة، العدد 207، 1937.

- **المصادر باللغة الفرنسية:**

. le grand robert de la langue française – tome lx ,paris,1985

- **المصادر المترجمة :**

. **اسين بلاتيوس**، ابن عربي ،حياته ومذهبه، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، أم دار القلم، بيروت.

. **رينيه ويلك ،و اوسطنوارين** ،نظرية الأدب، تر : محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،1987.

. **سبنسر ترمنجهام**،الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية ، بيروت ،ط1،1997.

. **شارل اندريه جوليان** ،تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي ،البشير بن سلامة، ، الدار التونسية للنشر، تونس ،ط2، 1983.

.**فيليب حتي**،**الإسلام منهج حياة** ، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1997

- **الرسائل الجامعية :**

. **بولعشار مرسلي**، الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، ابن الفارض نموذجا، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة وهران، 2014 ـ 2015.

. **حمزة حمادة**،جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة، إشراف أحمد موساوي، 2007 ـ 2008.

. **رابح محوي**،الأبعاد الفكرية والفنية للشعر الصوفي بحاضرة بجاية في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه، إشراف عبد الرحمن تبرماسين، جامعة محمد خيضر ،بسكرة، 2015 ـ 2016.

. **سعيد نواصر**،الخطاب الروحي في الأدب الصوفي قصائد الوجد لمحي الدين بن عربي، "نموذجا "، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في العلوم، تخصص : القرآن الكريم والدراسات الأدبية، إشراف محمد طول، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان ،2016 ـ 2017.

. **الطاهر بونابي**، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين ،14-15 الميلاديين، أطروحة دكتوراه – العلوم – في التاريخ، إشراف عبد العزيز،جامعة الجزائر ،2008-2009.

الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين، 12و13 الميلاديين، رسالة ماجستير ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة ،1999.

. **نسيمة مكيوي**،الشيخ أبو مدين شعيب ونثره (الولي الصالح سيدي بومدين)، رسالة لنيل شهادة ماجستير في الأدب الشعبي،إشراف د. محمد مرتاض، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006 ـ 2007.

-المواقع الالكترونية:

.**ابنعربي**،الفتوحات المكية، طبعة إلكترونية، مكتبة المصطفى، www.al-mostafa.com

. **عبد الله بن عمر الشاطري**، ديوان الحبيب الشاطري، www .shamela.ws

. **قوام الدين عبد الستار محمد الهيتي**،آيات الحكمة دراسة تحليلية موضوعية، الموقع الالكتروني www .iasj.net

الفهرس

الفهرس:

العنوان	الصفحة
بسملة	
شكر و تقدير	
اهداء	
مقدمة	أ
المدخل : التصوف المفهوم النشأة والأصل والمصدر	01
أولا : مفهوم التصوف	02
أ- التصوف لغة	04
ب- التصوف اصطلاحا	07
ج- أقسامه	14
ثانيا : نشأة التصوف وتطوره	23
أ - نشأة التصوف	23
ب- عوامل نشأة التصوف	26
ب – موضوعات التصوف	30
ج – مصادر التصوف	31
الفصل الأول : أبو مدين (عصره، حياته وآثاره)	42
1 ـ الأوضاع السياسية والإجتماعية والفكرية	43
أولا : الوضع السياسي	43
ثانيا : الوضع الإجتماعي	44
ثالثا : الأوضاع الفكرية والروحية في عصر أبي مدين	45

1. الوضع الفكري	45
2 ـ حياة أبو مدين شعيب	46
اولا : مولده ونشأته العلمية .	46
ثانيا : التصوف عند أبي مدين شعيب.	48
ثالثا : شيوخه .	50
رابعا : مؤلفات أبو مدين واثاره.	65
خامسا: آراء الآخرين في الشيخ أبي مدين	83
سادسا: قصة وفاته	92
الفصل الثاني : القصيدة الصوفية (الإرهاصات والخصائص)	95
أولا : أهمية النزعة الصوفية في الأدب عامة والشعر خاصة	96
ثانيا : نشأة القصيدة الصوفية	98
ثالثا : مصادرها	101
رابعا : الصلة بين التصوف والشعر	103
خامسا: أغراضها (أنواع الأدب الصوفي شعرا)	107
سادسا : خصائص القصيدة الصوفية	113
- أسلوب التناص في قصائد أبي مدين شعيب	121
أ- التناص القرآني	121
ب- التناص الشعري	122
سابعا : جمالية اللغة الصوفية ومستوياتها	123
الفصل الثالث : تجليات الحكمة في شعر أبي مدين شعيب	165
أولا : مدلول الحكمة	166
أ ـ مدلول الحكمة اللغوي	166

ب . مدلول الحكمة في القرآن الكريم	169
ج . مدلولها كما وردت في السنة	173
د . مدلولها عند بعض العلماء	176
ثانيا: مقتضيات الحكمة	179
أ- الحكمة والعقل	179
ب- الحكمة وكمال الإنسان	180
ثالثا : مصادر الحكمة في شعر أبي مدين	182
1). المصادر الأصيلة	182
أ . موهبته واستعداداته النفسية	182
ب . الظروف والأحداث التي عاشها وأثرها في تكوين فكره	183
ج . انتشار الأدب الصوفي في عصره	186
2) المصادر الأجنبية	187
الفكر الفلسفي وأثره على العقلية العربية	187
. رابعا : تجلي الحكمة في قصائده	189
أ . قصيدة: (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا)	192
ب . قصيدة : (أنت بما قد سقيت شارب)	232
الخاتمة	243
قائمة المصادر والمراجع	249
الفهرس	270

الملخص:

تعد القصيدة الصوفية نتاج لمعاناة صادقة، نابعة من تجارب وخبرات الشاعر الصوفي، فهي تجربة متميزة، تكسب الألفاظ معاني روحية وجدانية تملؤها بإيحاءات تبعدها أحيانا عن مقصدها الحقيقي، فتضفي عليها معنى جديد. وقد كان العارف بالله شيخ الشيوخ أبي مدين شعيب من الشعراء الذين جرت الحكمة على لسانه، فظهرذلك في معظم كتاباته وقصائده والتي كان منبعها الأول الكتاب والسنة، هادفا بذلك إلى تربية النفس وتهذيبها على القيم الأخلاقية والسمو بها إلى أعلى المقامات والمراتب .

الكلمات المفتاحية: القصيدة الصوفية، الحكمة، أبي مدين شعيب، المصادر، المنابع، الأحوال والمقامات .

Résumé :

La poésie soufie est le fruit d'une douleur sincère émanante des expériences du poète Soufi. cette dernière est considérée comme une expérience singulière qui revête les mots d'une signification mystique,que, leurs connotationsles distancedu sens origineltout en leur accordant un nouveau.Le croyant en Dieu, le cheikh Abu Mad'ianShu'aibfut l'un des poètes éminent dont la sagesse faisait partie intégrale de sa personne. Ceci apparaît dans la plupart de ses écrits et poèmes, dont la première source était le Livre et la Sunna, dans le but d'éduquer l'âme aux valeurs morales et de l'élever aux plus hauts rangs.

Mots-clés : Poésie soufie, Sagesse, Abu Mad'ianShu'aib, Références, Sources,Etats et Rangs.

Abstract :

Sufi poetry is the result of the Sufi poet's genuine pain. The latter is regarded as a singular experience that endows the words with a mystical meaning, and its connotations separate them from the original meaning while offering them a new one. Sheikh Abu Mad'ianShu'aib, a believer in God, was an outstanding poet whose wisdom was an intrinsic part of his persona. This appears in most of his writings and poems, the primary source of which was the Book and Sunnah, with the aim of educating the soul in moral values and raising it to the highest ranks.

Keywords: Sufi poetry, Wisdom, Abu Mad'ianShu'aib, References, Sources, States and Ranks.